2692
5 1A

على هامش

التاريخ المصري القديم

تأليف

عبد القادر حمزه باشا

المجلد الثاني

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤١

على هامش

التاريخ المصري القديم

تأليف

عبد القادر حمزه باشا

المجلد الثاني

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبيه الكريم

حديث بيني وبين القراء

حينما أصدرت المجلد الأول من كتابي هذا كنت على يقين من أن موضوع البحث فيه سيقابل بكثير من الاهتمام، فلما صدر إذا بهذا الاهتمام يفوق كل ما توقعته، وإذا به يأتي من الأوساط العلمية والأدبية كريما فياضا، ثم إذا بالمتخصصين فى علم الآثار المصرية يأخذهم حبهم لعلمهم فيكونون أكرم من غيرهم ترحيبا وتشجيعا .

فلكل هؤلاء الذين حببوا إلىّ عملى هذا، وشجعونى على المضى فيه، دين من الشكر باق فى عنقى . والله سبحانه وتعالى يقدّرنى على الوفاء به ويجزيهم أحسن الجزاء .

وليس عجيبا أن يقابل المجلد الأول بهذا الاهتمام، فموضوع الحديث فيه تاريخ مصر القديم، وقد اخترت أن لا يكون هذا الحديث تاريخا على الأسلوب المألوف، أسلوب سرد الأسر واحدة بعد أخرى والملوك واحدا بعد آخر، بل دراسات يمكن أن يقال إنها من عصارات التاريخ، فيلوح لى أن هذا الأسلوب أرضى القراء، وكان له نصيب فى إثارة اهتمامهم، وحمل الأدباء والعلماء منهم على تشجيعي بكلماتهم الطيبة من ناحية، وباقتراحاتهم الثمينة من ناحية أخرى .

وقد كان طبيعيا أن تذكي المسائل التى عالجتها فى المجلد الأول الشعور بالقومية المصرية، لأن إذكاء هذا الشعور طبيعة فى كل تاريخ، إذا صدر فيه كاتبه عن هذا الشعور نفسه، مع وزن للحقائق وحرص عليها . وتاريخ مصر القديم أقدر التواريخ كلها على إثارة هذا الشعور، تلك فضيلة فيه أغتبط بأن أرى كل الذين كتبوا إلىّ

أو كتبوا فى الصحف أو تكلموا فى الإذاعة اللاسلكية قد اتفقوا عليها وأجمعوا على إبرازها . ولهذا الإجماع قيمة كبيرة لأن أحدا من أصحابه لم يكن مطلوبا منه أن ينحو فى ما كتبه أو تكلم به نحوا معينا ، بل لم يكن مطلوبا منه أن يكتب أو يتكلم ، فان كانوا مع ذلك قد وجدوا فى نفوسهم دافعا لأن يكتبوا ، وكانت كتاباتهم كلها قد نمت عن شعور واحد ، فمعنى ذلك أن هذا الشعور ثار فيهم جميعا ، وأن إثارته فضيلة قوية فى تاريخ مصر .

وسأقتطف هنا بعض ما يدل على هذا المعنى مما كتبه الأصدقاء والأدباء والعلماء . وسأتحاشى ما استطعت الكلمات التى رأوا ، كرما منهم ، تشجيعى بها أو مجاملتى .

فصاحب الدولة حسين سرى باشا يقول :

« أرى كما قلتم فى المقدّمة أن واجب الجميع يقضى بالحث على تعليم التاريخ المصرى القديم فى المدارس بدرجاتها المختلفة ... ... وإنى ختاما أكرر شكرى لك كمصرى مخلص يحب وطنه وتاريخ بلاده » .

والمغفور له حسن صبرى باشا يرى أننى توخيت فى الموضوعات التى عالجتها :

« ناحية مهمة فى تاريخ مصر » .

وصاحب السعادة الدكتور أحمد ماهر باشا يقول إن الموضوعات التى عولجت :

« ألقت ضوءا جديدا على حقبة من تاريخ مصر المجيد » .

والمغفور له يونس صالح باشا يرى أن المجلد الأوّل :

« يسدّ فى اللغة العربية ثغرة ، ويتلافى نقصا كبيرا فى مواد التاريخ المصرى الذى يجب على شباب مصر ورجالها أن يعوه » .

وصاحب السعادة محمود فهمى القيسى باشا يرى أننى كنت فيما كتبته :

« مصريا أمينا ، ووطنيا مخلصا ، ومؤرّخا مدققا موفقا » .

وصاحب السعادة محمد على علوبه باشا يقول إن هذه المسائل :

« لها أثرها العميق فى التربية الوطنية وفى المجد المصرى » .

وصاحب السعادة محمد زكى الإبراشى باشا يقول :

« إن فى هذا التاريخ الأدلة القاطعة على عظمة مصر الغابرة ومجدها القديم وفضلها على العالم، ذلك الفضل الذى أنكره من أعمى الله قلوبهم فأكدوا فيما كتبوه ألا فضل لمدنية على العالم إلا للمدنية اليونانية، وأن ما أصاب العالم من خير فليس مرجعه إلا للمدنيـــة اليونانية دون سواها ... ... إن هذه الكنوز تغذى القلوب وتخدم العزة القومية وتعلى شأن الوطن » .

وصاحب السعادة توفيق دوس باشا يرى أن المجلد الأول :

« كشف عن نواح من تاريخ جدودنا كانت غائبة عن الكثيرين، ومجهولة من الأكثرين » .

وصاحب السعادة الدكتور ابراهيم فهمى المنياوى باشا يرى أن :

« إبراز هذا القسم من تاريخ مصر يغذى المصريين شبابا وكهولا فى نهضتهم الحاضرة » .

وصاحب السعادة سابا حبشى بك يقول :

« إن لهـــذا التاريخ أثره فى بناء الخلق المصرى الذى يعتز بالمـاضى المجيد ويتطلع إلى مستقبل سعيد لبلادنا العزيزة » .

والأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك يقرر أن :

« إبراز معالم التاريخ المصرى القديم وعرضها فى صور صحيحة واضحة جذابة، يفيضان حياة وقوة، يغرسان فى نفوس الجيل حب مصر القديمة، ويصلان بها إلى حيث مصر الحديثة » .

وأنتقل بعد ذلك إلى رسائل الأدباء والعلماء . فالأستاذ عباس محمود العقاد يقول :

« مجلدان آخران من قبيل هـــذا المجلد كفيلان بنقل الزمن القديم فى مصر إلى عالم الحياة الحاضرة . فقد كفانا من التاريخ ما يخرجنا من الحياة الحاضرة إلى الزمن القديم » .

والأستاذ أحمد أمين بك يقول إن الموضوعات التى عولجت :

« تشعل نار الوطنية » و « تبعث العزة القومية » .

والدكتور زكى مبارك يذكر الكتاب فيقول إنه :

« سلسلة تربط حاضر مصر بماضيها، وتروض المصرى على الاقتناع بأنه نشأ فى بلد كان المصدر الأول لجميع المدنيات » .

ويقـــول :

« شغل المؤلف نفسه بالتدليل على عراقة المدنية المصرية ، وهى أقدم مدنية عرفها التاريخ ، ولا ينافسها فى القدم غير حضارة الكلدان فى وادى الفرات... ... ... والأصل الذى استوجب عراقة المدنية المصرية هو النيل ، فالنيل هو النهر الثانى فى العالم بعد المسيسيبى من حيث القوة ، ولكنه النهر الأول فى العالم من حيث المدنية ، فهو أقدم نهر قامت على شواطئه كبريات المدائن ، وأقدم نهر نظمت فيه الملاحة واتخذت مياهه مطايا لخدمة الاقتصاد ، وهو كذلك أقدم نهر أوحى إلى أهله عرائس الشعر والخيال.. أقول ذلك لأؤيد حجة الأستاذ عبد القادر حمزه فى قوله بأن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت شعب آخر . ولو قال إنها نبت لكان التعبير أظرف ، لأن المدنية المصرية نشأت فى خصائصها الأصلية وكأنها من عمل الطبيعة لا من عمل الناس » .

والأستاذ عبد العزيز البشرى يقول :

« إن قراءته (يريد قراءة المجلد الأول) قد أثارت فىّ لونا من العواطف ، هو لون ولا ريب عنيف ، ولكنه حلو ممتع لذيذ ، يملأ المصرى مرحا وأريحية وزهوا... ... إن قارئه لا يكاد يسرح النظر فيه حتى يشعر أن الأرض لا تتسع له من زهو بمصريته ، ونخار بتاريخ وطنه القديم... ... إنه ليشعرنا من العزة أقواها ، ومن التفاخر بتاريخنا أبلغه ، ويعقد إيماننا على أننا لم نكن سادة العالم فحسب ، بل لقد كنا أساتذته أيضا » .

والأستاذ خليل بك مطران يرى أن المؤلف :

« أهدى إلى مكتبة بلاده العربية أمس ما تدعو إليـه الحاجة لإنعاش العزة القومية وإنهاض الروح المصرية » .

والأستاذ سلامه موسى يرى أن قارئ المجلد الأول :

« يحس كبرياء وقومية تكاد تكون زهوا ، ويكاد يصيح : « أولئك آبائى » . ثم يقول :

« إن هذه الدراسات تنير الذهن وتحمس القلب وتجعل تراث مصر الثقافى ملكا للمصريين » .

والأستاذ محمد لطفى جمعة يقول إن المجلد الأول :

« جعلنا نشعر بالقوة كلما مرت بخاطرنا ذكريات هذا التاريخ المجيد » .

والأستاذ محمد زكى عبد القادر يقول :

« إن المؤلف ساير النهضة الحديثة منذ فجرها ، ودعا إلى الاستقلال ، ودافع عن الاستقلال ، وتتلمذ على قلمـه كثير من أبناء هذا الجيل ، ولكنى أعتقد أن أعظم خدمة أداها للاستقلال المصرى والقوميـة المصرية إنما كانت بإخراج هذا الكتاب عن التاريخ المصرى القديم » .

والأستاذ حافظ محمود يقول إن عرض التاريخ القديم على الأسلوب الذى عرض به فى المجلد الأول :

« جعلنا نشعر بالقوة كلما مرت بخاطرنا ذكريات هذا التاريخ المجيد » .

وجريدة الأهرام ترى أن كتابة الموضوعات التى كتبت :

« خدمة جليلة للتاريخ القومى » .

وجريدة المقطم تقول إن هذه الموضوعات :

« تهذب ناحية من نواحى الثقافة العامة ، وترد إلى أبناء مصر صورة مجد لهم قد يغيب عن بعضهم » .

وجريدة المصرى تذكر الكتاب فتقول إنه :

« جاء أشدّ ما يكون الشباب المصريون حاجة إليه ليفهموا فهما صحيحا آثار مجدهم الغابر وليكون لهم من هذا الفهم نزعة إلى الوثوب والمحاكاة ومباهاة الشعوب فى تراث منقطع النظير فى العظمة والفخار » .

ومجلة الأزهر تقول إن المؤلف :

« كان يتوخى غرضين : أولهما العلم لذاته ، وقد وفاه حقه إلى حدّ بعيد يجعله فى مقدّمة الدراسات الممحصة التى لا يحتاج معها مطالعه إلى المزيد ، وثانيهما باعتبار أن التاريخ خير ما يبنى فى نفوس النابتة الشعور بالعزة القومية ، وهى كما لا يخفى من أكبر العوامل فى بعث الهمم لإبلاغ المجتمع أرقى ما يمكن أن يصل إليه من الشرف والسؤدد » .

ومجلة الصباح تقول إن العناية بالمحافظة على تراث الآباء وعظمة الأجداد تبعث فى قلوب الأبناء والحفدة :

« جذوة من الجد والعمل » . وحينئذ : « يختلط بدمائهم حب بلادهم ، ويجرى فى شرايينهم مجرى الدم النهوض بها إلى الذروة العليا ، حيث الفخار والسؤدد » .

أما المتخصصون فى علوم الآثار ، فمنهم الدكتور سامى جبره يقرر أن تاريخ مصر القديم :

« يجب أن توجه إلى دراسته شبيبة مصر المستقلة لتقوى الروح القومية فيها » .

والأستاذ محمود درويش الذى ندبته وزارة المعارف لدرس الكتاب ووضع تقرير عنه يقول فى تقريره هذا :

« لا شك أن هذا الكتاب باكورة طيبة للتأليف باللغة العربية فى هذه الناحية التى تلمس جانبا حساسا من عزتنا القومية وتراثنا القديم » .

فهذه كلها رسائل، وهناك عشرات غيرها، اتفق أصحابها على أن إنماء الشعور بالقومية فضيلة فى التاريخ المصرى، بجانب ما فيه من الفضيلة العلمية، وهم لم يتفقوا إلا على حق .

* * *

ومتى كان هذا شأن التاريخ المصرى، فواجب أن يأخذ نصيبه كاملا فى التعليم . وهنا يتجه كل مفكر بنظره إلى وزارة المعارف .

فقد تقدم أن صاحب الدولة حسين سرى باشا يقول :

« إن واجب الجميع يقضى بالحث على تعليم التاريخ المصرى القديم فى المدارس بدرجاتها المختلفة » .

ولما كان دولته يحسن الظن بالمؤلف فقد اقترح عليه فى ذلك اقتراحا يرجو المؤلف أن يوفقه الله إليه .

وصاحب السعادة ابراهيم فهمى المنياوى باشا يقول :

« حبذا لو أصغت وزارة المعارف لنصيحتكم وحتمت دراسة تاريخ مصر القديم درسا وافيا لطلبة القسم الثانوى وجعلته علما أساسيا حتى يعرف المصريون تاريخهم كما يعرف الأوربى تاريخ بلاده » .

وصاحب السعادة محمد زكى الإبراشى باشا يطلب العناية بتدريس التاريخ المصرى القديم كما يعنى بتدريس مثله فى المدارس الأجنبية .

والدكتور سامى جبره يقول :

« من المؤلم أنه فى بلادنا — مهد المدنية وبها الآثار التى تحدثنا كل يوم وتنفث فينا روح العزيمة — تهمل وزاراتنا دراسة تاريخ مصر القديم، كما كان الشأن فى العهود الماضية . وقلما نذكر مصر القديمة، وقلما نهتم بها فى أحاديثنا » .

والنائب المحترم محمد توفيق خليل يقول :

« اذا كان صحيحا قولكم إن المصريين يعرفون عن غيرهم أكثر مما يعرفونه عن بلادهم، وإن صورة مصر المشوهة لا تزال عندهم على ما هى عليه، فانه صحيح أيضا أن هؤلاء العارفين لا يتجاوزون بضع مئات من المثقفين، ومثلهم أو أكثر قليلا ممن تتصل أعمالهم بآثار مصر أو ممن يقيمون على مقربة من هذه الآثار .

وعندى أن ذلك لا يرجع إلى نقص فى استعداد المصريين، ولا إلى رغبتهم عن دراسة تاريخ آبائهم الأولين، ولكنه يرجع، كما قلتم بحق، إلى نقص فى مناهج التعليم » .

*
* *

ولكن هـذا الحث على أن تعنى وزارة المعارف بتعليم التاريخ المصرى القديم، كلام سهل، لأنه مبهم، فما المراد منه على التخصيص ؟

ما الذى تستطيعه فى ذلك وزارة المعارف ولم تفعله ؟

إن الرغبـة الحسنة لا تنقصها فيما أعلم . وليس يمكن تصوّر هـذا النقص نحو تاريخ لمصر ليس كمثله تاريخ ، ولكن ما الذى تسـتطيع هذه الوزارة فعـله ، إذا لم توجد الكتب العربية ؟

هنا يقول أحد المتخصصين فى علم الآثار المصرية وهو الأستاذ أحمد فخرى :

«أخذتم على المشتغلين بالمصرولوجية من المصريين عدم الإنتاج الكافى ولكنكم لم تأخذوا على وزارة المعارف — ودعنا من الجمعيات العلميـة — إهمالها تشجيعهم على الإنتاج . ولقد أشرتم إلى مؤلفات المرحوم كمال باشا والمرحوم أحمد بك نجيب وترجمة الدكتور حسن كمال لكتاب «تاريخ مصر» لبرستيد، ولكن يجب ألا يغيب عن ذهنكم لحظة واحدة أن جميع هذه المؤلفات طبعت على نفقة الحكومة وأن أصحابها نالوا على كل منها مكافآت مالية . وقد كان ذلك منذ عشرات السنوات فهل هنالك الآن شىء من هذا رغم ما نلمسه جميعا من تقدّم النهضـة الفكرية . أنى أؤكد أنه لو علم شباب المشتغلين بالآثار أن الحكومة تقوم فقط بطبع أبحاثهم لأقدموا آمنين مستبشرين على التأليف باللغة العربية ليفيدوا مواطنيهم » .

فأنا أضع هـذا أمام وزارة المعارف ، ولا أشك فى أنه سيجد عنـدها ما هو خليق به من التقدير . ولكنى من ناحية أخرى لا أشك فى أن هؤلاء الذين نذروا أنفسهم للتاريخ المصرى القديم فخدموا بذلك وطنهم وأزالوا وصمة كانت لاصقة به من جراء تفرّد الأجانب بعلوم الآثار المصرية، سيجدون فى حبهم لهذه العلوم أعظم دافع لهم على التأليف باللغة العربيـة ، مهما تكن التضحية التى يستهدفون لهـا . وستكون لذتهـم بالتأليف أقوى من كل تضحية ، فلقـد أصاب صاحب السعادة صادق حنين باشا إذ كتب إلىّ يقول :

« إن هذه البحوث، مهما تسيغ من الغبطة على القارئ، تفيض السعادة الكاملة على منشئها، شأنها فى ذلك شأن الفن الرائع، هو بهجة للفنان أكثر منه بهجة للناظرين» .

ويجب أن لا يفهم أحد من ذلك أن هنالك ما يؤخذ على المتخصصين فى علم الآثار من المصريين، كلا فان هؤلاء المتخصصين يواصلون الأيام بحثا وتنقيبا، ويعملون عمل العلماء الخليقين بهذا الوصف، فيخرجون الكنوز التاريخية من جوف الأرض، وينكبون عليها لفحصها وتقدير قيمتها العلمية وقراءة ما قد يكون عليها من الكتابات، ثم يضعون بذلك كله تقارير لمصلحة الآثار، وكثير منهم يكتبون باللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية بحوثا فى المجموعة السنوية التى تصدرها هذه المصلحة ويضعون رسائل يتداولها العلماء. فهم يعملون دائبين فى سكون. وسيجىء الوقت الذى يكتبون فيه باللغة العربية لخدمة التعليم والجمهور. وقد بدأ أحدهم وهو صديقى الدكتور سليم بك حسن فأخرج باللغة العربية منذ أشهر قليلة كتابا نفيسا بعنوان « مصر القديمة » من جزءين ضخمين فى تاريخ الدولة القديمة وحضارتها. وستتلوه إن شاء الله كتب وكتب[1].



والآن أسوق شيئا من الاقتراحات والملاحظات التى جاءتنى شاكرا لأصحابها عنايتهم بإرسالها.

فالدكتور سامى جبره يضيف إلى أسماء العلماء الذين قلت فى المجلد الأول إنهم درسوا عصر ما قبل التاريخ فى مصر، اسمى العالم برنتون (G. Brunton) والعالم بوفي لابير (Père Bouvier La Pierre). وأولهما عثر على بقايا العصر الحجرى بأقسامه الثلاثة فى منطقة العباسية. والثانى تناول بالبحث مدنية البدارى فى ثلاثة مجلدات.

والدكتور جورجى صبحى بك لا يوافق على كلمة «مصرولوجيا» ويرى أن كلمة «ايجبتولوجيا» أحق منها بالبقاء. فاذا أردنا التعريب قلنا «علم مصر القديمة».

---

(١) أذكر هنا أيضا أن وزارة المعارف طبعت فى هذه الأشهر الأخيرة كتابا مدرسيا فى « تاريخ مصر القديمة » ألفه الأستاذ ابراهيم نمير سيف الدين المفتش بالتعليم الثانوى والأستاذ زكى على المدرس بكلية الآداب والأستاذ أحمد نجيب هاشم المفتش بالتعليم الثانوى، وراجعه الأستاذ محمد شفيق غربال العميد السابق لكلية الآداب.

ويقول إن لفظ « سين » يقرأ «أسوان» لأنه كذلك فى اللغة القبطية وفى اللغة المصرية القديمة .

ولفظ «ايلفتين» يقرأ «ايفانتينى» بالياء، وهو الترجمة اليونانية للكلمة المصرية «يب» ومعناها الفيل، وهى تطلق على الجزيرة التى تعرف الآن باسم «أنس الوجود» .

واسم «حابى»[١] هو اسم النيل الدينى ، أما الاسم العام للنيل فهو «نيارو» . وقد بقيت هذه الكلمة فى القبطية، وربما كانت أصلا لكلمة «النيل» ، وخاصة لأنها كانت تنطق فى الفيوم «نيالو» ومعناها الحرفى «الأنهر» .

وكلمة «نابرى» إله الحبوب تنطق فى اللغة المصرية القديمة «نپرى» وهى كلمة ما زالت مستعملة عند الفلاحين، وذلك أنهم يقولون «نبارى» ويعنون الحبوب، ويقولون «زرعنا فى هذه السنة نبارى» أى قمحا وذرة وفولا .

ولم تنقرض اللغة المصرية بعد دخول المسيحية مصر، بل تحولت إلى ما سمى اللغة القبطية، وهى اللغة المصرية التى كان المصريون يكتبونها قبل المسيحية بالحرف الديموطيقى ، ثم كتبوها بعد المسيحية بالحرف اليونانى مع إضافة ستة أحرف إليها . أما الذى انقرض فى أواخر القرن الرابع المسيحى فهو الكتابة بالحروف الهيروغليفية. وقد استمر الكلام باللغة القبطية إلى القرن السابع عشر الميلادى، ثم اختفى بالتدريج فى عهد الترك . وكانت محافظة الأقباط على لغتهم القبطية أعظم عون للعلماء على معرفة اللغة المصرية القديمة وترجمة معانيها .

وكلمة «نحارينا» نطقها الأصلى «نهارينا» وهى الاسم السامى للجزء الشمالى من بلاد ما بين النهرين . ومعناها بلاد النهرين .

و «أمينوفيس» هو النطق اليونانى للاسم المصرى القديم «أمنوپى» (Amenopi) وظن قبلا أنه نطق لاسم «امنحتب» ولكن صحة النطق اليونانى لاسم الملك «امنحتب» هى (Amenothès) بسقوط الياء الأخيرة .

---

(١) النطق المصرى لهذا الاسم هو « حب » أو « حعبى » وأحيانا يكتب « حربى » .

واسم إلهة العـدل «معات» كان ينطق باللغة المصرية القديمـة «ماعْت» أو « ماعة » بالتـاء المربوطة التي خففت ثم سقطت وبقيت الكلمة فى القبطيـة «ماى» بمعنى العدل والاستقامة .

⁂

وتفضـل باحث كريم[1] فكتب إلىّ يقول إنه « يرى استعمال أسماء المعبودات والملوك القديمـة حسب نطقها المصرى ، لا حسب نطقها اليونانى . فيقال هور أو حور بدل حوريس ، وإيسى بدل إيزيس ، وأوسيرى بدل أوزريس ، وامنحتب بدل أمينوفيس ، وأحموسى بدل امازيس » .

واستعمال أسمـاء المعبودات والملوك حسب نطقها المصرى ، لا حسب نطقها اليونانى ، يصادف هوى فى نفسى من الوجهة المصرية ، وهو ممكن فى بعض الأسماء مثل امنحتب ؛ ولكنه تقوم فى وجهه صعوبات فى كثير من الحالات . وذلك لأن هناك أسمـاء ترددت ، وما زالت تتردد ، وسوف تتردد ، عشرات من السنين ، حسب نطقها اليونانى أو نطقها القبطى أو نطقها العربى فى جميع المؤلفات الأوربية ، فاستعمالها بنطقها هذا فى المؤلفات العربية يقربها لقارئ هذه المؤلفات ، ويقرب منه المؤلفات الأوربية . أما استعمالهـا حسب نطقها المصرى فقـد يوقع اضطرابا فى ذهنه ويحول دون التقريب المرغوب فيه .

خذ مثـلا « ايسى » بدل « ايزيس » فان أولهـما مهجور والثـانى متـداول معروف . وهو يكتب بالنطق اليونانى فى جميع المؤلفات باللغـة الأجنبية ، فنظن أن من الصواب أن يكتب بهذا النطق نفسه فى المؤلفات العربية لئلا يختلط الأمر على قارئ هذه وتلك .

ومثلا آخر «ممفيس» ، فان اسمها المصرى «منتفر» (Mennefer) ومعناه المكان الحسن ، أو «خع — تاوى» (Khou-taoui) ومعناه نور الأرضين ، أو «مخات — تاوى»

---

(١) لم أذكر اسم هذا الباحث لأنى لم أستأذنه فى ذكره ولأنى أناقش هنا رأيه .

(Makha-taoui) ومعناه ميزان الأرضين . فهل إذا استعملنا أحد هذه الأسماء الثلاثة ونبذنا اسم «ممفيس» الذى هو النطق اليونانى ، والذى تستعمله جميع المؤلفات الأوربية نكون قد قربنا هذه المؤلفات للقارئ أو نكون قد أوجدنا اضطرابا فى ذهنه .

ومثلا ثالثا لمدينة دندرة، فان اسمها المصرى «ايونت» (Enet) أو «ايون – تا – نترت» (Uon-t-netrt) ، وقد صار اسمها فى اليونانية «تنتيرا» (Tentyra) ثم صار فى العربية «دندرة» وهذا النطق العربى هو المستعمل الآن فى المؤلفات الأوربية دون النطق المصرى والنطق اليونانى . والجمهور المصرى يعرفه ، فليس من الصواب ، فيما نظن ، تركه فى المؤلفات العربية .

فهناك إذن أسماء مشهورة متداولة فى المؤلفات الأجنبية ، بعضها بالنطق اليونانى ، وبعضها بالنطق العربى ، وبعضها بالنطق القبطى ، يحسن أن تبقى فى المؤلفات العربية بنطقها الذى اشتهرت به . وليس ما يمنع من أن يوضع أمامها نطقها المصرى ، زيادة فى البيان ، ورغبة فى الإفادة ، كلما كان ذلك ممكنا .

وقد عرضت هذه المشكلة للأستاذ أدولف إرمان حينما وضع كتابه «ديانة المصريين» — (La Réligion des Eg.) فكتب فى مقدّمته يقول :

« أبقينا لأسماء الآلهة والملوك شكلها المألوف ، لأن أغلبها لا يمكن ردّه إلى أصله بدقة وثقة . ولهذا كان الأفضل أن نحافظ على الأشكال المغلوطة التى ألف استعمالها مثل سوكاريس ، ونوت ، وشو ، وايسيس ، وبيى ، بدلا من محاولة إبدالها بأشكال من الأسماء جديدة ، قد تكون فى الأرجح مثل غيرها فى الغلط . وهذه الصعوبة التى نجدها فى أسماء الآلهة والملوك تزداد فى أسماء المدن .

«فبجانب الأسماء اليونانية التى يستحب اليوم استعمالها ، سيرى القارئ أننا نستعمل أيضا أسماء مصرية ، وإن تكن ثقتنا بنطقها باللغة المصرية لا يمكن الركون إليها . كما نستعمل أسماء قبطية ، وأسماء عربية على الرغم مما فى هذه الأسماء العربية من التحريف .

« واذن لا يدهش القارئ إذا وجدنا نذكر تارة هرمو بوليس ، وتارة شمون (Shmoun) وتارة جدو (Djedou) وتارة بوزريس (Bousiris) . ثم لا يدهش إذا كانت أسماء مثل اهناس والأقصر[١]

(١) الأقصر اسم عربى هو جمع القصر ، وهو مستعمل بنطقه العربى فى جميع المؤلفات الأوربية .

تختلط بالأسماء القديمة . وقــد لا يكون هذا المزيج عملا سليما من الوجهة العلمية ؛ ولكن الجرى على خطة واحدة والتشدّد فيها لا يؤدّيان إلا إلى خلق اضطراب فى الذهن وسوء فهم» .

فهذا إذن هو الأستاذ أدولف إرمان، وهو من أكبر العلماء فى اللغة المصرية، وأحد الذين ترجموا كثيرا من نصوصها، يقرّر أن التشدّد فى الرجوع بأسماء المعبودات والملوك والمدن إلى أصلها المصرى قد ينقلنا من غلط إلى غلط مثله . ولهذا يكون أولى أن تبقى الأسماء المتداولة المشهورة على ماهى عليــه، سواء أكانت بنطقها اليونانى أم بنطقها القبطى أم بنطقها العربى — كما فعل إرمان — مع الإشارة إلى مقابلها المصرى، كلما كان ذلك ممكنا، وكان نطق المقابل محل اتفاق كثرة يركن إليها من العلماء .



ووقف هذا الباحث الكريم نفسه عند الكلمة التى نقلتها عن أحمد كمال باشا ، وهى قوله فى وصول المصريين إلى الوحدانية :

«قد اجتهدوا لحوّلوا التتسيع الأصلى إلى تثليث ، ثم وحدوا كل تثليث اتباعا لمذهب الأشمونين بأن ضموا الأب إلى ابنــه وبالعكس ، أو ضموه للزوجة فصارا ذاتا واحدة ، وبذلك أدخلوا بعض آحاد كل تثليث فى بعض وجعلوها معبودا واحدا حالا فى ثلاثة أقانيم متى أرادوا رآســه على التتسيع ... ... وكما حدث فى إدخال التثليث فى التتسيع حدث فى نفس التثليث بأن ضموا المعبودات الثلاثة بعضها لبعض فصارت معبودا واحدا . وبذلك أوجدوا الوحدانية . وعلى هذا نرى أن المصريين كانوا سائرين من طبيعتهم إلى إدراك الوحدانية المقدّسة ... ... ومما تقدّم يظهر أن علماء اللاهوت اشتغلوا من قديم الزمان بحصر صفات البارى فى معبود واحد بعد أن فرقت أسلافهم بينها» .

وقف ذلك الباحث الكريم عند هذا، وعند قولى تعليقا عليه إن ماسپيرو قال مثله، فكتب إلىّ يقول إن ماسپيرو لم يكتب شيئا كهذا الذى كتبه كمال باشا، وإن التثليث عند قدماء المصريين كان قائما على فكرة التناسل من طريق الزواج، فالأساس فيه آلهة ثلاثة مختلفة هى الإله الأكبر وزوجته وابنهما ، لا أقانيم ثلاثة لإله واحد .

فإزاء هذا أرى لزاما علىّ أن أنقل هنا ما كتبه فى ذلك ماسپيرو فى ص١٠٨ من الجزء الأوّل من كتابه :

(Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique)

وهو لا يختلف عما كتبه كمال باشا . فقد عرض ماسپيرو لبعض الحالات التى كانت تدعو إلى التثليث فذكر منها حالة اندماج معبودين متجاورين ، أحدهما فى الآخر، قال :

« كان يحدث أيضا أن اثنين متجاورين يندمج أحدهما فى الآخر، فيصيران صورتين لمعبود واحد يجمع فى ذاته درجات من القرابة هى متنافرة فى الأسرة البشرية . فهو أب باعتبار أنه العضو الأول فى التثليث ، وهو ابن باعتبار أنه العضو الثالث فى هــذا التثليث ، وهو مماثل لنفســه فى الحالين ، فهــو فى الوقت ذاته أبو نفسه ، وابن نفسه ، وزوج أمه » .

ثم عاد ماسپيرو إلى موضوع التثليث مرة أخرى فى ص ١٥٠ من كتابه الذى تقدم ذكره فقال :

«توصل المصريون بسرعة إلى مزج اثنين متصلين هذا الاتصال الوثيق ، وإلى القول بأنهما وجهان ، أو شكلان ، مذكر ومؤنث ، لموجود واحد . فمن ناحية كان الأب واحدا مع الابن ، ومن ناحية أخرى كان واحدا مع الأم . وبذلك كانت الأم واحدة مع الابن كما كانت واحدة مع الأب . وكانت الآلهــة الثلاثة التى كان التثليث يتكون منهــا تتحول إلى إله واحد ذى ثلاث شخصيات . وبهذه الوسيلة لم يكن وضع تثليث فى رأس التتسيع سوى طريقة ملتوية يراد منها وضع إله واحد ، لأن الآلهة الثلاثة التى يتكون التثليث منها لم تكن فى العدد سوى إله واحد» .

ومن هذا الرأى فيليب ڤيرى(١) فى كتابه (La Réligion de l'Ancienne Egypte) المطبوع بباريس فى سنة ١٩١٠ ص ٧٦

ومن هذا الرأى أيضا ويلكنسون(٢) فى كتابه :

(The Manners and Customs of the Ancient Egyptians)

فى ص ٤٨٤ و ٤٨٥ و ٤٨٦ من الجزء الثانى .

وهذا لا يمنع أن تكون قد وجدت عند المصريين أقوال أخرى فى التثليث ، لسبب يعرفه كل الذين درسوا التاريخ المصرى القديم ، وهو أن هذا التاريخ يوجد فيه الرأى ونقيضه فى كثير من الحالات ، وخاصة فى المسائل الدينية . وتفسير هذا

(١) (Philippe Virey) . (٢) (Wilkinson) .

التناقض سهل، وهو أن مدنية تستمر حوالى أربعة آلاف عام لابدّ أن توجد فيها آراء ونقائضها . ونحن نشاهد الآن قواعد علمية تنهدم ويظهر نقيضها بعد مضى عشرات قليلة من السنين ، فما بالك بآراء دينية وفلسفية، هى بطبيعتها نظريات كلامية، فهى أكثر من غيرها تعرضا للتغيير، وخاصة عند تفتح العقل لأول بحث فيها . ثم ما بالك بأربعة آلاف عام .

فليس المهم أن تكون قد وجدت فى المدنية المصرية آراء مخالفة لما ذكرناه هنا، وإنما المهم أن يكون ما ذكرناه قد وجد فيها .



وقد كتب الأستاذ محمود درويش فى تقريره الذى رفعه إلى وزارة المعارف يذكر ما بيّنته من أثر المدنية المصرية فى المدنية اليونانية، ويقترح علىّ أن أبين هذا الأثر فى الفن اليونانى . قال :

« كانت الفرصة سانحة للمؤلف عندما تناول موضوع الصلات التى قامت بين المدنية اليونانية والمدنية المصرية ، فقد كان يمكن توضيح تلك الصلات جيدا بما يبدو من شبه ظاهر بين الفن المصرى والفن اليونانى فى عصوره الأولى على وجه خاص . فلعل المؤلف يتدارك ذلك فى الجزء الثانى من كتابه » .

ولاحظ الدكتور جورجى صبحى بك فى رسالته إلى أننى لم أذكر فضل المصريين على اليونانيين فى عالم الطب [1] .

وكتب إلىّ الأديب ابراهيم فهمى يطلب مزيدا من القول فى اقتباس المدنية اليونانية من المدنية المصرية .

وأنا أرحب بهذه الاقتراحات وأشكر لأصحابها ما تنطوى عليه من حسن الظن بى ورغبتهم فى إظهار فضائل المدنية المصرية . ولا أشك فى أن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث ، بل إلى بحوث تشمل فنون البناء والنحت والتصوير

(١) يسرنى أن أذكر هنا أن الدكتور جورجى صبحى بك عنى بموضوع « الطب المصرى والطب اليونانى» فى مقال له فى مجلة المجمع المصرى فى نوفمبر سنة ١٩٣٧ ، وفى كتاب مؤتمر الطب للناطق الحارة فى سنة ١٩٢٨ ، وفى مقدّمة وضعها لكتاب « الذخيرة » للطبيب العربى ثابت بن قرة .

والتمثيل[١] وتشمل علوم الحساب والهندسة والطب والفلك والأدب والفلسفة والدين. وأنا لم أفعل فى هذا كله غير أن طرقت الباب، ولى وجهة رسمتها لما أكتبه فليس من الصواب أن أغيرها، ولعل الله ييسر لى فيما بعد، أو لغيرى تلك البحوث النافعة[٢].

---

(١) المعروف عند كل الذين درسوا المدنية اليونانية أن اليونانيين هم واضعو فن التمثيل، ولكن الأستاذ إرمان والأستاذ زيته (Sethe) الألمانيين أثبتا أن هذا الفن ولد فى المعابد المصرية منذ عهد الدولة القديمة. وقد عثر العلماء على وثيقة سموها «المسرحية المنفية» من عهد الدولة القديمة، ثم عثروا بعد ذلك على مسرحية ثانية من عهد الرمامسة. ويدور الموضوع فى هاتين المسرحيتين حول تمثيل الأساطير الدينية، وخاصة أسطورة إيزيس وأوزريس، فى خلال الحفلات الدينية التى كانت تقام فى المعابد.
وقد تناول هذا الموضوع وحلله الأستاذ برستيد فى كتابه (The Dawn of Conscience) المطبوع فى لندن سنة ١٩٣٤ ص ٢٩
وخطا هذا البحث خطوة أخرى بعد ذلك إذ كتب مسيو دريوتون (E. Drioton) مدير مصلحة الآثار المصرية فى مجلة «لاريفى دى كير» (La Revue du Caire) مقالين فى عدديها الصادرين فى أكتوبر ونوفبر سنة ١٩٣٨ فأشار إلى المسرحيتين اللتين تقدم ذكرهما، ثم ذكر فى مقاله الثانى أن مسيو كوينتز (M. Kuentz) وكيل المعهد الفرنسى للآثار فى مصر عثر على لوحة حجرية فى ادفو نقشت عليها كتابة موجهة إلى المعبود حوريس من شخص يسمى «أمحب» هو «خادم لمثل متنقل». وفى هذه الكتابة يقول هذا الخادم :
«كنت أرافق سيدى فى تنقلاته وفى أناشيده من غير أن يعترينى تعب. وكنت أتولى الرد عليه فى جميع أناشيده. فإن كان إلها كنت ملكا، وإن كان عليه أن يقتل كان علىّ أن أحيى».
ويستنتج دريوتون من هذه الكلمات، بحق، أن هذا الخادم وسيده كانا ممثلين يتوليان التمثيل المتنقل فى المدن والقرى. ويقول، بحق أيضا، إن الاعتقاد كان سائدا إلى الآن بأن المصريين لم يعرفوا التمثيل إلا فى الحفلات الدينية، وداخل المعابد، أما هذه الكلمات التى كتبها هذا الخادم فتدل على أنهم كانوا يعرفون أيضا تمثيلا آخر كان الممثلون يحترفونه ويتنقلون به ليمثلوه للجماهير.
وبهذا يكون المصريون هم الذين وضعوا فن التمثيل فى المعابد ثم للجماهير، ويكون اليونانيون قد أخذوه عنهم.
(٢) على أنى أشرت فى المجلد الأول إشارة خفيفة إلى أثر الفن المصرى فى الفن اليونانى فقلت فى ص ١٣٥ «... ... عرف منذ مائتى سنة أو أكثر أن التصوير اليونانى والنقش اليونانى والأعمدة اليونانية هى اقتباس من التصوير المصرى والنقش اليونانى والأعمدة المصرية، مع شىء من التنويع. وعرف أيضا أن كثيرا من المصنوعات اليونانية هى بعينها المصنوعات المصرية لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة واختلاف الزمن».
وأشرت إلى الطب عند المصريين إشارة خفيفة أيضا فى ص ٩ فذكرت ما كتبه فى ذلك هيرودوت ثم ذكرت «ورقة نيويورك» أو «ورقة إدوين سميث».
ولكن هاتين الإشارتين الخفيفتين شىء والبحث العميق المستفيض شىء آخر.

وسيترجم العلمـاء أوراق البردى التى لم تترجم بعـد، والتى ما زالت مطوية فى المتاحف، وستخرج أرض مصر كنوزا أخرى من الآثار وأوراق البردى، فتكون فى هذه وتلك شواهد جديدة على متانة الصلة بين المدنية المصرية والمدنية اليونانية . فالى أن أعود إلى هـذا البحث، إذا يسر الله، أكتفى بكلمتين : إحداهمـا للمؤرخ المعروف هيرودوت، والثانية لعالم فرنسى هوجول بايى[1] .

فأما هيرودوت، فقد ذكر فى الفقرة ١٢٣[2] أن المصريين أول أمة قالت بخلود الروح، ثم أشار إلى قولهم فى تناسخ الأرواح، ثم قال :

« ومن اليونانيين من نقلوا هذه النظرية، بعضهم قديما وبعضهم حديثا، وظهروا بها فى اليونان كأنها نظريتهم وكأنهم هم الذين وضعوها . وأنا أعرف أسماء هؤلاء الذين فعلوا هذا ولكنى لا أذكرها » .

فهيرودوت، المؤرخ اليونانى، يقرر هنا أن مفكرين يونانيين أخذوا من مصر نظريتها فى خلود الروح ونظرية بعض أبنائها فى تناسخ الأرواح، ثم نادوا بهما على أنهما نظريتان لهم، وعلى ألا شىء فيهما لمصر . وهذا هو الذى يفسر لنـا الظاهرة الغريبة التى أشرنا إليها فى المجـلد الأول، وهى أن كثيرا من العلماء اليونانيين أقاموا فى مصر، واتصلوا بمدارسها، ثم لمـا عادوا إلى بلادهم وكتبوا مؤلفاتهم لم يقل واحد منهم إنه اقتبس منها علما أو فنا .

ويعترف هيرودوت بأنه يعرف أسماء العلماء اليونانيين الذين أخذوا من مصر نظريتى خلود الروح وتناسخ الأرواح، ولكنه وقد شعر بعد ذلك بأن قارئ كتابه يطالبه بأسماء هؤلاء العلمـاء، وجل أمام منقصة تصيب قوما من بنى وطنـه، فارتد على عقبيه، بعد أن قطع نصف الطريق ... !!

---

(١) (Jules Baillet) كان أحد أعضاء البعثة الفرنسية فى القـاهرة لدراسة الآثار المصرية . وله مؤلفات كثيرة فى مصر القديمة .

(٢) الترجمة التى نعتمد عليها هنا، وفى كل ما ننقله عن هيرودوت فى هذا المجلد هى بعينها التى اعتمدنا عليها فى المجلد الأول، وهى التى وضعها فى سنة ١٩٣٦ ليجران (Ph. E. Legrand) العضو بالمجمع العلمى بفرنسا والأستاذ بجامعة ليون . وهذه الترجمة هى أحدث ترجمة لتاريخ هيرودوت .

وقد علق ليجران (Ph. E. Legrand)، مترجم هيرودوت، على قوله هـذا فى الصفحة ١٥٢ فقال إن هؤلاء الذين أبى هيرودوت أن يذكر أسماءهم هم الأورفيون[١]، وفيريسيد[٢]، وفيثاغورس، وأمبيدوكل[٣].

ونضيف نحن إلى هـذا أن فيثاغورس كان من زعماء القائلين فى بلاده بخلود الروح وتنـاسخ الأرواح . وقـد يقول قائل إنه أخذ هاتين النظرتين من أستاذه فيريسيد، وقد يكون هذا صحيحا، ولكن من الصحيح أيضا أنه أقام فى مصر مدّة يقدرها بعضهم بعشرين سنة، كان يتردّد فيها على مدارسها، وقد تقدّم فى الصفحتين ١٣٢ و١٣٣ من المجلد الأوّل قول ديودور الصقلى و بلوطرك فى ذلك وفى أن تعاليم فيثاغورس كثيرة الشبه بالتعاليم المصرية .

وكان قوم من المصريين يزعمـون فى تنـاسخ الأرواح أن روح الانسان، متى فارقت جسمه انتقلت إلى جسم حيوان آخر مولود، ثم لا تزال تنتقل من حيوان إلى حيوان فى الأرض والبحر والهواء حتى تتم دورة الأنواع الحيوانية كلها فى ثلاثة آلاف سنة ، ثم تعود من جديد إلى جسم إنسان مولود ، وربما عادت إلى جسم صاحبها الأوّل مولودا من جديد . فأخذ فيثاغورس هذا القول ونادى به على أنه نظرية فيثـاغورية[٤] .

---

(١) (Les Orphiques) وهم تلاميذ أورفى (راجع ص ١٣١ من المجلد الأوّل لمعرفة أورفى Orphée).

(٢) (Phérécyde) هو فيلسوف يونانى كان أوّل من علم فى اليونان خلود الروح . وكان فيثاغورس من تلاميذه . توفى فى نحو سنة ٥٤٣ ق . م .

(٣) (Empédocle) هو فيلسوف وطبيب يونانى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . ويزعمون أنه ألقى بنفسه فى بركان إتنا حينما كان مشتعلا لكى يقول الناس إنه صعد إلى السماء، ولكن البركان سخر منه فالتهم جسمه ولفظ حذاءه سليما ليكذبه فيما أراد أن يتوهمه الناس فيه .

(٤) راجـع فى ذلك الفقرة ١٢٣ من كتاب هيرودوت . راجع أيضـا ص ١٠٦٩ من كتاب : (Introduction à l'Etude des Idées Morales dans l'Eg. Antique)، تأليف (Jules Baillet) المطبوع فى سنة ١٩١٢ .

*
* *

أما كلمة جول بابى[1] فهى :

«مما لاشك فيه أن جوهر الديانة اليونانية يظهر ذا قرابة بالعجم أو بالهند أكثر منه بمصر، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن كثيرا من الأساطير اليونانية آت من ضفاف النيل.

فحرب الالهة ضد الجبابرة والتيتانيين[2]، والدور الذى يمثله فيها مينرف[3] مأخوذان من الأساطير المصرية[4] . ومثلها المحن التى عاناها الآلهة[5] .

وفى كثير من الأحيان أخذت الأساطير اليونانية من تفسيرات أجنبية لتماثيل ورسوم مصرية . مثال ذلك الهاربيات[6] وتعذيب

(١) المصدر السابق ص ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩

(٢) الجبابرة والتيتانيون معروفون فى الأساطير اليونانية باسم (Les Géants et les Titans) . وقصة هذه الحرب أن الجبابرة قوم كان لكل واحد منهم مئة يد وكانت سيقانهم أفاعى ، وقد حاربوا كبير الآلهة جوبتير (ذفس) حتى حاصروه فى عرشه . ولما أرادوا أن يضربوه فى السماء صعدوا إلى قم الجبال وجعلوا يقذفون منها فى وجه السماء صخورا فكانت الصخرة إذا سقطت فى الأرض كونت جبلا وإذا سقطت فى البحر كونت جزيرة .

والتيتانيون مجموعة من المعبودات عددها اثنا عشر ، نصفها من الذكور ونصفها من الإناث . وقد حاربوا المعبودات الأولمبية ، أى المنتسبة لمدينة أولمب ، وكان عدد هذه الأخيرة اثنى عشر أيضا ، منها جوبتير . وكان الغرض من الحرب أن ينتزع التيتانيون من الأولمبيين السيطرة على العالم .

وانتهت هاتان الحربان بانهزام التيتانيين والجبابرة ، وحينئذ صعقهم جوبتير وألقى بهم فى مكان سحيق فى الجحيم يسمى ترتار (tartare) كان جوبتير يلقى فيه من يجترئون عليه .

(٣) مينرف أو مينرفا هى إلهة الحكمة والفنون فى الأساطير اليونانية والرومانية معا .

(٤) الأساطير المصرية تقول إن حربا شبت بين حوريس بن إيزيس وعمه سيت وإن توت إله الحكمة والفنون فصل أحدهما من الآخر فى بعض أدوار الحرب .

(٥) أشهر المحن التى عاناها الآلهة فى الأساطير المصرية محنة أوزوريس وسيأتى الكلام فيها .

(٦) (Les Harpyes) وتقول الأساطير اليونانية إنهن فتيات ذوات أجنحة يطرن بها . وكان اليونانيون يجعلونهن معبودات جنازية ورسلا لدار الأموات . وكثير من المعبودات الجنازية فى الأساطير المصرية لها أجنحة .

بروموتى[1] وأتلاس[2]، وچيريون[3]، و بستان الهسبيريات[4] ومولد هركول[5] وأعماله، وترس أشيل[6].

(١) (Promothée) هو عملاق يقولون إنه هو الذى تناسلت منه الشعوب اليونانية، وهو الذى نقلها من الوحشية إلى المدنية، وهو الذى سوّى الانسان من طين بمساعدة أثينا (Athéna) ثم نفخ فيه الحياة بواسطة جذوة من النار سرقها من السماء. وقد عاقبه چوبتير لأنه اجترأ عليه ثلاث مرات: الأولى أنه قدّم له على سبيل القربان هيكلا عظميا لثور ولم يقدّم اللحم، واحتال فأخفى حقيقة الهيكل العظمى بجعله فى شكل عظم ولحم. والثانية أنه لما سوّى الانسان من الطين جعله على شكل مخالف لما كان چوبتير يريده. والثالثة أنه سرق جذوة نار من السماء. ولهذا عاقبه چوبتير بأن سمره فى صخرة فى جبال القوقاز وأرصد له نسرا يأكل كبده، فكلما أكله تولد كبد جديد. ثم جاء هراقليس (Heraclés) فقتل النسر وأنقذ بروموتى. ثم عفا چوبتير عن بروموتى.

(٢) (Atlas) هو أحد أبناء چوبتير أو ذفس وقد رفض أن يضيف معبودا يسمى پرسى (Persée) فحوّله هذا الأخير إلى جبل. وتقول الأساطير إنه ساعد التيتانيين ضد أبيه ذفس فحكم عليه ذفس بأن يحمل السماء على كتفيه.

(٣) (Geryon) وحش له ثلاثة رؤوس وثلاثة أجسام. و يقول بعضهم إنه كان ملكا على هسبيرى (Héspérie) وكان يملك كثيرا من الثيران يحميها راع وكلب ووحش له رأسان، فجاء هراقليس وتغلب على الوحش وقتل الكلب والراعى وأخذ الثيران.

(٤) (les Hespérides) هن عذارى بنات نوى (Nuit) وهسپروس (Héspéros) بن أتلاس الذى تقدّم ذكره. وكن يقمن فى بستان فى جزيرة بالقرب من أتلاس. وكان فى هذا البستان تفاح من الذهب يحرسه وحش له مئة رأس، فقتله هراقليس وأخذ التفاح. وتقول بعض الأساطير إن ملكا لمصر يسمى بوزريس أحب البنات على السماع فأرسل إليهن قرصان بحر فأخذوهن، ولكن هراقليس فاجأ القرصان وقتلهم.

وليس فى ملوك مصر ملك يسمى بوزريس، وإنما فيها مدينة كانت تسمى بهذا الاسم وهى حيث توجد الآن بلدة أبو صير بمديرية الغربية.

(٥) (Hercule) معبود يونانى يمثل القوّة. وهو أحد أبناء ذفس وقد قام باثنى عشر عملا ظهرت فيها قوّته الجبارة، ثم قام بأعمال أخرى مثلها. ولما رأى أن أتلاس يحمل السماء على ظهره أراد أن يخفف عنه فحملها بدلا منه وقتا ما.

(٦) (Achille) قائد يونانى اشترك مع اليونانيين فى حرب طروادة. وتقول الأساطير إنه نازل هكتور أعظم قائد طروادى فقتله، ولكن قائدا طرواديا آخر اسمه پارى رماه بسهم مسموم فأصابه =

يضاف إلى ذلك أن الطقوس الرمزية أذاعت بأسماء معبودات يونانية قصصا وأفكارا وطقوسا كلها مصرية .

وهذا الذي حصل فيما يختص بالأساطير ، حصل مثله فيما يختص بالعادات ، والسياسة ، والقوانين ، وقواعد السلوك .

وقد أثرت طبيعة البلاد اليونانية [1] فى أهلها فدفعت بهم إلى تكوين المدن الصغيرة المستقلة كما دفعت بهم إلى حرية الفرد ، فى حين أن طبيعة وادي النيل أثرت فى أهله

= فى عقب قدمه . وكان هذا العقب هو المكان الوحيد الذى يمكن أن يقتل منه لأن أمه كانت حين ولادته قد غمرته بماء نهر فى الجحيم يسمى سليكس (Slyx) . وكان ماء هذا النهر يكسب الجسم الذى يغمر فيه حصانة ضد الطعنات . فتحصن جسم أشيل كله إلا عقبي قدميه لأن أمه كانت تمسكه منهما حينما غمرته بماء النهر . فلما أصابه فيهما بارى كانت الإصابة قاتلة » .

وقد تغنى هومير فى الياذته بأشيل ووصف ترسه بأوصاف أثبت العلماء أخيرا أنها مأخوذة من رسوم على المقابر المصرية [راجع فى ذلك كتاب (.Rois et Dieux d'Eg) لمؤلفه (A. Moret) المطبوع بباريس فى سنة ١٩٢٥ من ص ٢٥١ الى ص ٢٧٣] .

ولنا هنا كلمة هى أننا عنينا بإيضاح ما تقدّم ذكره من الأساطير اليونانية لغرضين : أولهما أن نساعد القارئ على الفهم ، والثانى أن نبرز المعنى المستفاد من هذه الأساطير وهو أنها أكثر إمعانا فى الخرافات من الأساطير المصرية . فانك لو وضعت الأساطير المصرية بجانب الأساطير اليونانية لوجدتها قليلة ضئيلة بالنسبة إليها . فان كانت الأساطير المصرية تعاب على مصر لدلالتها على مستوى عقلى لا يزال فى دور الطفولة فهو لذلك يستريح إلى الخرافات ويقبل عليها ، فيجب أن يعاب هذا على اليونان أكثر مما يعاب على مصر عشر مرات على الأقل ، أى بمقدار ما بين أساطير هذه وأساطير تلك من الفوارق فى الكثرة وفى الإمعان فى الخرافات . ثم يجب أن لا يفوت أحدا مع ذلك أن بين المدنية المصرية فى عهد الدولة الحديثة وبين المدنية اليونانية نحو ألف سنة . أما بين المدنية اليونانية والمدنية المصرية فى عهد الدولة الوسطى أو الدولة القديمة فالمدة أبعد وأبعد .

وما من أمة من الأمم إلا وفيها من الأساطير الشيء الكثير ، بحيث إذا قيست بها الأساطير المصرية كانت متواضعة .

(١) بلاد اليونان تتخللها خلجان كثيرة تجعل كل قسم منها منفصلا عن الآخر . وهذا إلى عشرات من الجزر الملحقة بها منتشرة فى بحر إيجه وبحر الأدرياتيك والبحر الأبيض المتوسط .

فأنتجت لهم نظام الحكم الملكى ، مركزيا ، مطلقا . ومع ذلك كانت قواعد السلوك وتهذيب النفس توشك أن تكون واحدة فى البلدين . وقد يقال إن هذا التشابه آت من أن هذه القواعد عامة ، توجد فى كل تهذيب للنفس ، فيجب أن يكون مما يلفت النظر أن هذا التشابه لا يقف عند هذا الحدّ ، بل يتعدّاه إلى اعتقادات ، منها الاعتقاد فى عصر ذهبى كان الحكم فيه للآلهة قبل الملوك ، فكان عصر سعادة شاملة وعدل سابغ . ومنها الاعتقاد فى نميزيس[1] تواصل التقتيل . والاعتقاد فى نواميس أبدية تعلو إرادة الملوك . والاعتقاد فى إله قادر يكافئ على الخير ويعاقب على الشر .

وفى مصير الإنسان بعد موته ، اقتبس اليونانيون من المصريين الذين هم أساتذة العالم فى هذا الموضوع ، خلود الروح ذى الجناحين ، وحقول النعيم (الشانزليزى) ، وأنهار الجحيم ، والنوتى شارون[2] ، والوحش سيربير[3] ، ومحاكمة الأموات ، ووزن الأرواح ، والعقوبات المختلفة التى يعاقب بها المذنبون ، ورادامانت[4] الذى نعرف فيه بسهولة رع فى الدار الآخرة ، ومينوس[5] الذى يذكرنا بمانو[6] أحد الأسماء التى تطلق على أرض الأموات ، وإياك[7] الذى يبعث فى الذهن عيد الأموات المسمى أواجا[8] .

---

(١) (Némésis) هى إلهة الانتقام عند اليونانيين ، ومثلها فى الأساطير المصرية أن الإلهة (هاتور) أو (حاتحور) أمرها الإله (رع) أن تنتقم له من الناس الذين كانوا قد ثاروا عليه فانطلقت تمعن قتلا فيهم حتى خاف (رع) أن تفنيهم فملأ الأرض أمامها شرابا أحمر اللون يشبه الدم فشربته وثملت وكفت عن التقتيل .

(٢) (Charon) . وكان اليونانيون يعتقدون أنه نوتى فى دار الأموات . وفى الأساطير المصرية نوتى يقود الأموات أيضا .

(٣) (Cerbére) وحش كان اليونانيون يعتقدون أنه فى جسم كلب وله ثلاثة رؤوس (وبعضهم يقول مئة) وتتدلى من وسطه أفاع . وكانوا يقولون إنه يقف عند باب الجحيم لالتهام الداخلين . وهذا الوحش يشبه الوحش أمايت الذى كان المصريون يعتقدون أنه يلتهم من تحكم عليهم محكمة أوزريس بأنهم مذنبون .

(٤) (Rhadamante) وهو أحد أبناء جوبتير وأحد قضاة ثلاثة فى دار الأموات .

(٥) (Minos) ثانى القضاة الثلاثة فى دار الأموات . (٦) (Manou) .

(٧) (Eaque) أحد أبناء جوبتير ، وكان ملكا على جزء من بلاد اليونان ثم مات فصار أحد القضاة الثلاثة فى دار الأموات . (٨) (Ouaga) .

وكان كثير من اليونانيين المشهورين يفتخرون بأنهم ساحوا فى مصر . وكان تلاميذ هؤلاء العلماء والمعجبون بهم يرون شرفا لهم أن يكونوا قد تنقلوا فى مصر. فمن الشعراء مثلا هومير، وأورفى، وموزى، وميلامب . ومن المشرعين ليكورج، وصولون . ومن المؤرخين هيكاتى ، وهيرودوت ، وهيلانيكوس . ومن الفلاسفة والعلماء تاليس، وفيثاغورس، وكزينفون، وديموقريت، وايدوكس، واينوبيد، وأفلاطون(١)

(١) هؤلاء الشعراء والمؤرخون والفلاسفة تراجع فى التعريف بهم صفحات ١١٦ و ١٣١ و ١٣٢ من المجلد الأول ما عدا الذين نذكرهم هنا وهم :

هيكاتى (Hecatée de Milet) مؤرخ يونانى عاش فى نحو سنة ٥٢٠ ق . م . وزار مصر وكتب عنها قبل هيرودوت ، ولذلك نجد هذا الأخير يناقشه فى كتابه عن مصر ويحاول أن يسخر منه ويحط من مقامه .

وننتهز هنا هذه الفرصة لتصحيح خطأ تاريخى يقع فيه كثير من الكتاب ، وهو أنهم يعزون لهيرودوت أنه قال « إن مصرهدية من النيل » ، والحقيقة أن أول قائل لهذا القول هوهيكاتى دى ميلى ، وقد ردده هيرودوت من بعده ، دون أن يذكر المصدر الذى نقله عنه ، فعزاها الناس إليه لأن كتابه ذاع بين الأيدى فى حين كان كتاب هيكاتى قليل الذيوع . وقد آن الأوان لرد الحق لصاحبه (تراجع فى ذلك ص ٢٢ من المقدمة التى كتبها ليجران (Ph. E. Legrand) لكتاب هيرودوت . وتراجع أيضا الفقرة ٥ من كتاب هيرودوت) .

وهناك عالم يونانى آخر يسمى هيكاتى الأبديرى ، أى ابن مدينة أبدير (Hecatée d'Abdère) ، كان يعيش فى بلاط بطليموس الأول فى الإسكندرية .

وهيرودوت (Hérodote) مؤرخ يونانى مشهور يلقب بأبى التاريخ . ولد فى هاليكارناس فى نحو سنة ٤٨٤ وزار مصر فى نحو سنة ٤٥٠ ق . م . فأقام فى ممفيس وهليو يوليس وطيبة ، ويقول هو إنه ركب النيل إلى ايلفنتين ولكن الناقدين العصريين يشكون فى وصوله إليها .

وهيلانيكوس (Hellanicos) مؤرخ يونانى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . وهو من أهل جزيرة ميدللى أو ميتلين .

وتاليس (Thalès) فيلسوف يونانى ولد سنة ٦٤٠ ومات سنة ٥٤٨ ق . م .

وكزينفون (Xénofon) مؤرخ وفيلسوف وقائد عسكرى . كان من تلاميذ سقراط المفضلين عنده . وهو الذى قاد فى آسيا الصغرى حملة تسمى « انسحاب عشرة الآلاف » . ولد سنة ٤٢٥ ومات سنة ٣٥٢ ق . م .

ومع أن كلا من مدينتى اسبارطة وأثينا كان لها مزاج يخالف مزاج الأخرى فانهما أخذتا معا قوانين مصرية . وروما نفسها مدينة بالكثير لمصر، فى أول قانون سنته حين نشوء مدينتها ، ثم فى قانونها الذى سمى قانون الألواح الاثنى عشر ، ثم فى قانونها الإمبراطورى الذى سمى « القانون الرومانى » والذى اقتبست أوربا منه قوانينها الحديثة . وقد أخذ الأمبراطرة الرومانيون نظام مصر الملكى ، بما فيه عبادة الملك ، وحوروه على طريقتهم .

وبجانب رجال العمل ، نهب المفكرون اليونانيون مصر[1] . فانه إن كانت أسماء أورفى وموزى وميلامب ليست سوى أسماء أساطير فان الأعمال التى تعزى إليهم ، والأهمية التى لطقوس ديونيسوز وطقوس ديميتر الرمزية ليست وهما[2] . وفيثاغورس وضع نظريته فى تناسخ الأرواح اقتباسا من مصر . وأفلاطون أيضا أخذ كثيرا من مصر . فنظريته التى موضوعها النظر إلى الأشياء الواقعة نظرا قوامه المثل العليا أخذها من نظرية المصريين عن الإنسان وروحه الشبيه به[3] . ونظريته فى تقسيم

---

(١) ننقل هنا نص هذه الجملة باللغة الفرنسية وهو :

(A côté des hommes d'action, les penseurs grecs ont pillé l'Egypte)

(٢) يريد الكاتب بذلك أن هذه الطقوس مأخوذة من مصر . وديونيسوز إله الخمر عند اليونانيين . وديميتر إلهة الأرض والقوى الطبيعية والزراعة وكانت تعتبر حامية للزواج ، ولها أسطورة ذكرت فى ص ١٥٣ من المجلد الأول .

(٣) تقدم فى ص ٩٤ من المجلد الأول أن المصريين كانوا يقولون إن لكل إنسان شبيها به يولد معه ، ولا يرى ، ويسمى « كا » . ويبقى هذا « الكا » لابسا جسمه ما دام حيا ، فاذا فارقه مات . وقلنا إن « للكا » معانى كثيرة عدها بعضهم أربعة عشر ، فنذكر هنا هذه المعانى وهى : الغنى ، والقوة ، والنشاط ، والاستقرار ، والنبل ، والعقل ، والنور ، والمعرفة ، وحاسة الذوق ، وحاسة البصر ، وحاسة السمع ، ووفرة الخير ، والغذاء ، والقبر . ويستنتج مورى من هذه المعانى الكثيرة المختلفة أن « الكا » يمثل عناصر الرخاء المادية والعقلية للانسان ، أى كل ما هو ضرورى لصحة جسمه وعقله (ص ٢٠٩ من كتاب (Mystéres Egyptiens) .

النفس إلى عقل وروح وإرادة مأخوذة من التفريق المألوف عند الحكماء المصريين بين القلب والبطن (Hâti) و (Khet) . وقوله بالكلام الخالق مأخوذ مما كان المصريون يسمونه (Mâ khrôou)[1] . ومذهبه فى السياسة يقوم



حوريس واضعا يده على فه . ويرجح بعض العلماء أن المراد بيده الموضوعة على فه الرمز إلى « الكلمة الخالقة »

(١) يراد بالكلام الخالق أن الكلام يصدر من الفم فيكون له أثره فى العمل ، فهو بذلك يخلق أفعالا . وكان المصريون يقولون بهذه النظرية لخالق الذى خلق الكون إذ قال له كن فكان . ثم كانوا يقولون بها للملك على اعتبار أنه سليل الآلهة وأن أوامره التى يصدرها تنفذ فتخلق أفعالا .

وقد أخذ أفلاطون هذه النظرية وقال بها فى بلاده .

وقد اختلف علماء الآثار فى معنى كلمة (Mâ - Krôou) فقال شمپوليون معناها « صديق الحق والرجل الذى ثبتت براءته من الذنوب » . وقال بروكش معناها « المنتصر » أى الرجل الذى انتصر فى الحساب أمام الآلهة . وقال جريرو معناها « الصادق فى كلامه ، والمحيي » وقال نافيل « المسيطر » . وقال ستيرن « المنتصر بقوة كلامه » وقال لى بيج رينوف « المنتصر الذى يكون كلامه نافذا نفاذ القانون » . وقال ماسپيرو « ذو الصوت الحق » . وقال فيرى « الرجل الذى يوجد الأشياء بصوته » . وقال مورى « الرجل الذى يخلق الأشياء بصوته » .

على أساسين : أولها خضوع الفرد للدولة ، وهذا أساس المجتمع المصرى ، والثانى حكومة الحكماء وهى المثل الأعلى للكهان والكتاب المصريين . ويضرب أفلاطون فى كثير من مؤلفاته على نغمة الاعتقاد بمحكمة تحاكم الأموات ، وبمكان سحيق فى جهنم يسمى ترتار (Tartare) يلقى فيها ذفس المذنبين ، وبجزائر سعيدة يكافئ فيها ذفس الصالحين ، وهذا كله مأخوذ من مصر . وكان من الضرورى أن تجد الفلسفة الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة[1] تربة صالحة لها فى مصر لأن جذورهما مصرية . كما أن المسيحية وجدت لمبادئها القائمة على حب الخير والاحسان والفضائل الأخرى التى نادت بها ، تربة فى مصر صالحة لها كل الصلاحية ، لأن مصر كانت طيلة قرون عديدة سابقة على المسيحية ، قد عرفت هذه الفضائل ، وأخذت بها ، وحثت على الرفق والرحمة .

ومما لا شك فيه أن مصر كانت كغيرها من البلاد القديمة الأخرى لا تنشر دعاية لنفسها ، وقد كانت تصد قراصنة البحر والمغيرين عليها ، وكانت تحذر من الأجانب إذا هى لم تحتقرهم ، ولم تكن تحب الإفضاء بأسرارها لكل قادم . ولكن مما لا شك فيه أيضا أنها أثرت فى جميع جيرانها تأثيرا عظيما ، وأن نفوذها امتد ، فى غير زهو من جانبها ، إلى أبعد مما وصلت إليه جيوشها . ولم يقف نفوذها هذا عند نطاق التجارة والصناعة ، بل شمل الثقافة ، والأخلاق ، وقواعد السلوك . فقد

---

(١) الفلسفة الأفلاطونية هى التى أسسها أفلاطون . أما الأفلاطونية الحديثة (Nèoplatonisme) فهى مذهب فلسفى وجد بعد أفلاطون فى مدرسة الاسكندرية ، وكان يقول إن أوّل شىء خلقه الله من نفسه هو الكلام الخالق ، ثم العقل ، ومن العقل جاء الروح . فالله والعقل والروح هم الثلاثة الذين يقوم عليهم المذهب الأفلاطونى الحديث .

ومؤسس هذا المذهب فى مدرسة الاسكندرية هو بلوتن (Plotin) ثم نادى به من بعده پورفير (Porphyre) وجامبليك (Jamblique) فى وجه الديانة المسيحية . وفى سنة ٥٢٩ م أصدر الأمبراطور الرومانى جوستنيان أمرا بتحريم هذا المذهب .

قدمت مصر لغيرها أفكارا ، ومعتقدات ، وشرائع يقاس عليهـا ، ومبادئ للسلوك الشـخصى، ومثلا حساسة وشعبية لخلود الروح وللعدل الأبدى . وكان ماسنته من قواعد الأخلاق والسلوك ساميا ، كريما ، لم تعرف العصور القديمة أجمل منه .

لقد ارتفع اسم مصر بأشياء كثيرة ، وعنـدى أنها بمـا اهتدت إليه من قواعد الأخلاق والسـلوك ، وبما وصلت إليه من التوسع فى هذه القواعد والبلوغ بها حدّ السمو ، استحقت الكثير من شكر الانسانية » اه .



وبعـد ذلك لم يبق من هذا الحـديث بينى و بين القراء غير أن أخطاء طفيفة وقعت فى طبع المجلد الأوّل، فستصحح فى آخر هذا المجلد الثانى، مع تصحيح ما قد يقع فيه من الأخطاء، والله المستعان .

يناير سـنة ١٩٤١ — عبد القادر حمزة

عِبَادَةُ إِيزِيس

كانت مرشداً روحياً لأوربا

مُدَّة خمسمائة سنة بعد انطفاء المدنية المصرية

فى الوقت الذى انطفأ فيه نور المدنية المصرية، بعد أن استهدفت مصر لغزوات الأتيوبيين ثم الأشوريين ثم الفرس ثم اليونانيين ثم الرومانيين ، كان من الظواهر العجيبة أن انتقلت عبادة إيزيس وأوزريس المصرية إلى أوربا، فانتشرت فى جزر البحر الأبيض المتوسط، وفى اليونان ، وفى إيطاليا، وفى فرنسا، وفى ألمانيا، وفى أسبانيا، وفى انجلترا، وكانت لها فيها كلها المعابد على الطراز المصرى، وجرت العبادة فى هذه المعابد على الطقوس المصرية ، وصارت فى نظر أوربا رمز الهداية والإيمان .

وكانت مصر فى ذلك الوقت قد حالت إلى ملك خاص لامبراطرة روما ، وكان هؤلاء الامبراطرة قد اشتطوا فى إخماد روحها وتخضيد شوكتها حتى جعلوا منها بلدا مستعبدا لا حس له ولا حركة ، ولكنهم فى هذا الوقت نفسه اتخذوا منها فى قلب روما، وفى كل بلاد امتد إليها سلطان الامبراطورية الرومانية، منارة روحية يستضيئون بنورها، ويقتبسون من بقايا مدنيتها .

وسنقول هنا كيف كانت هذه المنارة،وكيف شمل نورها جوانب البحر الأبيض المتوسط، وآسيا الصغرى، واليونان، وروما، والامبراطورية الرومانية .

ولكن علينا قبل ذلك أن نقول، بإيجاز ، ما هى عبادة إيزيس وأوزريس، وما هى الأساطير التى حيكت حولها على ممر العصور .

*
* *

أسطورة إيزيس وأوزريس من أقدم الأساطير فى الديانة المصرية . ويرى بعض العلماء أن وجودها يرجع على الأقل إلى الوقت الذى وجد فيه التقويم المصرى — أى إلى سنة ٤٢٤١ ق.م — بدليل أن الخمسة الأيام التى أضيفت إلى السنة

فى هذا التقويم[1] هى الأيام التى قالت الأساطير إن نوت (السماء) وضعت فيها المعبودات أوزريس وسيت وإيزيس ونفتيس وحارويريس .

وقد تطوّرت أسطورة إيزيس تطوّرات عدة، بما كان يدخل عليها من التحوير والزيادة عصرا بعد عصر . ولا عجب فقد عاشت أكثر من أربعة آلاف سنة وهى حبيبة إلى الشعب ، فكان من الصعب أن تبقى كل هـذه المدة ، على الصورة التى وجدت بها منذ يومها الأوّل، وأن لا تتطوّر كلما تطوّر المجتمع .

ويطول القول إذا نحن أردنا أن نتقصى جميع هـذه التطورات ، أو إذا أردنا أن نعرض للجزئيات، وليس هـذا بحثا خاصا بالأسطورة، فبحسبنا أن نقتصر على الإلمـام بالنقط البارزة منها ومن تطوراتها ، لكى نأخذ بعد ذلك فى غرضنا ، وهو انتقال عبـادة إيزيس وأوزريس إلى أوربا ومنافستها فيهـا لجميع ديانات المدنيـة اليونانية والمدنية الرومانية ، وصيرورتها مرشدا روحيا لأوربا مدة خمسمائة سـنة كانت فيها منافسة قوية للديانتين اليهودية والمسيحية .



فأوّل صورة من صور الأسطورة تظهر فى نصوص الأهرام[2] ، وهى تقول إن سيت تآمر على أخيـه أوزريس فقتله وألقى بجثتـه فى المـاء، فعامت واخضرت ثم اسودّت . ومن هنا سمى البحر الأبيض المتوسط « الأخضر الكبير » . وحزنت معبودات بوتو[3] لموت أوزريس ،وناحت زوجه إيزيس،وناحت معها أختها نفتيس. ثم تحللت الجثة فانحنت عليها نوت فردت العظام والرأس والقلب كما كانت. ومضت إيزيس ونفتيس تبحثـان عن الجثة إلى أن عثرتا عليها فى المـاء فأخرجتها إيزيس .

(١) راجع البحث الذى عقد للتقويم المصرى فى المجلد الأول من ص ٦١ إلى ص ٦٧

(٢) تقدم فى المجلـد الأول أن نصوص الأهرام هى النقـوش التى وجدت فى أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة .

(٣) بوتو مدينة قديمة كانت حيث توجد الآن قرية تل الفراعنة بمديرية الغربية . ويرجع حزن معبودات بوتو على أوزريس إلى أن بوتو هذه كانت وطنه الأول

(لوحـــة رقـــم ١)



إيزيس　　　　أوزريس

وحنا رع على أوزريس فسند رأسه بيده . ورغبت الآلهة إلى أوزريس فى أن يستيقظ . وكان هو قد سئم النوم ، فعاد إلى حياة جديدة لا تعرف الموت ولا البلى . وألقت إيزيس بنفسها على جثمانه فى شكل عقاب ، فحملت منه وجاءت بحوريس ، ثم ربت هذا الابن فلما كبر حارب سيت لينتقم لأبيه ، وفى هذه الحرب قلع سيت عين حوريس وقطع حوريس خصيتى سيت ، ثم انتصر حوريس واسترد عينه فوهبها لأبيه وقدمها له قربانا .

واجتمع الآلهة فى هليو بوليس ليفصلوا فى هذا النزاع ، فحاول سيت أن يتذرع بالكذب فلم ينجح لأن إلهتى الحقيقة[1] تولتا التحقيق ، ثم لأن جب (الأرض) والد أوزريس وسيت شهد بما يعلم . وصدر الحكم بان يلى أوزريس عرشى[2] أبيه فأجلسه هذا عليهما ، واستقر الحق فى نصابه .

هذه هى الصورة الأولى لأسطورة إيزيس وأوزريس ، وهى ساذجة كما ترى ، تدل على أنها من وضع أذهان كانت لا تزال ساذجة . والعناصر الظاهرة فيها هى قتل الأخ أخاه حسدا وظلما[3] ، ثم وفاء الزوج لزوجها المقتول ، ثم غضب الآلهة من هذا القتل الظالم ، ثم حب الولد لأبيه ووقفه حياته على الأخذ بثأره ، ثم تغلب أوزريس على الموت وعودته إلى حياة جديدة خالدة ، وأخيرا حب الآلهة للعدل وحكمهم لأوزريس وإجلاسهم له على عرشى أبيه .

* * *

وتقدمت الأسطورة بعد ذلك بتقدم المجتمع فظهرت لها صورة ثانية فى نشيد طويل وضع لأوزريس فى زمن الأسرة الثامنة عشرة[4] . وفى هذه الصورة أن جب ترك لابنه أوزريس أن يخلفه على حكم الأرض فملأ أوزريس الأرض عدلا وخيرا ،

---

(١) إحدى هاتين الإلهتين للوجه البحرى والثانية للوجه القبلى من مصر . (٢) عرش الوجه البحرى وعرش الوجه القبلى . (٣) كما قتل قايين أخاه هابيل حسدا وظلما (الاصحاح الرابع من سفر التكوين من التوراة) . (٤) هذا النشيد منقوش على حجر موجود الآن فى متحف اللوفر بباريس .

وحكم الآلهة فأرضاها ، فاشتعل صدر أخيه سيت حسدا له وحقدا عليه وجعل ينصب له المكائد . فلم ينل منه غرضا لأن إيزيس كانت تحرسه . وأصاب سيت بعد ذلك فرصة فقتل فيها أوزريس وألقى جثته فى الماء . فحزنت إيزيس حزنا شديدا ، وبحثت عن الجثة حتى وجدتها ، ثم جلست بجانبها ومعها أختها نفتيس وأخذت تناشد أوزريس، فى ألم وحنان عميقين، أن يسمع لبكائها و يعود إلى الحياة . فسمع لها رع وأرسل أنوبيس يتولى الطقوس الجنازية لأوزريس، فجمع العظام التى كانت تناثرت وألصق القطع التى كان سيت قد مزقها ثم أدرج الجثة فى لفائف التحنيط[١] . وضربت إيزيس الهواء بجناحيها ، فحرك أوزريس ذراعه، ومال إلى جانبه، ورفع رأسه، وابتدأ حياته الجديدة التى صار فيها قاضيا للموتى و إلها لهم .

وحملت إيزيس من أوزريس بعد عودته إلى حياته الجديدة فهربت بجنينها إلى شمال الدلتا واستقرت فى مدينة « خبيث »[٢] على ساحل بحيرة المنزلة ، وهناك وضعت حوريس وأرضعته وربته فى الخفاء. واستهدف حوريس منذ ولادته لكثير من الأخطاء، ولكن أمه عرفت كيف تحرسه وتبعد عنه السوء . ثم كبر حوريس واشتد ساعده فكان أول شىء اتجه إليه أن يثأر لأبيه ، فحارب سيت حروبا عنيفة، فقد فيها عينه، وفقد سيت بعض أعضاء جسمه ، فجاء توت وفصل بينهما وداوى الجروح التى كانا قد أصيبا بها .

إيزيس ترضع ولدها حوريس
بين نبات البردى

وتغلب حوريس فأخذته أمه إلى قاعة جب حيث محكمة الآلهة ؛ فلما رآه هؤلاء فرحوا به ، ولكن سيت نازع فى نسبته لأوزريس قائلا إن أمه حملت به

(١) ومن هنا تقول الأساطير إن انوبيس إله التحنيط وإن أوزريس أول ميت حنطت جثته .
(٢) Chemmis واسمها المصرى خبيث أو أخبيث وكانت جزيرة واقعة بالقرب من معبد بوتو عاصمة الاقليم التاسع عشر من أقاليم الوجه البحرى ومكانها الآن بلدة ادكو .

بعد موت هـذا الأخير، فعقد الآلهـة محكمتهم، وحكموا بان حوريس ابن شرعى لأوزريس، وأعطـوه ملك أبيـه، وتوجـوه بأمر من جده چب، فجلس على عرش مصر.

وهنا يقول نشيد يقص أسطورة أوزريس :

شكر الناس

صار الناس سعداء، وصار الفرح يغمر قلوبهم، وصار الابتهاج يسود أفكارهم.

صار كل منهـم يطرب ويتهلل . فهم يرفعون آيات الحمد لما فى حوريس من صفات الخير قائلين :

« ما أعظم ما نشعر به من حلاوة حبه ! إن نعمه لتحيط بنا، وإن حبه الذى يسكن جميع القلوب لعظيم ».

خذلان سيت

لقد سيطر ابن إيزيس على خصمه . وانهارت من هذا الخصم شرته .

لكن السوء نصيب الشرير، فمن اعتصم بالعدوان والقسوة ساء مصيره .

إن ابن إيزيس ثأر لأبيه، فصار اسمه علما مرفوعا .

سيادة العدل والسلام

أخذت القوة مكانها، فعم الخير، وصارت الطرق حرة مفتوحة .

ما أعظم ما شمل الأرضين (١) من السلام ! إن الشر ليهرب، وإن الأثم لينأى، وإن الأرض لتحس السعادة تحت حكم سيدها .

قضى الأمر، فاستقر العدل عند سيده، وأديرت الظهور للظالم .

ليفـرح قلبك يا « ون — نيفـر » (٢)، فان ابن إيزيس لبس التاج، وقد صدر الحكم فى قاعة چب الكبرى بأن ينتقل إليه ميراث أبيه .

لقـد نطق بذلك رع، وكتبـه توت، وهـذا يا أوزريس هو الذى أمر به لك أبوك چب، فكان ما أمر .

(١) المراد بالأرضين أرض الوجه البحرى وأرض الوجه القبلى .

(٢) « ون — نيفـر » لقب يطلق على أوزريس ومعناه « الموجود الكامل » أو « الموجـود الطيب » .

وتلحق بالأسطورة هنا قصة طويلة[1] للمحاكمة والمحكمة والحكم لا محل لها فى هذه الكلمات فنكتفى بان نقول إن هذه المحاكمة جرت على يد التسيعين[2]، واستمرت تسعين سنة، وكانت الاجراءات فيها كالاجراءات فى المحاكم العادية . ومما حدث فى خلالها أن إيزيس كانت تعاون ابنها حوريس فطلب سيت من المحكمة أن تبعدها، فأجابته المحكمة إلى طلبه وانتقلت إلى جزيرة وأمرت نوتى المركب ألا يدع أية امرأة تعبر. وعلمت إيزيس بذلك فتشكلت فى شكل عجوز عجفاء محدودبة الظهر وتقدمت إلى النوتى وفى أصبعها خاتم من الذهب ومعها خبز، وقالت : « إن فى الجزيرة صبيا يحرس فيها ماشيتى ولم يذق الطعام منذ خمسة أيام فاسمح لى بالعبور إليه » . فلم يقبل . فقالت : « أترفض طلبي بسبب إيزيس ؟ دونك هذا الرغيف فخذه » فرفض أيضا . فقالت : « خذ إذن هذا الخاتم ودعنى أعبر » فقبل وعبر بها إلى الجزيرة .

ولما وصلت إيزيس لمحت سيت من بعيد، فسحرت نفسها فى شكل صبية رائعة الجمال، فرآها سيت وهى كذلك فبهره حسنها واقترب منها وشرع يغازلها فقال : « إنى هنا أيتها الحسناء » فالتفتت إليه وقالت « أيها السيد العظيم . إنى امرأة راعى ماشية، وقد مات زوجى بعد أن رزقت منه بولد هو الآن يرعى ماشية أبيه، ولكن شخصا أجنبيا جاء إلى حظيرتى وقال لولدى « سأضربك وآخذ ماشية أبيك وألقيك بعيدا » فهل لك أن تكون حاميا له » . فقال سيت : « وكيف يأخذ الأجنبي الماشية فى حين أن ابن زوجك ما زال حيا » .

(١) هذه القصة فى ورقة تسمى « ورقة شستربيتى » يظن أنها كتبت فى أواخر عهد الدولة الحديثة .

(٢) تقدم فى الهامش رقم ٢ فى ص ٢٩ من المجلد الأول من كتابنا هذا بيان التسيع الأول الذى هو تسيع هليوبوليس . أما التسيع الثانى فقد وجد لأن علماء اللاهوت فى هليوبوليس كانوا على جانب عظيم من المرونة الدينية، وقد ظهرت مرونتهم هذه فى تأليفهم التسيع الأول الذى ضموا به آلهة بعض المدن الأخرى إلى إلههم الكبير رع . ثم لما رأوا أنه ما زالت هناك آلهة أخرى اشتهرت هى ومدنها ضموها هى أيضا إلى رع وألفوا منها تسيعا ثانيا . فصار التسيع الأول يسمى الكبير والتسيع الثانى يسمى الصغير . وصار الكل أعوانا فى تسيير نظام الكون . وبهذين التسيعين حفظت هليوبوليس السيادة لنفسها ولمعبودها رع ولمدرستها الدينية .

وكان هـذا الجواب منطبقا على النزاع الذى بين سيت وحوريس، فلما سمعته إيزيس انقلبت فى التو إلى طير واستقرت على شجـرة لبخ وصاحت تخاطب سيت بصوت تسمعه المحكمة : « أفلا تخجل إذن ؟ لقد نطق لسانك بالحق ، وقضيت على نفسك بنفسك ، فماذا بعد ذلك ؟ »

فخجل سيت ومضى إلى المحكمة ، فسألته ، فاعترف بمـا فعلته معه إيزيس وبمـا صدر منـــه .

ومما حدث فى خلال هذه المحاكمة أيضا أن سيت اقترح على المحكمة أن يغوص هو وحوريس فى المـاء فمن استطاع منهما أن يبقى فى جوفه أكثر من ثلاثة أشهر خسر قضيته [(١)] ، فقبلت المحكمة . وتحول كل من سيت وحوريس إلى حوت وغاصا فى المـاء . فصنعت إيزيس خطافا وألقته فى المـاء ، فعلق بحوريس ، فاستغاث ، فأغاثته أمه وجذبت الخطاف ثم ألقته مرة ثانية فعلق بسيت فصاح يطلب أن تنقـذه وذكرها بأنه ابن أمها وأبيها ، فرثت له وأنقذته . ورأى حوريس ما فعلته أمه فخرج من المـاء يكاد يجن جنونه وضربها بسلاحه فقطع رأسها ثم طواه تحت ذراعه ومضى إلى الجبل .

وتحـولت إيزيس إلى ملـكة من الصخر بغـير رأس ، فرآها الإله « رع — حور — أختى » رئيس المحـكمة وسأل ما خطبها . فأخبره توت . فغضب وعقد

(١) قد يظهر هذا غريبا ، لأن الصبر على البقاء فى جوف المـاء ليس له صلة بموضوع النزاع ولا يمكن أن يكون برهانا على أن أحد المتنازعين محق والثانى مبطل . ولكن عادة الفصل فى النزاع بمراهنة من هذا النوع كانت معروفة فى الأزمنة القـديمة . فكان معروفا فى الكلدان مثلا أن المـرأة اذا اتهمت بالزنا فأنكرت ولم يوجد دليل عليها ألقيت فى المـاء فان عامت فهى بريئة وإن غاصت فهى مذنبة . ومما كان معروفا عند بعض القبـائل فى سيناء إلى بضع سنوات أنهم كانوا يحمون فى النار طاسة من المعـدن ويأمرون كلا من المتخاصمين بأن يضع يده عليها فمن صبر أكثر من خصمه كان صاحب الحق .

ولم تكن هذه العادة شائعة فى مصر القديمة ، بل كانت تروى فى الأساطير من غير أن يكون لها وجود أمام المحاكم ولا فى القوانين ولا فى أى نوع من أنواع المعاملات . أما الأدلة القانونية فكانت المستندات الكتابية أو سجلات الدولة أو الشهود أو اليمين أو القرائن أو ما يجرى هذا المجرى .

المحكمة لمعاقبة حوريس . ومضى سيت يبحث عن حوريس ليأتى به إلى المحكمة فعثر عليه نائمـا فى الواحة؛ فضربه ونزع عينيه وألقاهما فى الجبل، ثم عاد وزعم للمحكمة أنه لم يجده .

وعلمت إيزيس بذلك كله فمضت فى شكل هاتور إلى حيث حوريس فوجدته يتألم ويبكى فتحرك فيها حنان الأم، ولم تعـد ترى فيه غير بائس محتاج إلى عونها، فصادت غزالة وصبت من لبنها فى عينيه فعادتا سليمتين .



وتطورت أسطورة إيزيس وأوزريس تطورا ثالثا هو الذى عرفه اليونانيون حينما أخذوا يزورون مصر ويكتبون عنهـا ، ومنهـم هومير وهيرودوت وبلوطرك وديودور الصقلى . وقد قلنا فى المجلد الأوّل من كتابنا هـذا إن بلوطرك وضع كتابا خاصا موضوعه إيزيس وأوزريس .

ففى هذا الطور الثالث تقول الأسطورة إنه لمـا ولد أوزريس ارتفع صوت من معبد أمون فى طيبة يبشر العالم بأن قد « جاء سيد كل شىء » . وإذ ذاك كان رجل من أهـل طيبة يسمى « باميليس » يلتمس ماء فى المعبد، فسمع هاتفا «يأمره بأن يعلن أن أوزريس الملك العظيم والمحسن للكون قد ولد »[1] .

ولمـا ولى أوزريس عرش أبيه جب كان المصريون لا يزالون على الحالة الوحشية، فأرشدهم إلى النباتات التى تصلح لغذائهم، ومنها الحنطة والشعير والعنب، وعلمهم تمييزها من النباتات الوحشـية الأخرى التى كانت تنبت معها[2] . ثم علمهـم طرق زراعتها . وعلمتهم إيزيس صنع الخبز وأكله . ومن ذلك الوقت كف سكان مصر عن أن يأكل بعضهم بعضا وانتقلوا من حالة الوحشية إلى حالة المدنية .

---

(١) يوجد شىء كهذا فى كثير من الأساطير القديمة عنـد الأمم الأخرى، فلا يبعد أن تكون هذه الأمم قد أخذته من مصر . (٢) ربمـا صح أن يقال هنا إن وجود هذا فى الأسطورة معناه أنه كان يوجد عنـد المصريين اعتقاد قديم بأن الانسان فى مصر هو الذى عرف هـذه النباتات فى العصر البدائى واستخلصها من النباتات الوحشية (تراجع ص ٤٦ من المجلد الأوّل من هذا الكتاب) .

وعصر أوزريس العنب وصنع خمرا وشرب أول كأس منها . وصنع من الشعير جعة وشرب أول كوبة منها .

وعلم أوزريس أهل مصر إخراج الذهب والنحاس وصنع الأسلحة منهما لمقاومة الحيوانات المفترسة ثم لحرث الأرض(١) . ووضع لهما قوانين ، وأخذهم بأدب النفس والأخلاق ، وبعبادة الآلهة . وعاونه فى عمله هذا توت الذى اخترع الكتابة وبث العلوم والفنون وحبب إلى المصريين الموسيقا وعلم الفلك(٢) .

ورأى أوزريس أن ينشر عمله فى غير مصر فجمع جيشا كبيرا وخرج يغزو ويعلم ، فلم يستخدم جيشه إلا فى حالات نادرة لأن الناس كانوا يقبلون عليه مأخوذين بحسن كلامه تارة وبموسيقاه أخرى . وسمى حينئذ « الموجود الكامل » أو « الموجود الطيب » لأنه كان يتعب لراحة الناس ويجعل حياته وقفا على خير العالم .

وفى غيبته هذه عن مصر نابت عنه إيزيس فحكمت بالعدل والرفق على القواعد التى كان قد وضعها . وكان هذا سهلا عليها لأنها كانت قد اشتركت معه فى كل ما فعله .

وعاد أوزريس إلى مصر فى السنة الثامنة والعشرين من حكمه . وكان أخوه سيت قد امتلأ صدره حسدا له وضغنا عليه ، فتآمر عليه مع اثنين وسبعين شخصا ، وصنع صندوقا لا يطابق إلا جسمه فى طوله وعرضه وجميع مقاساته ، ثم زخرفه بالحجارة الكريمة ، ثم دعا أوزريس والمتآمرين معه إلى حفلة ، فلما اجتمعوا أخرج لهم الصندوق فأعجبوا به ، فقال لهم مداعبا إنه يقدمه هدية لمن تثبت التجربة أنه يلبس جسمه لا يزيد عنه ولا ينقص . فتضاحكوا وجعل كل واحد منهم يدخله

(١) ربما كان هذا أيضا ترديدا لاعتقاد قديم بأن المصريين عرفوا الذهب والنحاس واستعملوهما منذ أبعد العصور (تراجع ص ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ من المجلد الأول من هذا الكتاب) .

(٢) قلنا فى المجلد الأول إن توت هذا هو الذى نقله اليونانيون إلى أساطيرهم بمثل الأوصاف التى له فى الأساطير المصرية وأطلقوا عليه اسم « هرمس » .

ويحاول الاضطجاع فيه فلا يلبسه . وجاء دور أوزريس فدخل واضطجع ، فلم يكد يفعل حتى تجمعوا على الصندوق وأقفلوه ، وصبوا الرصاص على كل منفذ فيه ثم دفعوا به فى النيل .

وعلمت إيزيس بقتل زوجها فقطعت شعرها ولبست ثياب الحداد وطافت تبحث وتسأل ، فصادفت أطفالا كانوا قد رأوا الصندوق حين إلقائه فى النيل فأخبروها . وكان الصندوق قد خرج من النيل إلى البحر الأبيض المتوسط فما زالت الأمواج تدفعه حتى أوصلته إلى ميناء ببلوس (جبيل) فوقف فيه بجانب شجرة اثل ، فنمت هذه الشجرة فى وقت قصير حتى طوته فى جوفها . ورأى ملك ببلوس نموها وضخامتها فأمر فقطع جذعها الذى فيه الصندوق وجعل عمودا فى قصره .

وجاءت إيزيس إلى ببلوس وجلست بجانب عين من الماء تبكى ولا تكلم أحدا . ومرت بهذه العين جوار للملكة ، فدعتهن وضفرت شعورهنّ وأودعت ضفائرهن من رائحتها الزكية . فلما شمت الملكة هذه الرائحة فى جواريها وعرفت منهن خبر المرأة التى عند العين دعتها ، واتخذت منها مرضعا لطفلها . فجعلت إيزيس ترضع الطفل فى النهار من أصبعه ، ثم كلما جن الليل وضعته فى النار وتحولت إلى قطاة تطير حول العمود وتنوح . وتطلعت الملكة ذات ليلة فرأت ابنها فى قلب النار ، فذعرت وانتزعته ، ولم تدر أن النار كانت تبيد عناصر الفناء التى فيه وأن انتزاعه منها حرمه نعمة الخلود .

وظهرت إيزيس للملكة ، وقصت عليها قصتها ، وطلبت العمود ، فأخذته وعادت بالصندوق إلى مدينة بوتو فى مصر وخبأته . ولكن سيت خرج ذات ليلة للصيد والقنص ، فعثر على الصندوق ، فأخرج منه جثة أوزريس ومزقها أربع عشرة قطعة وبعثرها فى أنحاء مصر .

وجاء الخبر إلى إيزيس فاستولى عليها حزن شديد، وخرجت تبحث عن القطع التى بعثرها سيت، فكلما وجدت واحدة منها أقامت فى مكانها ضريحا لأوزريس. وقيل إن هذا هو السبب فى أنه كانت توجد له أضرحة فى مدن عدة .

ووجدت إيزيس القطع كلها إلا واحدة منها هى عضو التناسل ، لأن سيت كان قد ألقاه فى النيل فأكله نوع من السمك . قيل ومن ذلك الوقت صار أكل هذا النوع من السمك مكروها فى نظر المصريين .

وتضافرت إيزيس وابنها حوريس وأختها نفتيس ومعهم توت وأنوبيس على إعادة أوزريس إلى الحياة . ووجدت إيزيس فى تعلياته القديمة طقوسا لهذا الغرض فاستخدمتها وعاد أوزريس إلى حياة خالدة ليست من نوع الحياة المعروفة. وبذلك عرف أوزريس الحياة، ثم الموت، ثم التغلب على الموت، أما الآلهة الذين سبقوه فكانوا قد عرفوا الشيخوخة وما يصاحبها من الضعف ، ولكنهم لم يعرفوا الموت ولا التغلب عليه .

ولما عاد أوزريس إلى الحياة استدعى حوريس وسأله ما أفضل ما فى الحياة. فأجاب: أن يثأر الولد لأبيه ممن اعتدى عليه . فباركه أوزريس . ودارت الحرب بين حورس وسيت، وانضم توت وأنوبيس لحوريس، فانهزم سيت، فما زال به حوريس حتى قبض عليه وكبله وسلمه لأمه . وحينئذ تشفع سيت بأخته إيزيس وذكرها بأنه ابن أمها وأبيها، فرثت لحاله وأطلقت سراحه . فلما عاد حوريس وعلم بما فعلته أمه استشاط غضبا ونزع عنها تاجا كان على رأسها فوضع توت بدلا منه غطاء فى صورة رأس بقرة[1] .

وخاف سيت أن يلى حوريس عرش أوزريس فزعم أنه ليس ابنه، ففصلت محكمة الآلهة فى هذا النزاع وقضت لحوريس .

(١) رأس البقرة من العلامات المميزة للعبودة هاتور . وتأخذ إيزيس فى كثير من الأحيان شكل هذه المعبودة .

*
* *

تلك هى الصور الثلاث التى تطورت إليها أسطورة إيزيس وأوزريس مع تطور المجتمع المصرى . ولا تزال العناصر التى كانت ظاهرة فى الصورة الأولى هى هى فى الصورة الأخيرة، ولكن فى شكل أقوى وأكثر تهذيبا . فقتل الأخ أخاه حسدا وضغنا ، وغضب الآلهة من هذا القتل، ووفاء الزوج لزوجها ، وحب الولد لأبيه وسعيه إلى الأخذ بثأره، وعودة أوزريس إلى حياة ثانية خالدة، وعدل الآلهة فى حكمهم على سيت ، كل هذه المعانى التى تقوم عليها الأسطورة فى الصورة الأولى هى هى فى الصورتين الثانية والثالثة، ولكنها فى هذه الأخيرة أقوى وأوضح. يضاف إلى ذلك :

(أولا) أن طبيعة أوزريس صارت أكثر جلاء ، لأنه وصف فى الصورة الثالثة بأنه هو الذى أرشد أهل مصر إلى النباتات الصالحة لغذائهم، وعلمهم طرق زراعتها ، وهداهم إلى صناعة الذهب والنحاس، ونقلهم من حالة الوحشية إلى حالة المدنية ، ووضع قوانين المعاملات وقواعد الأخلاق، وحبب إليهم التقوى وعبادة الآلهة . ولم يصل إلى ذلك كله بالحرب ولا بالقوة ، بل بالاقناع تارة وبالموسيقا أخرى .

وقد اشتركت إيزيس معه فى ذلك كله وكانت هى التى علمت أهل مصر صنع الخبز.

فاوزريس وإيزيس هما المحسنان العظيمان اللذان جعلا حياتهما وقفا على خير الإنسانية .

(وثانيا) أن حنان إيزيس على ولدها حوريس صار فى الصورتين الثانية والثالثة أكثر قوة وأشد بروزا . ومثله وفاء إيزيس لزوجها أوزريس . فايزيس هى المثل الأعلى للحنان والوفاء .

(وثالثا) أن عدل محكمة الالهة فى قضائها لحوريس على سيت صار أشد فعلا فى النفوس مما هو فى الصورة الأولى . والمعنى التهذيبي المستفاد منه هو أن القوة

(لوحــة رقــم ٢)



الملكة نفرتاري زوجة رمسيس الثانى وأمامها إيزيس آخذة بيدها لتقودها

والعنف ليسا كل شيء فى هذه الدنيا ، و إنما الحق والعدل هما اللذان لهما الكلمة الأخيرة، وهما اللذان تنصرهما الآلهة .

(ورابعا) هذبت الأسطورة فى صورتها الثالثة فلم تقل إن حوريس ضرب أمه، حينما أنقذت عدوه سيت ، فقطع رأسها ، بل قالت إنه نزع عنها تاجا كان على رأسها .

(وخامسا) كانت الصورة الأولى تقول إن محكمة الآلهة حكمت لأوزريس وأجلسته على عرشى أبيه چب، أما الصورتان الثانية والثالثة فتقولان إن المحكمة حكمت لحوريس وأجلسته على عرشى أبيه أوزريس، وهذا التصوير الأخير أكثر تمشيا مع روح الأسطورة، ومع الحرب التى نشبت بين حوريس وسيت .

ولكن هل هذه هى كل المعانى التى أرادها المصريون بأسطورة إيزيس وأوزريس ؟

ألا توجد معان أخرى ؟

بلى، وهى معان تهذيبية وفلسفية معا .

وقد عرض الكاتب اليونانى پلوطرك لهذه المعانى، ولما يماثلها فى أساطير المصريين وحفلاتهم الدينية فقال :

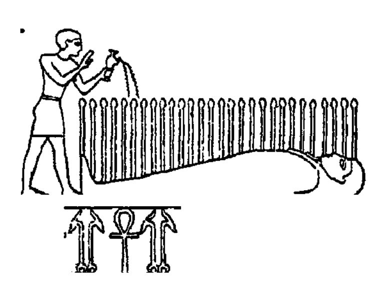
« إن هذا الشعب (يريد الشعب المصرى) لم يكن ، كما يتوهمه بعضهم ، يدخل فى حفلاته الدينية أى مبدأ غير معقول، ولا أى عنصر يوعز به الوهم أو توعز به الوسوسة . و إنما كانت عاداته تقوم على قواعد أدبية ، أو على ما فى اتباع هذه العادات نفسها من الفوائد، أو على الافتنان فى تسجيل ذكريات تاريخية قديمة ، أو على إيضاح نواميس طبيعية »(١) .

(١) الفقرة ٨ من كتاب (Isis et Osiris) من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى سنة ١٩٢٤ والتى تقدمت الإشارة إليها فى المجلد الأول .

ويحسن أن نقول هنا إن پلوطرك كان أحد الذين اعتنقوا عبادة إيزيس وصار كاهنا فى واحد من معابد هذه العبادة فى اليونان ثم كتب كتابه المسمى «إيزيس وأوزريس» لكاهنة يونانية كانت تسمى كليا (Cléa) وكانت تتولى الكهانة فى معبد لإيزيس فى مدينة يونانية قديمة كانت تسمى دلف (Delphes) .

واستطرد بلوطرك بعد ذلك إلى أسطورة إيزيس وأوزريس فقال إنها « إحدى العقائد المستورة تحت ستار قصص وحكايات لا يظهر من خلالها إلا أثر قليل من الحقيقة المقصودة » .

فمن هذه المعانى أن أوزريس يكنى به عن النيل معطى الخصب ، وإيزيس يكنى بها عن أرض مصر يخصبها النيل ، وسيت يكنى به عن البحر الأبيض المتوسط يصب فيه النيل فينقسم ويتبدّد ولكنه يحيا فى العام التالى فتخرج به النباتات من البذور المدفونة فى الأرض .



جثة أوزريس تخرج منها سنابل القمح بينما رجل يسقى السنابل . والمراد بذلك أن أوزريس يكنى به عن مادة الخصب فى الأرض

ومنها أن أوزريس يكنى به عن الرطوبة التى هى الأصل فى الإنتاج ، وأن سيت يكنى به عن الجفاف أو النار ، وأن المؤامرات التى دبرها سيت لأوزريس يكنى بها عن انخفاض مياه النيل بعد الفيضان ، أما انتصار حوريس فهو الفيضان الذى يعود .

ومنها أن أوزريس يكنى به عن القمر يرسل الندى فى الليل فينشر الرطوبة التى هى أصل الانتاج ، وسيت يكنى به عن الشمس ترسل أشعتها فتحرق الندى وتجفف الأرض . قيل والقمر يظهر فى الأفق ثمانية وعشرين يوما ثم يأخذه المحاق ، وكذلك أوزريس حكم ثمانية وعشرين عاما ثم قتله سيت .

ومنها أن أوزريس رمز لقوة الخير تسخر نفسها للعالم، وسيت رمز لقوة الشر تصد الخير ما استطاعت، وقد تتغلب عليه، ولكنها لابد أن تنهزم ثم يفوز الحق والعدل فى النهاية .

وهناك معنى آخر أشار إليه مورى واستنتجه من النصوص المصرية ، وهو أن قتل أوزريس كان يؤخذ فى أول الأمر على أنه وقع برغم إرادته ، ولكنه تطور بعد ذلك فصار يؤخذ على أنه وقع بارادته ، رغبة منه فى أن يضحى بنفسه لخلاص العالم . والمقصود بهذا الخلاص أن يعرف الناس طريق الخلود والسعادة فى الحياة الأخرى . وهذا الطريق قسمان ، أحدهما خاص بما قبل الموت والثانى خاص بما بعده . فأما الأول فهو الاقتداء باوزريس فى اتخاذ الفضيلة والحق وحب الخير أساسا للسلوك . وأما الثانى فهو الاقتداء بايزيس فى الطقوس التى اتبعتها حتى ردت جثمان أوزريس إلى الحياة[1] .

وقد جاءت فى النصوص المصرية إشارات إلى هذه المعانى كلها ، وذكر بلوطرك أغلبها ثم عقب عليها بقوله إنه يكون من الخطأ أن تقصر الأسطورة على معنى واحد، وإنما الصواب أن تمد إلى كل واحد منها تبعا للمناسبات . فاوزريس هو النيل، وهو مادة الرطوبة، وهو البذر يدفن فى الأرض فيخرج منه النبات، وهو قوة الخير، وهو القمر يضمحل ثم يعود جديدا ، وهو المخلص أو الفادى للانسانية . أما إيزيس فهى أرض مصر تتلق الخصب من النيل، وهى الوفاء والحنان والرحمة، وهى كوكب الشعرى اليمانية .

(١) راجع فى ذلك ص ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ ثم ٢٠٨ و ٢٠٩ من كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) .

*
* *

وقد تأثرت هذه الاسطورة بحكم اليونانيين والرومانيين مصر . وكان من ذلك أن صارت تغلب على أوزريس تسمية سيرابيس[١] . ولهذه الغلبة قصة طريفة تتلخص فى أن بطليموس الثانى الملقب فيلاديلف رأى ذات ليلة فى نومه معبودا لمدينة سينوب[٢] يسمى سيرابيس يطلب منه نقل تمثاله إلى مصر . وكان هذا المعبود خاملا فلم يفهم بطليموس لماذا يزوره فى نومه ويطلب منه هذا الطلب . وفى ذلك الوقت كان المؤرخ المصرى مانيتون قد وضع تاريخ مصر باللغة اليونانية ، وكان عمله هذا قد رفع من شأنه ، فدعاه بطليموس وقص عليه رؤياه عسى أن يساعده على معرفة المقصود منها . وكان مانيتون على كثير من الذكاء والكياسة فذهب من فوره إلى قسيس يونانى مشهور فى الاسكندرية كان اسمه تيموتى[٣] وأقنعه بأن فى جلب معبود جديد من سينوب إلى مصر غضا من شأن المعبودات التى فى مصر ، ومن قسس هذه المعبودات . ثم اتفق معه على أن يقول كل منهما إن سيرابيس الذى رآه الملك فى رؤياه موجود فى مصر ، وهو « أوزر — حاب »[٤] ، أو « أوزريس — ابيس » ، أو جثمان ثور مقدس كان قد مات حينذاك . فرضى القسيس اليونانى ، ومضى كل منهما إلى بطليموس بهذا الذى اتفقا عليه ، فقبل الملك هذا التفسير ، واغتبط به رجال الدين المصريون واليونانيون[٥] ومن ذلك الوقت صار سيرابيس المعبود الأكبر فى عهد البطالسة ، وصار هذا الاسم غالبا على أوزريس عند العامة ، أما عند الكهنة المصريين وفى المعابد المصرية فبقيت تسمية أوزريس على ما هى عليه . وانشىء لهذا المعبود الجديد معبد رئيسى فى الاسكندرية ، ومعبد آخر فى ممفيس .

(١) (Serapis) (٢) (Sinope) وهى مدينة فى آسيا الصغرى واقعة على البحر الأسود .
(٣) (Timothée) (٤) (Ouser-Hap)
(٥) كتاب (La Réligion des Egyptiens) ص ٤٣٨ لإرمان المطبوع فى سنة ١٩٣٧ ، وقد قلنا فى المجلد الأول ونقول هنا مرة أخرى إن هذا الكتاب هو الترجمة الفرنسية لكتاب أدولف إرمان باللغة الألمانية فى هذا الموضوع . والمترجم هو (M. Henri Wild) .

وارتفع فى عهد البطالسة أيضا شأن إيزيس الزوج الوفية والأم الحنون، فبنى لها معبد فى جزيرة فيلة ، هو الذى يسمى الآن « قصر أنس الوجود » ، وصارت إلهة الاسكندرية وحامية الملاحة والملاحين .



إيزيس حامية الملاحة والملاحين
تمسك فى يدها اليمنى دفة سفينة



هارپوكرات اليونانى أو «حر — پا — خرد»
أوحوريس المصرى و يلاحظ أنه يضع
أصبعه على فمه مثل حوريس

وصار العامة من المصريين واليونانيين يفتنون فى صنع تماثيل صغيرة لها من الآجر يجعلونها فى بيوتهم ليتبركوا بها . وصارت المدن الأسيوية واليونانية تلحق بها معبوداتها فقيل :

Isis-Arténis, Isis-Athéné, Isis-Tyché, Isis-Astarté, Isis-Hécaté,

أما حوريس الطفل فصار اسمه عند اليونانيين هار پوكرات (Harpocrate) وهو مأخوذ من اسمه المصرى « حر — پا — خرد » (Her-pe-Krot) .



وفى ذلك الوقت كانت المدنية المصرية قد انطفأت ، وكان الغزو اليونانى قد أخمد كثيرا من الروح المصرى ، ثم جاء الغزو الرومانى فأجهز على بقية كانت لا تزال باقية منه . ولكن فى هذا الوقت نفسه كان السياح والتجار المصريون

قد ترددوا على الموانىء الكبيرة في البحر الأبيض المتوسط ، وكان بعض منهم قد أقاموا فيها ، فنقلوا إليها شيئا من الديانة المصرية والمعبودات المصرية . وظهر أثر ذلك أول الأمر فى الموانىء والجزر القريبة فى مصر . ولما كانت عبادة إيزيس وأوزريس قد بلغت شأوا كبيرا فى مصر فى عهد البطالسة، فوق ما كان لها من الشأو الأصلى عند المصريين، فقد كانت هى التى نقلها السياح والتجار المصريون أكثر من غيرها من العبادات .

ففى القرن الرابع قبل الميلاد أنشىء معبد لإيزيس فى ميناء بيريه [(١)] المعروف الان على سواحل اليونان . وبعد ذلك بقليل أنشئت عدة معابد للمعبودات المصرية فى جزيرة رودس [(٢)] وجزيرة لسبوس [(٣)] وتيرا [(٤)] وميناء أزمير وأمكنة أخرى من جزر بحر إيجيه وموانىء اليونان وآسيا الصغرى .

وكان البطالسة يشجعون عبادة سيرابيس وإيزيس لأنها كانت عبادتهم الرسمية فى الاسكندرية ، فجعلت المدن الراغبة فى التقرب منهم تقبل على هذه العبادة ، فانتشرت فى جزيرة قبرص وجزيرة صقلية ومدينة أنطاكية ومدينة أثينا . ثم لما زال سلطان البطالسة بعد ذلك كانت عبادة سيرابيس وإيزيس قد تأصلت جذورها فى الجهات التى وصلت إليها، حتى إذا جاء القرن الثانى للميلاد كان من العادات المرعية فى مدينة أورشومين [(٥)] ومدينة شيرونى [(٦)] أن يكون تحرير الأرقاء باسم سرابيس وإيزيس .

وامتزجت إيزيس بالمعبودات اليونانية فصارت نميزيس [(٧)] وديكيوسينى [(٨)] ونيكى [(٩)] وهيجيا [(١٠)] .

---

(١) Pirée . (٢) Rhodes . (٣) Lesbos وهى الجزيرة التى تعرف الآن باسم ميتلين أو مدللى Mytilène . (٤) Théra . (٥) Orchomène وهى مدينة قديمة كانت واقعة فى إقليم بيوسى Béotie من أقاليم اليونان القديمة .

(٦) Chéronée مدينة يونانية أخرى من مدن إقليم بيوسى الذى تقدم ذكره . وفيها انتصر الاسكندر الأكبر على جيوش أثينا وجيوش طيبة (اليونانية) فى سنة ٣٣٨ ق م .

(٧) (Nèmésis) وهى إلهة الانتقام فى الأساطير اليونانية . (٨) (Dikaiosyné) .

(٩) (Niké) . (١٠) (Hygieia) وهى إلهة الصحة فى الأساطير اليونانية .



بعض بقايا معبد إيزيس فى مدينة بومبي

وفى جزيرة ديلوس[١] صارت إيزيس :

(Isis-Soteria-Astarté-Aphrodite)

وصار ابنها :

(Eros-Harpocrate-Apollon)[٢]

*
* *

ثم أخذ المعبودان المصريان يغزوان إيطاليا .

ففى سنة ١٠٥ ق م بنى لهما معبد فى ميناء بوزول[٣] ثم بنى لإيزيس معبد فى بومبي[٤]

(١) (Delos) وهى إحدى جزر الأرخبيل اليونانى .

(٢) يكاد يكون ما ذكرناه هنا عن امتزاج إيزيس بالمعبودات اليونانية ترجمة دقيقة لما كتبه فى ذلك الأستاذ أدولف إرمان فى كتابه (La Réligion des Egyptiens) ص ٤٧٧

(٣) (Pouzzoles) وهو ميناء فى سواحل إيطاليا .

(٤) (Pompéi) وهى مدينة إيطالية قديمة كانت قائمة بالقرب من بركان فيزوف فلما ثار هذا البركان فى سنة ٧٩ ق م غطاها بحممه ودفن أهلها فيها . وفى سنة ١٧٤٨ بدأت الحكومة الإيطالية تزيح الحمم والأنقاض عنها إلى أن كشفتها . والسياح يزورونها الآن و يرون معبد إيزيس بين خرائبها .



تمثال إيزيس فى معبد مدينة بومبي

وفى عهـد الدكتاتور سـيلا(١) كانت توجد فى روما جالية مصرية ، ألفت أول أمرها من قوم رقيق الحال ، ولكن عبادة إيزيس أخذت تنتشر على يدهم بين أهل روما وتسرى من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا ، لأن هذه الطبقات كانت

(١) (Sylla) وهو دكتاتور رومانى ولد فى سـنة ١٣٦ ق م وكان قائدا عظيما فانتصر فى معارك عديدة وصار حاكما مطلق السلطة فى إيطاليا . ولكنه بعـد أن قهر جميع أعدائه فى الخارج والداخل وصار صاحب السلطان بلا منازع نزل من تلقاء نفسه عن كرسى الحكم فى سنة ٧٩ ق م .

تشعر بحاجتها إلى غذاء روحى لم تكن تجده فى ديانات روما ، ولا فى ديانات اليونان ، ولا فى ديانات آسيا ، ولكنها كانت تجده فى الديانة المصرية . ولم يمض قليل من الزمن حتى بنى فى روما ، وفى عهد سيلا ، معبد لإيزيس .

وأقبل أهل روما على هذه العبادة الجديدة إقبالا وصفه مورى فقال[1] :

"لم تكن عبادة إيزيس تنتشر بين الطبقات الوضيعة فقط ، هذه الطبقات التى يحملها سوء حالها فى الحياة على التأميـل والتعزى . وإنمـا كانت هـذه العبادة تجتذب أيضا المثقفين ، والفلاسفة ، ورجال الفن ، هـؤلاء الذين كانوا جميعا يمتلئـون احتراما لمصر ذات المـدنية القديمة العجيبـة ، والمبانى الهـائلة التى لا يفنيها الزمان ، والتى كان كهنتها قـد لقنوا الحكمة لأفلاطون المقدس[2] . وقـد أدى ذلك إلى أن صار كل ما يأتى من ضفاف النيـ ا فيـه ، . أكان مصنوعات من البرنز ، أم أوانى ،



صورة كانت منقوشة على معابد إيزيس فى روما وتلاحظ فيها المناظر المصرية ومنها التمساح وعجل البحر وطير أبى منجل (إبيس) والسفينة النيلية

(١) ص ١٦٤ و ١٦٥ من كتابه (Rois et Dieux d'Eg.) .

(٢) كلمة "المقـدس" هذه يراد منها أن أهل روما كانو ينظرون إلى الفيلسوف اليونانى أفلاطون نظرهم إلى شخص مقدس .

أم أثاثا ، أم ملابس ، أم حليا . ولم يكن أهل إيطاليا يكتفون باقتناء هذه التحف ، بل كانوا يحرصون فوق ذلك على أن تكون محاطة بالمناظر التى تناسبها ، حتى تظهر كأنها فى بيئتها الأصلية . مثال ذلك الصور التى رسمت على حيطان معبد هركولانوم[1] ومعبد پومپى ، والتى كانت تعبر فى الكثير منها عن مناظر نيلية : فهنا نهر يجرى تحت ظلال النخيل ، وهناك زاوية تزدحم فيها تماثيل أبى الهول ، وبين هذا وذاك طير أبى منجل (وهو الطير الذى كان يمثل المعبود توت عند المصريين) ، وتماسيح ممددة على الرمل ، وعجول بحر[2] تظهر رؤوسها من الماء ، وقرود تتسلق الأشجار أو تصارع زنوجا وأقزاما . كل هذه المناظر التى كان المقصود منها تقليد مصر ، أو التذكير بها ، كانت تجد رواجا لم يكن يعادله غير الشغف بالعبادة المصرية".



صورة حفلة دينية تقام فى معبد إيزيس بمدينة پومپى . وقد وجدت هذه الصورة مرسومة على أحد حوائط المعبد . ويرى على جانبى الصورة نخلتان هما من المناظر المصرية التى كان الرومانيون يحرصون على أن تكون فى معابد إيزيس . ويرى فى أسفل الصورة الطير المصرى "ايدس" أو "أبو منجل" . ويرى فى الوسط كاهن يتهيأ لتوزيع الماء المقدس من حوض أمامه على عباد إيزيس رجالا ونساء لأجل « تعميدهم » .

(١) (Herculanum) وهى مدينة إيطالية قديمة كانت تشبه پومپى فى أنها قائمة بالقرب من بركان فيزوف فلما ثار هذا البركان فى سنة ٧٩ ق م دفنها كما دفن پومپى تحت حممه . وقد كان فيها معبد لايزيس .

(٢) عجل البحر أو فرس البحر حيوان مصرى كان من حيوانات النيل .

وقال إرمان[1]

" لا " الأم الكبيرة " معبودة آسيا الصغرى ، ولا " ميترا » المعبود الشمسى الكبير للعجم ، ولا الديانة اليهودية ، استطاعت ثباتا فى مزاحمتها للعبودين المصريين ، لأن هـذين الأخيرين كانت لهما فى نظر أهل روما ميزات عديدة .

(فأولا) إنهما كانا آتيين من بلاد كانت النفوس معجبة بها إعجابا كبيرا ، لثقافتها القديمة ومبانيها التى تبلغ حد الإعجاز . ولهذا كان أهل روما يرتاحون لتصوير مناظر مصرية ، بمعابدها وأكواخها المؤلفة من الغاب ، وتماسيحها .

و(ثانيا) إن شهرة المصريين بالحكمة كانت قديمة ، وعميقة . ألم يكن أهل روما يعتقدون أن الفلاسفة اليونانيين ، الذين كانوا إذ ذاك المرشدين الروحيين للعالم ، أخذوا أفضل نظرياتهم من كهنة مصر ؟

و(ثالثا) إن الطقوس الرمزية التى كانت تؤدّى فى حفلات إيزيس وسيرابيس كانت ترمز لمعان وحقائق سامية طاهرة .

و(رابعا) وقد كان الأهم فى نظر الكثيرين ، أن عقيدة إيزيس وسـيرابيس كانت تعطى معتنقيها اطمئنانا إلى حياة ثانية ، أفضل من هـذه الحياة ومتاعها ، يعيشونها فى مملكة سيرابيس .

ولهذا كله لم تكن عبادة إيزيس وسيرابيس عبادة ميتة ، ولا مظاهر خارجية وكفى ، كما كانت عبادة الآلهة الرومانية ، بل كانت عقيدة تملأ قلب معتنقها وتثير عواطفه . وكان كاهن إيزيس ، الذى يبدو فى لباسه الكتانى ، يعطى الروح ما هى متعطشة إليه من الغذاء[2] " .

(١) Adolphe Erman ص ٤٧٨ من كتابه (La Réligion des Eg.) الذى مر ذكره .

(٢) كان بعض الكتاب اليونانيين والرومانيين قد سخروا من المعبودات المصرية ، وبخاصة المعبودات التى لها رؤوس حيوانات ، فرد عليهم بلوطرك فى كتابه «إيزيس وأوزوريس» فقال : «إنكم لا ترون غير المظاهر الخارجية من غير أن تكلفوا أنفسكم عناء الذهاب إلى ما وراءها . فان كان هذا كل أمركم فعليكم أن تبصقوا فى الأرض وتتمضمضوا . وإلا فما هو أوزوريس؟ هو عنصر الرطوبة وقوة الخصب المولدة . هو العقل . هو ما فى العـالم مما يخضع للنظام والقوانين . هو بالاجمال قوة الخير . أما تيفون (سيت) فيكنى به عن الجفاف والجدب وعدم الانتـاج . هو ما يخالف العقـل وسلامة الإدراك . هو رمز لما فى العـالم من قوة الاتلاف والخراب . هو قوة الشر . وأما إيزيس فهى الأرض الخصبة . هى العنصر النسائى الذى يستقبل عنصر الاخصاب ... وليس أحب إليهـا من البحث عن الحقيقة ... ... فالذى يحيا حياة منتظمة ، معتدلة ، طاهرة ، ويخـدم إيزيس فى معبدها يستطيع أن يصل إلى معرفة الموجود الأوّل والأسمى . والمعبد هو الذى يفتح أمامنا الطريق لهذا الغرض ، وليس لبس الكتان وحلق شعر الرأس هما اللذان يجعلان الرجل معتنقا عبادة إيزيس ، وإن تكن هذه المظاهر لها أهميتها ، وإنمـا المعتنق هذه العبادة اعتناقا صادقا هو الذى يبحث عن المعنى العميق للاشياء ويتأمل فى الحقائق التى تخفيها " .

*
* *

وفى هـذا الوقت شبت بين القـائدين أنطونيو وأوكتافيو معارك كانت مصر قطب الرحى فيها، فدب فى روما شعور العداء لها، وأدى هذا إلى تخريب ما فيها من معابد إيزيس، مرة، ثم ثانية، ثم ثالثة، ثم رابعة، ثم خامسة، فى مدّة لا تزيد على إحدى عشرة سنة، من سنة ٥٩ إلى سنة ٤٨ ق م . وحرم الامبراطور أوغسطس (١) أن تقام معابد لإيزيس وسيرابيس فى روما ، ولكنه أباح إقامتهـا فى ضواحيها . ثم جاء الأمبراطور تيبر (٢) فأبقى التحريم على ما هو عليـه، ووقع فى عهده حادث مخل بالآداب ألقيت فيـه التهمة على بعض كهنة إيزيس ، فصلبهم ، ودمر معبـدهم، وألقى بتمثال ايزيس فى نهر تيبر (٣)، ونفى إلى جزيرة سردينيا ألوفا من الأرقاء كانوا قد نالوا حريتهم واعتنقوا ديانة إيزيس أو الديانة اليهودية .

ولكن لم تجىء سنة ٣٨ بعد الميلاد حتى كان الإمبراطور كاليجولا (٤) يقيم بنفسه فى ساحة مارس (٥) فى قلب روما، معبدا كبيرا لإيزيس سمى « ايزيس كامبتريس» (٦) . ثم جاء الامبراطور دوميسين (٧) فزخرف هذا المعبد وزاد فيه . وفى عهده أراد شخص يسـمى لوسيليوس (Lucilius) أن يحتفل بعودة الامبراطور إلى روما من بعض حروبه فبنى فى مدينة بنيفان (٨) قصرا لإيزيس «سيدة بنيفان» وأقام أمامه مسلتين من الجرانيت الأحمر ونقش عليهما بالخط الهيروغليفى المصرى هذا الذى صنعه . وهاتان المسلتان باقيتان للآن .

---

(١) (Auguste) هو بعينه القائد أوكتافيو الذى مر ذكر حروبه ضـد القائد أنطونيو . وذلك أن أوكتافيو لما عاد من حروبه هذه إلى روما صار امبراطورا وأطلق عليه اسم جديد هو أوغسطس الأوّل .

(٢) (Tibère) وهو خلف الامبراطور أوغسطس . (٣) (Tibre) وهو نهر يمر بمدينة روما .

(٤) Caligula (٥) Champs de Mars (٦) Isis Campensis

(٧) Domitien وقد حكم من سنة ٨١ إلى سنة ٩٦ بعد الميلاد . (٨) Bénévent مدينة فى إيطاليا واقعة بالقرب من نابولى .

(لوحـــة رقـــم ٣)



تمثال إيزيس فى روما وفى يدها اليمنى الآلة الموسيقية المصرية المسماة الصلاصل
والتى كان النساء يضربنها فى المواكب الدينية

وبعد ذلك بمائة سنة صار أهل روما يقولون « إن إيزيس وسيرابيس كانا معبودين مصريين وقد صارا الآن معبودين رومانيين »[١] . وذلك لأن عبادة إيزيس وسيرابيس كانت قد انتقلت من روما إلى بلاد الامبراطورية الرومانية فغزتها جميعا .

وزار الامبراطور هادريين[٢] وزوجه ورجال حاشيته مصر فأعجب بها وبمعابدها . وكان له قصر فى ضواحى روما فانشأ له حديقة سماها « كانوب » ، باسم أحد فروع النيل ، ووضع فيها تماثيل مصرية ، وبنى تحت القصر قيعانا كان بعضها معبدا لسيرابيس .

* * *

سرت عبادة إيزيس وسيرابيس إلى أجزاء الامبراطورية الرومانية كما رأيت ، فانتشرت فى افريقية الشرقية ، وفى اسبانيا ، وفى فرنسا ، وفى ألمانيا ، وفى البلاد الواقعة على نهر الدانوب ، وفى انجلترا . ولذلك وجدت فى هذه البلاد كلها رسوم ، ونقوش ، وكتابات ، هى مخلفات من تلك العبادة .

ونلخص هنا ما كتبه العالم الألمانى أدولف إرمان فى انتشار هذه العبادة فى بلاده (ألمانيا) ، فقد قال[٣] إن هناك « وثيقة مسيحية نصت على الشكوى الصارخة من أن جبل نونسبرج[٤] الواقع جنوبى بوتزن[٥] يبدو كأنه اسكندرية ثانية لما يعج به من تماثيل انوبيس » ثم لأنه كان إلى جانب ذلك يفيض بالتحمس لإيزيس وسيرابيس .

ثم قال إرمان إنه كان يوجد فى مدينة پولست[٦] معبد لإيزيس ، ووجد فى مارينهوزن[٧] مذبح لسيرابيس كان ضابط رومانى قد أقامه ، ووجدت تماثيل كثيرة من البرنز لإيزيس وسيرابيس فى البلاد الألمانية الواقعة على نهر الرين .

(١) كتب هذه العبارة الكاتب الايطالى Minucius Felisx (٢) Hadrien
(٣) ص ٤٩٧ من كتاب La Réligion des Eg. (٤) Nonsberg
(٥) Botzen (٦) Pulst (٧) Marienhausen

قال : « ولكن أعظم أثر يلفت النظر ، من آثار هـذه العبادة هو ذلك الذى حفظته لنا كنيسة سانت أورسول (١) فى مدينة كولونيا (٢) وهو تمثال صغير باسم « إيزيس التى لا تقهر » . ولما كان قد كشف بالقرب من هذه الكنيسة قبر لمصرى يسمى حوريس بن پابك (٣) فليس يسعنا إلا أن نتساءل ألم يكن هذا الرجل ، ذو الاسم المصرى ، الذى طوحت به المقادير من ضفاف النيل إلى ضفاف الرين ، كاهنا للعبودة المصرية إيزيس ؟ » .



بقايا تمثال إيزيس فى مدينة كولونيا بألمانيا
وقد كتب على قاعدته « إيزيس التى لا تقهر »

فمن كل ما تقدّم يتضح أن عبادة إيزيس وسيرابيس انتشرت فى العالم الرومانى كله بعد انتشارها فى العالم اليونانى . وبقى هذا الانتشار إلى القرن الرابع بعد الميلاد ، ففى منتصف هذا القرن ، أى بعد أكثر من ثلثمائة سنة على وجود الديانة المسيحية ، كان لا يزال فى أثينا كاهن لإيزيس ، فدفن فى قبر له مع جميع ما كان له من الأدوات المقدسة . وفيه أيضا اعتنق أمير ألمانى ، من أمراء البلاد الواقعة على نهر الرين ، كان يسمى ميديريش (٤) ، عبادة إيزيس وكان له ابن يسمى اچيناريش (٥) فسماه سيراپيون (٦) تبركا بنسبته إلى سيراپيس .

(١) Sainte-Ursule (٢) Cologne (٣) Horus fils de Pabek
(٤) Médérich (٥) Agénarich (٦) Sérapion

وولى الامبراطور چوليان[1] عرش الامبراطورية الرومانيـة من سنة ٣٦١ إلى سـنة ٣٦٣ بعد الميلاد ، وكان قد شب مسيحيا ، فنبذ المسيحية وعبد المعبودات المصرية .

وولى الامبراطور أوچين[2] عرش الامبراطورية الرومانيـة فى سـنة ٣٩٢ م فاحتضن عبادة إيزيس وعبادها إلى أن قتله الإمبراطور تيودوز الأول فى سنة ٣٩٤م وفى هـذه السنة نفسها كان فى روما قنصل يسمى نيكوماك فلاڤيـان[3] ، وكان سريا ، ذا غنى ونفوذ ، فاقام فيها احتفالا كبيرا لإيزيس . ولكنه لم يكد يفعل حتى كان الامبراطور تيودوز الذى تقدم ذكره قد ولى الحكم ، وكان متحمسا للمسيحية ففرضها على بلاد الامبراطورية وحارب العبـادات الوثنية وأقفل معابدها[4] وطارد مريديها ، فكان هذا آخر العهد بالمعبودات المصرية .

وبذلك تكون عبادة إيزيس وسيرابيس قد بسطت جناحيها على الامبراطورية الرومانية[5] ٥٠٠ سـنة ، من سنة ١٠٥ ق م ، وهى التى تقدم أنه أنشئ فيها معبدان لتلك العبادة فى مدينتى پوزول وپومپى ، إلى سنة ٣٩٤ بعد الميلاد . وفى هذه المدة كلها كانت هذه العبادة المرشد الروحى لأوربا .



وكان لإيزيس عيدان فى السـنة تحتفل بهما أكثر المـدن فى أوربا ، أحدهما فى شهر نوفمبر والثانى فى شهر مارس .

---

(١) Julien ويروى أنه جرح فى حرب كانت بينه وبين ملك العجم فأخذ فى يده بعض الدم المتدفق من جرحه ثم قذف به فى وجه السماء وقال : « لقد انتصرت أيتها السماء على چوليان » .

(٢) Eugène . (٣) Nicomaque Flavien .

(٤) هذا الإمبراطور هو الذى قلنا فى المجلد الأول إنه أقفل المعابد المصرية فى مصر وطارد كهنتها وكان سببا من الأسباب فى انقراض البقية الباقية ممن كانوا يعرفون الكتابة الهيروغليفية .

(٥) كان العالم اليونانى داخلا فى العالم الرومانى . وقد غزت العبادات المصرية اليونان والعالم اليونانى قبل العالم الرومانى ببضع مئات من السنين .

فأما الأول فكان يستمر ثلاثة أيام ، ففى الأول والثانى منهما كان الكهنة يمثلون قتل أوزريس و إلقاء جثته وخروج إيزيس للبحث عنه . وحينئذ كان جمهور الحاضرين يبكون و يصيحون صيحات حزينة مؤلمة . وكانت إيزيس تظهر لهم فى ثياب الحداد باحثة عن أوزريس باكية معولة . وفى اليوم الثالث يمثل الكهنة العثور على أوزريس ورده إلى الحياة ثم يذهبون إلى نهر أو ترعة حاملين تابوتا مقدسا و إناء من الذهب ، وبهذا الاناء يأخذون من النهر أو الترعة ماء حلوا كأنه ماء النيل ، وإذ ذاك يضج الحاضرون فرحين قائلين « لقد وجد أوزريس » . وفى بعض الأحيان كان كاهن يأتى بطفل يسمونه أوزريس . ثم يطوف الكل فى شوارع المدينة ، ثم يجتمعون فى مأدبة كبيرة أو فى ملعب تقام فيه الألعاب (١) .

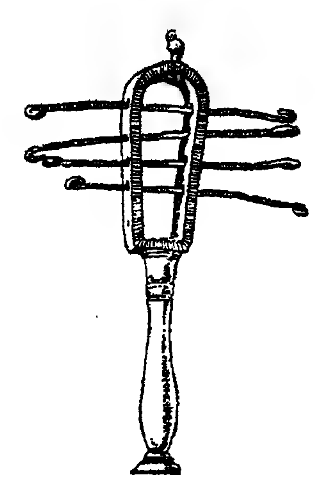
وكانت المدن تقوم وتقعد لهذا العيد ، وكانت الضجة به تملأ الآذان حتى لقد وصل إلينا أثرها فى بعض ما كتبه الشعراء الرومانيون . فالشاعر أوفيد (٢) يذكر هذا الاحتفال وضجته ثم يشير إلى سبرابيس فيقول : « إن البحث عنه لا ينقطع أبدا » . ولم يكن هذا الشاعر من معتنق عبادة إيزيس ، فهو لم يرد بكلمته هذه وصف شغف الجماهير بالبحث عن أوزريس ، و إنما أراد التعبير عن تبرمه بهذا البحث الذى يراه غير منقطع .

والشاعر جوفنال (٣) يذكر صياح الجماهير ساعة العثور على أوزريس فيقول إنه صياح يصم الآذان .

(١) تمثيل أسطورة أوزريس هذا يكاد يكون نفس ما كان الكهنة المصريون يفعلونه فى المعابد فى مصر .

(٢) Ovide وهو شاعر لاتينى اشتهر بقصائد سماها « التحول » يريد به ما كان معروفا فى الأساطير القديمة من تحول الأرواح والمعبودات إلى أشكال مختلفة . وكان مقربا من الإمبراطور أغسطس فأكسبه ذلك صداقة الطبقة العالية فى روما . ثم نفى ومات فى منفاه فى سنة ١٦ بعد الميلاد .

(٣) Juvénal شاعر لاتينى ولد فى سنة ٤٦ م ومات فى سنة ١٢٥ م وقد اشتهر بقصائد سخر فيها من عيوب روما .



آلة موسيقية مصرية تسمى الصلاصل (١)

والشاعر لوكين (٢) يذكر تماثيل انوبيس التى كانت المواكب تطوف بها فى شوارع روما فيظهر الضجر من «هذه الكلاب التى هى أنصاف آلهة ، ومن الصلاصل التى تطوف معها وتبعث فى النفوس رهبة الحداد» .

وأما العيد الثانى الذى كان يحتفل به فى شهر مارس فكان خاصا بافتتاح موسم الملاحة . وقد وصفه الكاتب اللاتينى أبولى (٣) بعد أن شهده فى ميناء كنشرى (٤) فقال إنه يبتدئ بمساخر مما يسميه الأوربيون الآن «كرنفالا» . وكان من هذه المساخر من يمثلون جنودا ، وصيادين ، ومصارعين ، وفلاسفة ، وحمارا ، ودبة فى شكل امرأة ، وقردا فى شكل فتى من فتيان الأساطير اليونانية يسمى جانيميد (٥) . وبعد هذه المناظر المضحكة يأتى موكب من نساء ذوات أردية بيضاء ، وعلى رؤوسهن تيجان من

(١) هذه الآلة هى التى يسميها علماء الآثار Sistre وقد سماها مجمع اللغة العربية «الصلاصل» . وهى آلة من المعدن ذات شكل بيضاوى وفيها أربعة عيدان من المعدن تهتز كلما هزت الآلة فتحدث رنينا . وكانت هذه الآلة إحدى قطع الموسيقا فى المعابد المصرية . وكان النساء يحملنها فى المواكب أمام تماثيل المعبودات ويهززنها هزات خاصة تحدث رنينا موسيقيا خاصا . فلما أخذت روما تقلد مصر فى احتفالاتها الدينية خرجت النساء الرومانيات يحملن هذه الصلاصل فى مواكب المعبودات المصرية . ويقال إن هذه الآلة لا تزال مستعملة فى الكنائس فى الحبشة .

(٢) Lucain شاعر لاتينى اتصل ببلاط الإمبراطور نيرون . وكان نيرون يدّعى الشعر فلما رأى أن لوكين لا يعجب بشعره غضب عليه . ثم اشترك لوكين فى مؤامرة وافتضح أمره فأكره على أن يقتل نفسه .

(٣) Apulée كاتب من كتاب القرن الثانى بعد الميلاد . ومن رواياته التى اشتهر بها رواية عنوانها «حمار من الذهب» يدور محورها حول حوادث من السحر .

(٤) Kenchreae ميناء كان فى إقليم كورنت باليونان .

(٥) Ganymède . تقول الأساطير اليونانية إن جانيميد هذا كان أميرا من أمراء مدينة طروادة فتشكل ذفس ، كبير الآلهة ، فى شكل عقاب وخطفه ثم جعله ساقيا للآلهة .

أزهار الربيع، وهنّ يرمين الجماهير فى خلال سيرهنّ بالزهور والعطور، وبعضهنّ يحملن أمشاطا ومرايا ويأتين بحركات يوهمن بها أنهنّ يمشطن ضفائر إيزيس . وبعد موكب النساء هذا يأتى موكب من رجال ونساء يحملون مشاعل ومصابيح . ثم يأتى موسيقيون بآلاتهم الموسيقية، ثم شبان فى ملابس بيضاء ينشدون نشيدا خاصا فى موكب دينى مؤلف كما يأتى :

الضاربون على ناى يسمى ناى سيرابيس يضربون نغما لا يضرب إلا فى العيد، فجماعة من عباد إيزيس يهزون «الصلاصل» ، فرجال ونساء مختلفو الأعمار وعلى رؤوس النساء منهم نسيج أبيض، فستة من رؤساء الكهنة يحملون مصباحا ومائدة للقرابين وأشياء أخرى مقدّسة، فالمعبودات يتقدّمها أنوبيس برأس كلب أسود مذهب، فعبد يمشى متتابها وفى يده تمثال بقرة هى رمز لالهة الخصب، فعبد ثان يحمل صندوقا فيه الذخائر المقدّسة ، فعبد ثالث يحمل على صدره تمثال إيزيس ، فكاهن يحمل صلاصل وتاجا من الورد .

وتسير هذه المواكب كلها إلى البحر ، وهناك تكون فى انتظارها سفينة مزينة برسوم مصرية . ثم يلقى الكاهن صلاة يختمها بوضع هذه السفينة فى حماية إيزيس . وحينئذ يرفع الملاحون السوارى وينشرون القلاع ويلقى بعض الناس عطورا على السفينة . ثم يرفع الملاحون الحبال التى تربطها بالشاطئ، فتنطلق فى عرض البحر . وبعد ذلك تعود المواكب من حيث جاءت، حتى إذا وصلت إلى المعبد خرج منه واحد من موظفيه فهتف فى الجماهير المحشودة بأسماء الأمبرطور، ومجلس الشيوخ ، والشعب الرومانى، والبحارة، وسفنهم ، فتردّد الجماهير هتافاته، وتصيح، وتحلى بالأزهار، ثم تقبل قدمى تمثال إيزيس وتنصرف .

ولما جعلت إيزيس حامية للملاحة صار من العادات المألوفة أنه إذا ركب البحر حبيب أو خطيب مضت حبيبته أو مخطوبته إلى إيزيس فى معبدها وتضرعت إليها أن تحميه، وهزت «الصلاصل»، وتطهرت بالماء المقدس، ونامت ليلتها.

فاذا عاد الحبيب أو الخطيب من رحلته سليما معافى مضت الحبيبة أو المخطوبة إلى معبد إيزيس مرة أخرى، فى ثوب من الكتان ، مرسلة الشعر، ثم جلست أمام المعبد وأنشدت نشيد الحمد لإيزيس .

*
* *

ونذكر هنا كلمة لكاتب رومانى قديم، يسمى ترتوليان[(١)] نعرف منها إلى أى حد كانت عبادة إيزيس وسيرابيس قد غمرت الأمبراطورية الرومانية . فقد طوف هذا الكاتب ما طوف فى أرجاء هذه الأمبراطورية الواسعة، فكان أينما حل أو رحل طالعته تلك العبادة بمعابدها وكهنتها وعبادها ، فضاق صدره فى النهاية، وأفضى إلى الورق بصيحة غضب قال فيها :

« لقد صارت الأرض كلها تقسم باسم سيرابيس ! » .

وترتوليان هـذا عاش بين سنة ١٦٠ وسنة ٢٤٠ بعد الميلاد، وكان من علماء الكنيسة ، فصيحته هذه دليل على أن عبادة إيزيس وسيرابيس كانت إلى سنة ٢٤٠ بعد الميلاد منافسا قويا فى أوربا للديانة المسيحية[(٢)] .

وهناك صيحة أخرى، مثل هـذه فى معناها ، ولكنها صادرة فى القرن التـاسع عشر بعـد الميلاد، ومن شاعر ألمـانيا الكبير جيت[(٣)] . وذلك أن اسطورة إيزيس وأوزريس نقلت إلى اللغـة الألمـانية فى القرن التاسـع عشر تحت عنـوان «الناى المسحور» فذاعت لها شهرة واسعة، وصار جيت أينما اتجه وجدها أو سمع موسيقا تنشد شيئا من أغانيها ، فضاق بها ذرعا وصاح يقول :

« أف لإيزيس وأوزريس . متى يخلصنى الله منهما[(٤)] »

---

(١) Tertullien كان من علماء الكنيسة ، وقد اشتهر عالمـا وكاتبا وقسيسا .

(٢) يرى بعض العلماء أن هذه المنافسة كانت فى الظاهر أكثر منها فى الجوهر . وهم يبنون رأيهم هذا على أن عبادة إيزيس وأوزريس كانت ، بمبادئها وطقوسها وتقاليدها التى انشأتها ، ممهدة للمسيحية لا معارضة لها . ومن العلماء الذين يقولون بهذا مورى ص٢٠٨ من كتابه (Rois et Dieux d'Eg.).

(٣) Gœthe وهو من أكبر شـعراء ألمـانيا . ومن مؤلفاته رواية «فاوست» وروايات أخرى كثيرة . وكان إلى جانب ذلك عالمـا . ولد فى سنة ١٧٤٩ ومات فى سنة ١٨٣٢

(٤) صيحة جيت هذه ذكرها إرمان فى كتابه .La R. des Eg ص ١١٣

*
* *

ولقد قلنا من قبل إن المعبودات المصرية اختفت من أوربا بعد سنة ٣٩٤ ميلادية ، فالمراد بهذا الاختفاء إغلاق المعابد وتحريم الاحتفالات ، أما فيما عدا ذلك فقد بقيت العبادات المصرية تشغل أذهان فئة من الكتاب والمفكرين ، ولا سيما الذين كانوا منهم يجدون فى نفوسهم ميلا إلى الطقوس السرية والاشارات الرمزية ، ويعرفون أن العبادات المصرية تشتمل من هذه وتلك على كثير . فهؤلاء الكتاب والمفكرون استمروا يرون فى مصر البلاد التى علمت الناس عبادة الآلهة ، وسواء أكان المعبود هذا الإله أم ذاك ، وسواء أكانت العبادة على هذا الشكل أم ذاك ، فالجوهر فى ذلك كله هو الإيمان والتقوى والاعتقاد بأن هناك إلها قادرا يحاسب على السيئات ويثيب على الحسنات .

ومن هؤلاء المفكرين الفيلسوف اليونانى اسكلبياد [1] ، رحل إلى مصر فى القرن الخامس ، وأقام فيها سنين ، فدرس دياناتها وأساطيرها ووضع أناشيد لآلهتها .

ومنهم أيضا اسكلبيوس [2] ، نظر إلى مصر وقد هوت إلى الحضيض ، وفقدت ثقتها بنفسها بعد أن فقدت إيمانها ، فحز ذلك فى نفسه وأرسل صيحة رثاء قال فيها :

« سيأتى يوم يظهر فيه كأنه كان من العبث أن عبد المصريون الآلهة عبادة تقوى وإيمان . فى ذلك اليوم سيشعر المصريون بأنهم جنوا من هذه العبادة التى مجدوها خيبة مرة . وإذن ترحل الآلهة من الأرض ، وتعود إلى السماء ، تاركة مصر . وإذن تصبح مصر التى كانت مقرا للعبادات المقدسة خالية خاوية محرومة من المعبودات . وذلك أن أجانب [3] يملأون الآن أرضها ، فسوف لا تقف نكبتها عند ترك العقائد ، بل تكون أشد وأنكى إذ تسن قوانين بتحريم الدين والتقوى والعبادة ، وبالعقاب عليها . فيومذاك تصير هذه الأرض المقدسة إلى أقصى حدود التقديس ، والتى هى مقر المقدسات والمعابد ، مملوءة كلها بالأموات والمقابر .

مصر ! يامصر ! سوف لا يبقى من عقائدك غير قصص تسمعها الأجيال المقبلة فلا تصدقها .

وسوف لا يبقى من إيمانك وتقواك غير كلمات محفورة على حجارة تقص خبرهما على العالمين » .

(١) (Asclépiade) .   (٢) (Asclépius) .

(٣) يريد بهؤلاء الأجانب الرومانيين الذين كانوا فى ذلك الوقت يحكمون .

الأدب المصري القديم

الشعر الغزلي – حق الأم على ولدها

زوج يقاضي زوجته بعد موتها إلى الآلهة

شاعر يدعو إلى التمتع بالحياة

هل كان لمصر القديمة أدب ؟

هذا سؤال قد يطرحه بعض المصريين على أنفسهم لأنهم يجهلون أن مصر القديمة كان لها أدب، وأن هذا الأدب كان شعرا كما كان نثرا، وأن من هذا الأدب قصصا ، وغزلا، ومدحا، ونخرا، ووصفا، وفلسفة، وتهذيبا، وفكاهة، وأمثالا، وأناشيد دينية وغير دينية، وفنونا أخرى .

والأدب نوع من الترف فى التفكير، ولكنه ترف لا بد منه للانسان متى تجاوز الدور الذى كل همه فيه مقصور على البحث عن طعامه وشرابه ومأواه . بل لقد دلت الآثار على أنه حتى فى هذا الدور، كان الترف فى التفكير يعرض له فى بعض أوقات هدوئه وفراغه ، فكان يتسلى بأن يسجله على الصخور فى شكل صور للحيوانات التى كان يصيدها، أو فى غير ذلك من الأشكال. وهذا الترف فى التفكير معناه اتساع أفق الذهن شيئا فشيئا ، ولهذا كان الأدب لازما لكل مجتمع ومقياسا لمقدار ما يبلغه هذا المجتمع من النمو والتقدم .

وقد كانت لمصر القديمة حضارة، نشأت طفلة ثم تدرجت فى النمو حتى عاشت أربعين قرنا أو تزيد[1] ، فما لا شك فيه أن لها فى حضارتها هذه أدبا ، بدأ طفلا

(١) تقدم فى الصفحة ٦٦ من المجلد الأول أن العلماء مختلفون فى تقدير زمن الحضارة المصرية القديمة فبعضهم يرى أن الملك منا حكم فى حدود سنة ٣٤٠٠ ق ٠ م ٠ والبعض الآخر يرى أنه حكمها فى حدود سنة ٥٥٤٦ ق ٠ م ٠ فالتاريخ الأول يسمى القصير والثانى يسمى الطويل . فنضيف هنا إلى ذلك أن هناك رأيا ثالثا يذهب إلى أن الملك منا حكم فى حدود سنة ٤٠٠٠ ق ٠ م ٠ وهذا التاريخ يسمى التاريخ الوسط، وهو مذهب ضعيف .

ولكن الكل متفقون على أنه لما حكم منا كانت مصر قد سارت فى سبيل الحضارة شوطا طويلا، فكانت ذات حكومة منظمة، وكانت حكومتها هذه قد انتظمت الوجهين البحرى والقبلى ، وكانت قد عرفت الكتابة واستخدام النحاس والذهب والفضة والبرنز وصناعة الزجاج وابتكرت التقويم الشمسى وبرعت فى الطب والفلك والهندسة والعمارة والنحت والتصوير .

ثم نما عصرا فعصرا . فليس محل التساؤل إذن أنه كان لها أدب أو لم يكن ، وإنما محله هل وصل إلينا شيء من هذا الأدب أو لم يصل؟ وهل نقل إلى اللغات الحية أو لم ينقل ؟

والجواب أن عوامل الزمن وعوامل التدمير قضت على هذا الأدب ، ولم تبق منه إلا القليل ، ولكن هذا القليل كثير مع ذلك ، وقد وصل إلينا ، ونقل إلى اللغات الحية كلها ، ما عدا اللغة العربية ، وفيه ما يكفى لتفهم روحه ، بل فيه ما يكفى لتتبع تطوّراته الكبيرة فى عهد الدولة القديمة ثم فى عهد الدولة الوسطى ثم فى عهد الدولة الحديثة .

ونقول إن القليل الذى أبقته عوامل الزمن وعوامل التدمير كثير ، لأن المصريين كانوا شغوفين بالقول وتدوينه ، وكانوا يحبون البراعة فى التعبير وفى الأسلوب ، لأنهم كانوا يعتقدون أن القول الحسن يكسب صاحبه قوة ومركزا حسنا . ولهذا كتب الملك خيتى (أحد ملوك الأسرة العاشرة) فى وصاياه لابنه الملك مرى — كا — رع يقول :

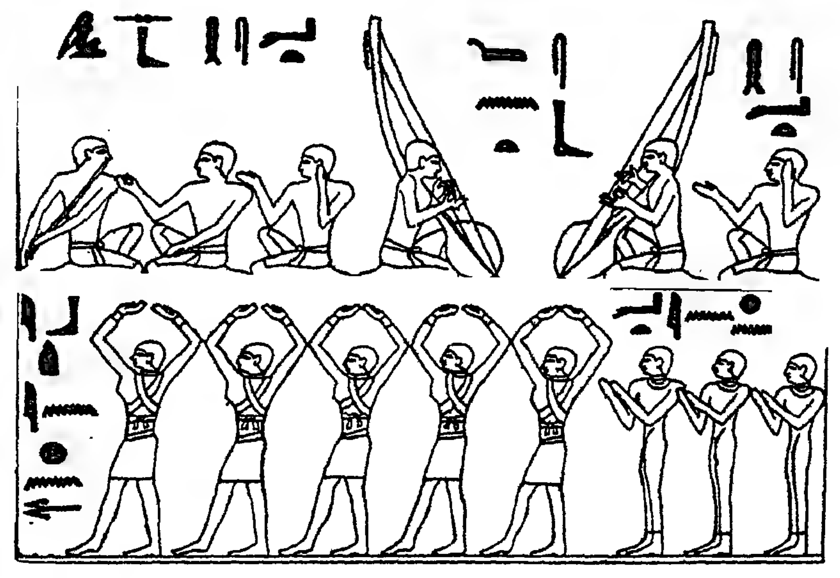
"كن رجل فن بارع فى قولك تكن قويا ، فإن اللسان سيف الملك ، والكلام أشد فعلا من القتال" .

وقد دوّنوا أقوالهم ، من شعر ونثر وحكمة وقصص ومراسلات عادية وغيرها ، على الحجارة والقطع المتناثرة من الأوانى كما دوّنوها على الورق . وهذا يدلك على أنهم لم يحجموا عن التدوين أمام أية صعوبة وأية مشقة . وقد وصل إلينا بعض هذا الذى دوّنوه ، وهو كثير فى ذاته و إن يكن قليلا بالنسبة إلى ما لم يصل ، مما قضت عليه عوامل التدمير أو مما لا يزال مطويا فى مجموعات البردى عند المتاحف المختلفة وفى أديم مصر .

وعندى أن مما يعيبنا نحن المصريين أن المثقفين منا يعرفون إلى جانب الأدب العربى ، الأدب الانجليزى ، والأدب الفرنسى ، والأدب الألمانى ، والأدب

الإيطالى، ومنا من يعرفون حتى الأدب الفارسى، وحتى الأدب اليونانى القديم، ولكننا لم نعن إلى الآن بمعرفة أدبنا المصرى القديم ، لنعرف ماذا أوحت مصر، أرضها ونيلها وجوّها وسماؤها وحدائقها وأشجارها وطيورها ونسماتها وصحاريها وحوادثها التى تقلبت عليها بالخير والشر، ماذا أوحت مصر هذه لأبنائها من الكتاب والشعراء والمفكرين. ثم لنعرف كيف بدأ هذا الوحى ساذجا فطريا، ثم كيف أخذ ينمو ويتقدّم، فكان أوّل تفكير أدبى فى العالم، وكان المصريون هم الذين انتزعوه من وجدانهم وعبقريتهم على غير مثال سابق . نقول إننا محتاجون لمعرفة هذا الأدب لنعرف كيف بدأ وكيف نما فصار أدبا ضخما بسط سلطانه على العالم القديم كله ، وترك أثره بينا فى آداب الشعوب السامية وفى الأدب اليونانى .

فدراسة الأدب المصرى القديم ضرورية لنا نحن المصريين من هذه الوجهة المصرية، وهى ضرورية لنا ولغيرنا من وجهة أخرى هى الوجهة التاريخية . والعلماء مجمعون على أن مصر هى البلد الوحيد الذى يستطيع الباحث أن يتتبع فيه سلسلة من البحث تمتد أربعة آلاف سنة قبل الميلاد أو تزيد ، متصلة الحلقات،



مجلس موسيقا وغناء ورقص وتصفيق توقيعى

ظاهرة المعالم، فهى لذلك البلد الوحيد الذى يستطيع الباحث أن يعرض فيه تاريخ تطور الجماعات والحكومات والنظم ، وتاريخ نشوء الأدب وتطوره خطوة خطوة، كما لا يمكن أن يعرضهما فى بلد آخر .

ولهذا رأيت أن أتحدث هنا فى شىء من الأدب المصرى القديم، لا لأسد ما فى اللغة العربية من النقص فى هذه الناحية، فان سده لا تفى به إلا المجلدات، ولكن لألفت نظر المصريين، ونظر المتأدبين منهم خاصة ، إلى أن لمصر القديمة أدبا موجودا ، وأن من حق هذا الأدب عليهم أن يعرفوه .



ولا يطمع القراء فى أن أنقل إليهم ما أنقله من هذا الأدب فى بلاغته الأصلية، فان المترجمين يعرفون أن شعر شكسبير الإنجليزى أو راسين الفرنسى أو جيته الألمانى، تفقده الترجمة كثيرا من بلاغته. ومثل ذلك شعر امرئ القيس أو أى شعر عربى آخر إذا نقل إلى لغة أوربية . وهذا لأن الشعر والنثر الفنىَ الذى يسمى أدبا يتكونان من عنصرين : أحدهما الفكرة ، والثانى الصياغة . واجتماع هذين العنصرين هو الذى يبعث فى النفس أثرا خاصا وموسيقا خاصة. والترجمة تنقل الفكرة ولا تنقل الصياغة . فكأنها تنقل الهيكل العظمى دون اللحم والدم .

وهذا يقال فى أدب عصرى ، أو فى أدب لم يمض عليه غير بضع مئات من السنين . أما الأدب الذى مضت عليه خمسة آلاف سنة أو ثلاثة آلاف على الأقل[(١)]، فيجب أن يقال فيه إلى جانب ذلك إنه ابن بيئة تختلف عن البيئات التى يعرفها العالم الآن، وقد وجد فى ظل عقلية واعتقادات وتقاليد وعادات لم يبق لها وجود، وقل من يعرفها . ومن المسلم به أن الأدب يكتسب كثيرا من العقلية والاعتقادات والتقاليد والعادات التى يعيش فيها ، بل هو لا يكون أدبا حيا إلا إذا امتزج بها

(١) خمسة آلاف سنة هى التى مضت على أدب الدولة القديمة وثلاثة آلاف هى التى مضت على أدب الدولة الحديثة .

وكان وحيا منها . ولهذا السبب يكون نقل الأدب المصرى القديم الآن إلى اللغة العربية تجريدا له من هذه العناصر كلها، فوق تجريده من الصياغة وموسيقاها . ولهذا السبب نفسه سنرانا محتاجين فى كثير من الأحيان إلى إعطاء بيانات وتعليقات ننقل بها القارئ، على قدر استطاعتنا وفى حدود دراستنا، إلى العصور التى قيل فيها ما نعربه لهم من القطع الأدبية .



وقد قلنا إن الأدب المصرى قصص وغزل ومدح وفخر وفلسفة وفكاهة وأناشيد دينية وغير دينية وفنون أخرى، فنرى أن تكون خطتنا فى عرض شىء من هذا الأدب هنا اجتناب الأناشيد الدينية مؤقتا، على الرغم من كثرتها وقيمتها الأدبية، لأن تذوق هذه الأناشيد التى وضعت فى ظل الديانات القديمة ليس سهلا على أبناء العصر الحديث، فخير أن نبدأ بغيرها، ثم لعلنا نطرق بابها فيما بعد .

ونرى أيضا ألا يكون من خطتنا الآن تتبع خطوات الأدب المصرى من نشوئه إلى انتهائه، فنعرب أدب الدولة القديمة ثم نتبعه بأدب الدولة الوسطى ثم نختم بأدب



فتيات يلعبن بالأكر على شكلين مختلفين . ففى الصف الأعلى أربع فتيات يتقاذفن أربع أكر وهن واقفات . وفى الصف الأدنى ركبت اثنتان ظهرى اختيهما وجعلتا تتقاذفان أكرة

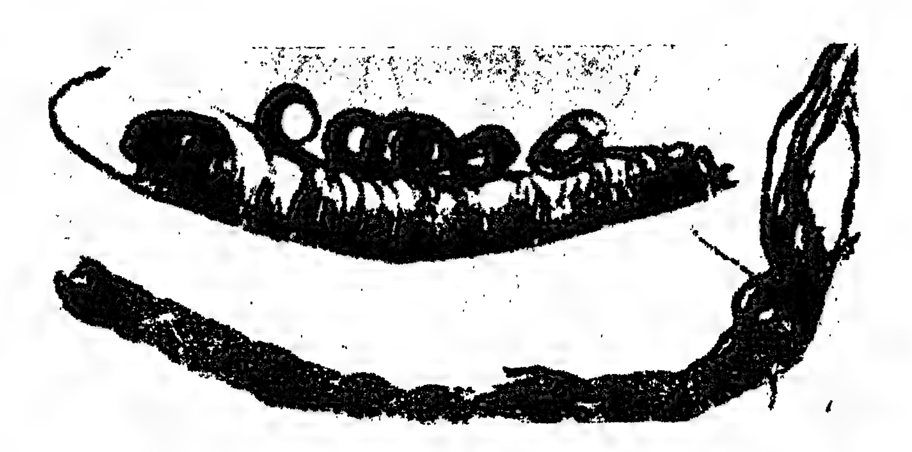
الدوله الحديثة ، كلا لا نرى أن تكون هذه خطتنا فى مستهل بحثنا هذا، إذ القارئ الذى يجهل كل شىء عن الأدب المصرى القديم ، محتاج، فى أول ما يحتاج إليــه ، إلى أمثلة من هذا الأدب تدله عليه وتعرفه به . ويحسن حينئذ ألا تكون هــذه الأمثــلة مقيدة بعصر بعينه أو كاتب بعينه . حتى إذا تمت هــذه المعرفة وعقدت أواصرها ، قلنا كلمة فى أثر الأدب المصرى فى الأدب العبرى ، كالكلمة التى أودعناها المجــلد الأول عن أثر الأدب المصرى فى الأدب اليــونانى ، ثم قد نعالج بعــد ذلك ما هو أوسع .

ونبدأ بالغزل والشعراء الغزليين .



من البديهى أن المصريين الأقدمين عرفوا الحب كما نعرفه نحن الآن ، وأنهم رأوا فيه عاطفة مرهفة يجب أن يعبر عنها الشعر والغناء والموسيقا كما نعبر عنها نحن الآن ، فهم إذن قــد تغزلوا و وضعوا فى غزلهم القصــائد والأغانى ، فمــاذا قالوا فى قصائدهم هذه ، وكيف صوّروا الحب فيها ، وهل وصل إلينا شىء منها .

نعم وصل إلينا شىء ، هو قطع بعضها مبتور و بعضها كامل .



خصائل من الشعر وجدت فى قبور الدولة القديمة . وهى مما كان يستعمل لزينة الرأس

وكان أول من عنى بترجمة جزء من هذه القطع العالم الانجليزى جودوين Goodwin ثم العالم الفرنسى ماسبيرو ثم العالم الألمانى ماكس مولر Max Muller ثم علماء آخرين .

وقبل أن نشرع فى تعريب شيء من هـذه القصائد والأغانى نقول إن الحبيبة كانت تسمى فى لسان هؤلاء الشعراء «أختا» والحبيب كان يسمى «أخا» ، فحينما يتغزل المحب ويقول «أختى» فهو يريد «حبيبتى» ، وحينما تتحدث الفتاة عما فى نفسها من عواطف الحب وتقول «أخى» فهى تريد «حبيبى» .

ويفسر ماسبيرو هذا التعبير بأنه مستمد من العادة التى كانت جارية بين المصريين فى ذلك العهد، بإباحة زواج الأخت بأخيها ؛ وعندى أنه سواء أصح هـذا التفسير أم لم يصح، فان لهذا التعبير معنى بارزا هو السمو بعاطفة الحب إلى مستوى عاطفة الأخوة، لا من حيث القوة، إذ الحب أقوى من الأخوة فى كثير من الحـالات، ولكن من حيث الطهارة والعفاف ونبل الأخلاق .

فأنت إذ تحب فتاة، فهذه الفتاة يجب أن تلقبها أختك، وهذا اللقب لابد أن يشعرك قربها من قلبك، كما لابد أن يشعرك الحرمة والاحترام اللذين تجدهما فى نفسك لأختك من أمك وأبيك .

والفتاة مثل الفتى، يجب أن تلقب حبيبها أخاها ، وهذا اللقب لابد أن يشعرها أن الحب صلة كصلة الدم، ولكنه صلة طهارة قبل أن يكون سبيلا إلى الطيش والفسوق .

وإذا صح أن التلقيب مستمد من إباحة زواج الأخت بأخيها ، وأن الأخت أول فتـاة مرشحة لهذا الزواج ، فهناك معـنى آخر يوحى به ذلك التلقيب، وهو أن الحب ينبغى — فى الغالب على الأقل — أن تكون غايته الزواج .



وهنـا أستطرد قليـلا فأقول إن إباحة زواج الأخت بأخيهـا كانت معروفة فى الأسر المـالكة، لسببين : أولهما الحرص على الدم الشمسى، أى الدم الملكى . والثـانى أن حق البنت المولودة من أب هو ملك وأم هى ملكة فى وراثة العرش

كان أقوى من حق الابن المولود من أب هو ملك وأم ليست ملكة، بحيث كانت الأخت فى حالة كهذه هى التى تعتبر وريثة شرعية للعرش دون أخيها، ولهذا كان يقترن بها ليكون حقه فى العرش شرعيا .

كان هـذا هو المعروف فى الأسر المـالكة ، أما فى غيرها من عامـة الشعب فلم تكن الحاجة ماسة إلى الحرص على دم شمسى ولا إلى وراثة عرش، ولذلك يرى بعض العلماء أن القول بإباحة زواج الأخت من أخيهـا بين أفـراد الشعب يجب أن يبقى محـل تحفظ إلى أن تقوم عليه أدلة كافية ، لأن جميع الحالات التى عرف إلى الآن أن أختا تزوجت فيها بأخيها هى حالات خاصة بالأسر المـالكة .

١ ـ ٤

والآن فلنسمع ماذا يقول أحد الشعراء المحبين[1] .

يبدأ هـذا المحب فيشكو إعراض أخته عنه ، وصدّها له ، ثم يفكر فى ألوان من الحيل عسى أن يظفر برؤيتها فيقول :

سأرقد فى سريرى متمارضا
فيعودنى جيرانى .
وتعودنى أختى معهم .
وتضحك أختى من أطبائى .
لأنها تعرف دخيلة مرضى .

وتمنى المحب أن تزوره حبيبته إذا رقـد فى سريره مريضا أو متمـارضا شائع فى الشعر العربى نذكر منه قول الشاعر :

ماذا عليـك إذا خبرتنى دنفـا * رهن المنيـة يوما أن تزورينى

(١) اعتمدنا فى تعريب هذه القصيدة على الترجمة التى وضعها لهـا ماسبيرو فى كتابه : Causeries d'Egypte المطبوع سـنة ١٩٠٧ ص ١٨٥ و ١٨٦ ثم على الترجمة التى وضعها لهـا مورى فى كتابه Le Nil et la Civilisation المطبوع بباريس سنة ١٩٢٦ ص ٥٤٠

ومن الشائع فى الشعر العربى أيضا مرض الحب ، وأن الأطباء لايعرفونه ولا يفلحون فى مداواته، وإنما الحبيبة هى التى تعرفه وتستطيع أن تداويه . قال قيس ابن ذريح :

عيد قيس من حب لبنى ولبنى * داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادنى العوائد يوما * قالت العين لا أرى من أريد
ليت لبنى تعودنى ثم أقضى * إنها لا تعود فيمن يعود

وقال عروة بن حزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجد إن هما شفيانى
فما تركا من حيلة يعرفانها * ولا شربة إلا وقد سقيانى
ورشا على وجهى من الماء ساعة * وقاما مع العواد يبتدران
وقالا شفاك الله والله ما لنا * بما حملت منك الضلوع يدان



ثم يستمر الشاعر المصرى فيقول إنه إذا لم ينجح فى حيلته تلك فسيحتال ليدخل عند أخته مع زوارها، ثم كأنه لا ينجح فى هذا أيضا فيقول :

دار أختى ... ! !
ليتنى أكون على بابها
فان أغضب ذلك أختى
فانى على الأقل سأسمع صوتها الغاضب
وسأكون أمامها كالطفل يرتعد فرقا .

فصاحبنا يتمنى أن يكون بوابا لدار أخته ، وهو يتوقع حينئذ أن تغضب ، وأن تصيح فى وجهه ، وقد تطرده، ولكنه مع ذلك يسره أن يسمع صوتها وأن يقف أمامها كما يقف الطفل الذى يهدده أهله بالضرب ، أو يضربونه ، فيرتعد فرقا .

وهـذا الضرب من التمنى طبيعى فى المحبين الذين لا يجـدون من أحبابهم غير الصد والهجران . فعمر بن أبى ربيعة يقول :

ليت حظى كطرفـة العين منها * وكثير منهـا القليـل المهنـا
أو حديث على خلاء يسـلى * ما يجن الفؤاد منهـا ومنا
كبرت رب نعمــة منك يوما * أن أراها قبـل الممات ومنا

وجميل بن معمر يتمنى الكلمة الواحدة ولو كانت « لا » ، أو الأمل الخائب ، أو النظرة العجلى ينقضى عليها حول كامل :

وإنى لأرضى من بثينـة بالذى * لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى * وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى * أواخره لا نلتـقى وأوائـله

لا بل إن جميلا يمضى إلى أكثر من هذا فيقول :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى * بثينـــة لا يخفى على كلامها

فهو من أجل أن تقوده بثينة وأن لا يخفى عليه صوتها يرضى أن يكون أصم أعمى. أما الذى أفرط فى ذلك حتى انقلب إلى الشناعة فهو جنادة العذرى إذ يقول :

من حبهـا أتمنى أن يلاقينى * من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيا أقول فراق لا لقـاء له * وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها

على أنه يستدرك بعد ذلك فيقول :

ولو تموت لراعتنى وقلت ألا * يابؤس للموت ليت الموت أبقاها

*
* *

ولكن شاعرنا المصرى بعد أن كان يكتفى بأن يكون بوابا ، عاد يترقى فى تمنياته فصار سماعه صوت أخته لا يكفيه ، وصار يقول :

ولكن يارب لم لم تجعلنى رقيقتها السوداء[1]

(١) كانت الرقيقات السوداوات كثيرات فى بيوت المصريين فى تلك العصور .

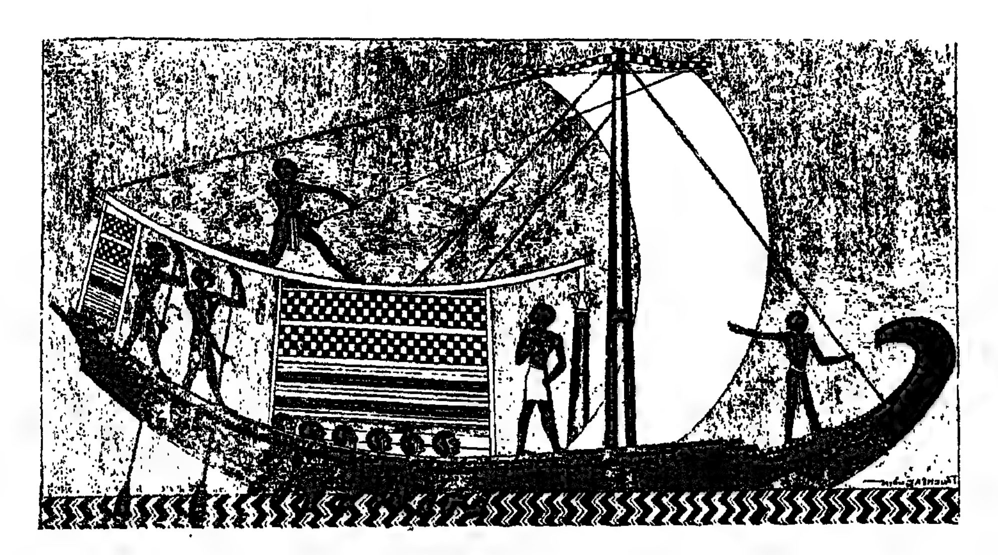
تلك التي تقيم معها
فاني إذن كنت أمتع عيني برؤيتها ورؤية تعاريج جسمها .

والتطلع إلى رؤية تعاريج الجسم مما يشوق المحبين، وهم يذهبون فيه مذاهب، بعضها محتشم وبعضها جرئ. حكى أن عمر بن أبي ربيعة نظر في الطواف إلى امرأة وقعت من نفسه فكلمها فلم ترد عليه، ورأى الهواء يلاعب أذيال ثيابها فقال :

الريح تسحب أذيالا وتنشرها * ياليتني كنت ممن تسحب الريح
كيما تجــر بنا ذيلا فتطرحنا * على التي دونها مغبرة شـــوح



ويمضي شاعرنا المصري بعد ذلك في أفانين أخرى من الأماني فيتمنى لو كان الخاتم الذي تلبسه أخته في أصبعها، أو إكليل الزهر الذي يطوق عنقها ويداعب صــدرها . وهو لا يتردّد في أن يسقيها — لو استطاع — شراب الحب ليحملها على أن تفتح بابها قليلا وتسمح له برؤيتها .



سـفينة مصرية على النيل

ولكن ماذا يفيد كل هذا ؟ ... لا شيء ... وإذن فليتجه صاحبنا وجهة أخرى، وليركب النيـل إلى حيث « الإله بتاح »[١] فى ممفيس ، وليتضرع اليـه أن يهيئ له رؤية أخته . يقول :

سأركب النيل نازلا مع التيار[٢]

وسأمضى مسرعا

وباقة من الريحان على كتفى

وسأصل إلى مدينة عنخ تاوى[٣]

وهناك أقول للاله بتاح رب العدل

«هيء لى أن أرى الليلة أختى» .

إن النهر لخمـر .

وإن بتـاح لغـابه

وإن سخمت[٤] لبرديه

وإن إنريت[٥] لبرعومه

وإن نفرتوم[٦] لأزهاره

(١) كان من ألقاب الإله بتاح « صاحب الوجه الجميل » .

(٢) المحب الذى يتكلم هنا كان من أهالى طيبة فهو إذا ركب النيل إلى ممفيس يكون نازلا من مصر العليا ، ويكون فى نزوله سائرا مع التيار، وذلك أدعى إلى الإسراع الذى أشار إليه بعد ذلك فى قوله «سأمضى مسرعا» ، لأن السفن لم تكن تعتمد فى ذلك الوقت إلا على الشراع أو المجذاف .

(٣) هى مدينة ممفيس . (٤) سخمت (Sekhmet) هى إلهة الانتقام أو العذاب أو الحرب .

(٥) إنريت (Enrit) أو إن حوريت (En-Houret) ويسمى « الذى يحضر البعيـدة » كان معبودا لمدينة سيبنيتس (Sebennytés) وهى التى تعرف الآن باسم سمنود ، وكان معبودا أيضا فى طيبة بالقرب من العرابة المدفونة . (٦) نفرتوم (Nefertoum) هو ابن الإله بتاح . وكان يرمز له بزهرة بشنين مفتحة تخـرج منها ريشتان . وكان تثليث مدينـة ممفيس مؤلفا من بتاح وسخمت ونفرتوم .

هنا يسبح الشاعر فى بحر من الخيال لأنه ركب النيل إلى حبيبته، فأخذته نشوة الفرح، فصار النيل فى نظره خمرا، وصارت المناظر الطبيعية تشبه سحرا صنعه الآلهة. فالغاب المنتشر على ضفاف النيل، والبردى، والبرعوم، والأزهار، كلها ليست نباتا، و إنما هى آلهة تجمل الطبيعة فى عينه وتشترك فى تحريك النشوة فى نفسه.

ويجيب الإله رجاءه، وتأتى أخته فى موعد يضربه لها. فيقول :

حينما أرى أختى قادمة
يخفق قلبي
وتتحرك ذراعاى لتطويقها
وأحس فى أعماق نفسى
كأن السعادة الأبدية تشملنى.
ثم إذا دنت منى أختى ولمستنى
وفتحت ذراعيها لى
شعرت كأن أزكى روائح بلاد العرب[1] تغمرنى
ثم إذا اقترت شفتا أختى
وأدنتهما منى وقبلتنى
فذلك لى هو السكر من غير مسكر[2]

وهذه المعانى كثيرة فى الشعر العربى مع تنويع فيها. فالشاعر المصرى يقول إن قبلة من أخته تسكره من غير مسكر، وقيس بن ذريح ينهج مثل نهجه فيقول :

وللحائم العطشان رى بريقها * وللمرح المختال خمر ومسكر

وعمر بن أبى ربيعة يحوم حول هذا المعنى فيقول :

من يسق بعد الكرى بريقتها * يسق بكأس ذى لذة خصر

(١) كانت بلاد العرب مشهورة عند المصريين إذ ذاك بأشجارها ذات الروائح الزكية. وكانت بلاد (بونت) مشهورة عندهم بهذا أيضا. ومن العلماء من يقولون إن (بونت) هى الصومال ومنهم من يقولون إنها بلاد العرب. وأغلبهم من الرأى الأول. (٢) الترجمة الحرفية هنا «بغير جعة» وكانت الجعة من شرابهم. وكانوا يصنعون أشربة أخرى ولكن الجعة كانت الشراب السائد.

ولكنه يذهب فى مقام آخر إلى تشبيه آخر فيقول :

فلثمت فاها آخذا بقرونها * شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

أما بشار بن برد فيقول :

حوراء إن نظرت إليـ * ـك سقتك بالعينين خمرا

وكأن رجع حديثها * قطع الرياض كسين زهرا

وكأن تحت لسانها * هاروت ينفث فيه سحرا

فهو يرى فى نظر الحبيبة خمرا مسكرة وفى حديثها سحرا، بينما الشاعر المصرى وقيس بن ذريح وعمر بن أبى ربيعة يرون الخمر والإسكار فى العناق والريق .



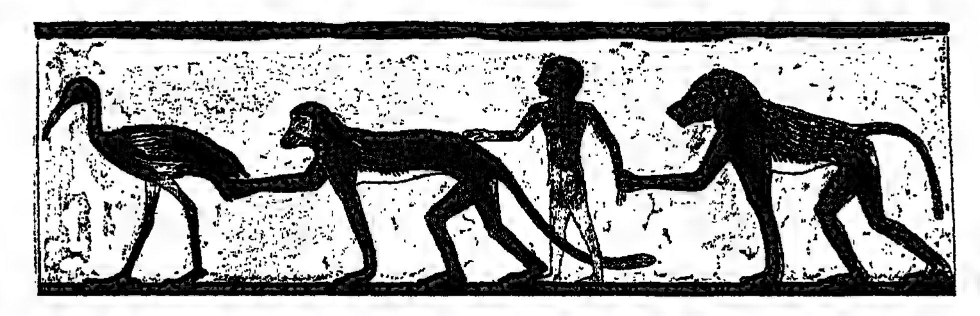
ولم نورد هذه الأمثلة من الشعر العربى إلا لنلل بها على أن كثيرا من المعانى التى وضعها الشاعر المصرى فى قصيدته تردّد من بعده بزمن لا يقل عن ألفى سنة، وما زال يتردد إلى اليوم فى الشعر الحديث بحيث لو أن شاعرا عصريا جعل من قصيدة شاعرنا المصرى قصيدة عربية ، لما احتاج إلا إلى أن يخرج منها الآلهة وتسمية الحبيبة أختا ، لكى تكون قصيدته عصرية . بل هو قد لا يحتاج لإخراج هذه التسمية لأن مخاطبة الحبيبة بكلمة « الأخت » أو بكلمتى « شقيقة الروح » مما لاينبو عن الذوق العصرى إذا وضع فى صيغة فنية مقبولة[1] .



ولقائل أن يقول هنا إن تردّد معانى الشاعر المصرى فى الشعر العربى أثر من آثار الأدب المصرى فى آداب الأمم المجاورة لمصر، ولكن قولا كهذا يكون — فى رأيى — مبالغا فيه ، لأن المعانى التى عبر عنها الشاعر المصرى فى قصيدته هى مما يقع

(١) وردت تسمية الحبيبة بالأخت فى كتب الأدب العربى، فقد روى صاحب «الأغانى» فى أخبار مطيع بن إياس الكنانى أن مطيعا روى حديثا دار بينه وبين حماد عجرد فقال : « قلت له قم امض بنا حتى أريك أختى، وكانت لمطيع صديقة يسميها أخته وتسميه أخى، وكانت مغنية ... الخ » .

وهذا الخبر نفسه يوجد أيضا بهذا النص فى أخبار مطيع فى الجزء الرابع من كتاب « نهاية الأرب فى أدب العرب » .



قرد أخذ يداعب قزما فأمسك بيده اليسرى ، فى حين أخذ القزم يداعب قردا ثانيا بيده اليمنى ،
وفى حين أخذ هذا القرد الثانى يداعب طائر « ايبيس » أو أبى منجل فأمسك بذيله

فى الكثير منه توارد الخواطر بسهولة ، لأنها تعبر عن عواطف يحسها كل محب فى كل عصر وكل بلد . على أن هناك حقيقة يجب الاعتراف بها ، وهى أن سكان شبه جزيرة العرب كانوا على اتصال دائم بمصر فى كل وقت ، فلا بد أن يكونوا قد تأثروا بمدنيتها وأدبها ، كما لا بد أن يكونوا قد تأثروا بالمدنية الكلدانية وأدبها ، وبالمدنية الأشورية وأدبها . وأثر المدنية الفارسية والأدب الفارسى فى المدنية العربية والأدب العربى معروف مشهور ، ومثله أثر المدنية اليونانية والأدب اليونانى . أما أثر المدنية المصرية والأدب المصرى فليس معروفا ولا بد له من دراسات لكى يعرف .

وقد وجدت هذه القصيدة التى عربناها هنا مكتوبة فى ورقة من البردى عثر عليها فى قبور الدولة الحديثة ، فاذا نحن فرضنا أن صاحبها من أهل هذه الدولة ، فهو قد وضع قصيدته فى نحو سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد أو أقل قليلا . وبذلك يكون قد مضى عليها إلى اليوم أكثر من ٣ آلاف سنة .

ولكن علماء التاريخ المصرى القديم يعرفون أن المصريين كانوا شديدى الاحتفاظ بكل ما خلفته لهم العصور السابقة ، ولا سيما عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى ، فوجود هذه القصيدة فى قبور الدولة الحديثة لا يكفى برهانا على أنها لشاعر من شعراء هذه الدولة ، ولا ينفى أنها قد تكون لشاعر من شعراء عصر سابق . ولهذا يكون تقدير عمر القصيدة بثلاثة آلاف سنة فقط ، تقديرا تخمينيا .

الفَتَاة

كيف كانت تعبر عما فى قلبها من عواطف الحب

قبل أن نعرض لأشعار الحب على لسان الفتاة يحسن أن نقول إن المرأة المصرية كانت تتمتع بحرية واسعة فى حقوقها، ومعاملاتها، وغشيانها الأسواق والمجتمعات . وكانت تعتبر ربة البيت . وكانت التقاليد تقضى بأن تحاط داخل البيت وخارجه بكثير من مظاهر العطف والاحترام . وكانت مصر البلاد الوحيدة التى تقدّمت فيها المرأة هذا التقدم، ولذلك دهش منه هيرودوت[1] حينما زارها فى نحو سنة ٤٥٠ ق م، ولم يكن عرف مثله فى بلاده ولا فى أية بلاد أخرى فلم يفهمه وكتب يقول :

« إن المرأة المصرية هى التى تذهب إلى السوق وتشترى الأشياء بينما الرجل يقعد فى البيت و ينسج» .

والآن نصغى إلى الفتاة فى تعبيرها عما فى نفسها من عواطف الحب .

تقول الفتاة[2] :

أخى الحبيب[3] .

إن قلبي معلق بحبك .

فاسمع لما أقول .

وانظر ماذا فعلت .

---

(١) راجع فى ذلك ص ١٧ من المجلد الأوّل .

وقد كتب ماسپيرو فى ذلك فى ص ١٨٧ من كتابه (Causeries d'Egypte) يقول :

« كانت المرأة فى مصر تتمتع بحرية واسعة حتى ظنها اليونانيون صاحبة السلطة القوية فى الأسرة وظنوا الرجل عبدا لها » .

(٢) نعتمد فى تعريب هـذه القصيدة على مصدرين أولها كتاب (Causeries d'Egypte) لماسپيرو من ص ١٨٣ إلى ص ١٨٩ من الطبعة الثانية .

والثانى كتاب (Le Nil et la Civilisation) لمورى ص ٥٤٠ .

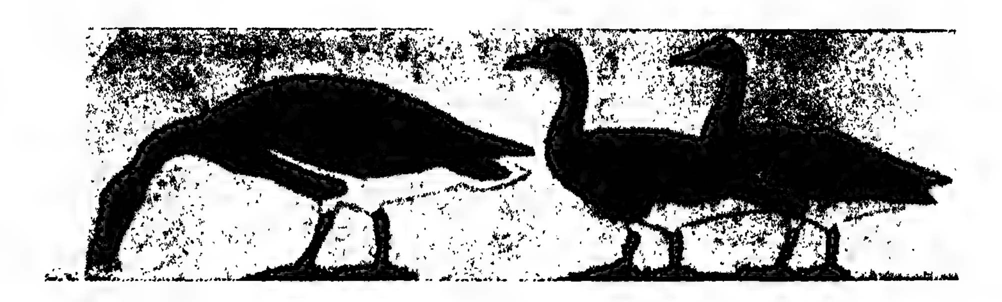
(٣) يبتدئ النص عند ماسپيرو كما يأتى :

أخى وحبيبى . لقد مضت إلى المرج أختك الجميلة التى يحبها قلبك .

إن قلبي لمعلق بكل ما يسرك وكل ما يخطر على بالك أن تبتدعه .

اسمع لما أقول ... الخ .

لقد ذهبت أنصب نخى بيدى (١) .
وأنت تعرف أن جميع طيور بونت (٢)
تحط فى مصر معطرة برائحة المر .
فأول هذه الطيور
هو الذى حط على نخى .
وضرب فى طعمى .
بينما كانت تفوح منه روائح بونت .
وكانت مخالبه مغطاة بالصمغ الزكى .
أفيكون لى أن تقتنصه من الفخ معى ؟
معى أنت وحدك ؟
كى تسمع شكوى طيرى المعطر برائحة المر .
وأية غبطة لى
أن تكون معى إذ أنصب نخى .





يمثل رسم الاوز وجد فى ميدوم فى قبر من قبور الدولة القديمة

(١) يضع ماسبيرو فى مكان هـذه الفقرة ما يأتى : « ذهبت إلى مكان الصـيد وفى يدى نخى وقفصى ومظلتى » . (٢) يضع ماسبيرو هنا فى النص الذى ترجمه « بلاد العرب » بدل بونت .

ولكن أخاها لا يجيب دعوتها، فهو لا يأتى ليشترك معها فى الصيد، ولا ليكون معها حينما تنصب فخها، ولا ليشاهد هـذا الفخ إذ يقبض على أول طير من طيور بونت، ولا ليكون بجانبهـا حينما تأخذ هـذا الطير المعطر بالرائحة الزكية، لا يأتى أخوها ليشترك معها فى شىء من هـذا كله، فهى إذن تعتب وتشكو وتتألم، وهى إذن تنسى فخها والطير المعتقل فيه، وهذا الطير يجاهد إذن لكى يتخلص من الفخ، وهو إذن يتخلص ويطير، وهى إذن تقول :

لقد صاح الطير وهو فى الفخ

ولكن حبك ملك على مذاهبى

فلم يدعنى أفكر فى أخذه .

فسأجمع فخى وأدوات صيدى

لأنى لن أصيد شيئا .

رب ماذا أقول لأمى إذ أعود إليها خالية اليدين ؟

وقد ألفت أن ترانى أحمل إليها الطيور كل يوم .

ستقول أمى ماذا فعلت بفخك ؟

فهل من جواب أجيب به غير أنى كنت أسيرة حبك ؟

*
* *

والآن وقد أيأس الحب فتاتنا من أن تصيد طيرا تعود به إلى أمها، ماذا هى فاعلة؟ ها هى ذى تتجه إلى أخيها وتفضى إليه، فى صرخة حارة، بكل ما فى نفسها، فتقول :

إنها القبلة منك .

هى وحدها التى يحيا لها قلبى .

فإن أنا ظفرت بها

فليكتب آمون[1] أن تكون لى إلى الأبد .

هى إذن تحيا للقبلة من أخيها، وكأنها لولا أملها فى هذه القبلة ما كانت تحيا. وهى تدعو الله إن ظفرت بها أن يكتبها لها إلى الأبد، فما الذى تريده بهذا ؟ أيقف

(١) آمون هو معبود طيبة الأكبر.

(لوحـــة رقــم ٤)



تربيـــة الأيائـــل

هذه الصورة مأخوذة عن قبور بنى حسن بالألوان التى رسمت بها

متمناها عند أن تنعمَ بما فى العناق والتقبيل من لذة وبما فيهما من إرضاء لعاطفة الحب ، أم يترقى متمناها إلى شيء آخر أسمى من اللذة الجسمية ؟ ... اسمعها تقول :

أخى الحبيب ! إليك أفضى بذات نفسى .
إن الأمنية التى يخفق بها قلبى
هى أن أصبح قوامة على شؤونك .
وربة لدارك .
وأن تستند ذراعك إلى ذراعى .

وبهذا كشفت صاحبتنا عن مكنون سرها ، فدلت على أنها تتجه بحبها كله إلى غاية واحدة ، هى أن تصبح قوامة على شؤون حبيبها وربة لداره ، أى زوجة له يستند إلى ذراعها كما تستند إلى ذراعه .

ذلك أن حبها ليس حب فسق وفجور وإنما هو حب يبدأ طاهرا شريفا وينتهى طاهرا شريفا .

⁂

وهنا كان يجب أن تنتهى القصيدة ولكنها لم تنته ، لأن فتاتنا بعد أن وصلت إلى تمنى الزواج ، وشعرت بما لهذه الأمنية فى نفسها من غبطة ، عادت فتصورت أن غبطتها هذه قد لا تكون سوى إحساس كاذب ، وأن رجاءها فى حب أخيها لها قد لا يكون سوى رجاء خائب ، فالتفتت فجأة وقالت :

أخى ! إذا تحوّل حبك عنى
فسأقول لقلبى :
« إن أخى بعيد الليلة عنى »
وسأكون كأنى دفنت فى قبرى
لأنك أنت العافية وأنت الحياة .

وكأنها فى قولها «بعيد الليلة عنى» تأبى أن تستسلم لليأس ، وتأبى إلا أن تعزى قلبها بأن أخاها بعيد عنها ليلة ثم يعود .

وبهذا انتهت القصيدة .

* * *

كان صيد الطيور من الملاهى التى يغرم بها أعيان المصريين رجالا ونساء فى كثير من الأوقات . ولا تزال مناظر مختلفة لهذا النوع من الصيد ترى فى قبورهم ، وكانت تساعدهم على ذلك بحيرات عدّة كان النيل يخلقها وبرك كان الأغنياء وأمراء الأقاليم ينشئونها فى أملاكهم . ولهذا كان من الطبيعى أن يتجه الشعراء إلى هذا الصيد فيدخلوه فى أشعارهم الغزلية . وصيد الطيور يتفق مع مزاج المرأة . وهو خليق أن يثير فيها كامن العواطف ، وأن يكون الحديث فيه على لسانها حديث الطبيعة الفاتنة ، والصبابة الساحرة ، ولا غرو فهو حديث الماء والسماء والخضرة والطير والفضاء والتجرّد إلا من القلب الخافق والإحساس الصادق .

وصيد كهذا قل أن يوجد فى بادية كبادية بلاد العرب حيث لا أنهار ولا بحيرات ، ولكنه يمكن أن يوجد حيث الفرات ودجلة . وقد أكثر الشعراء العرب من وصف البحيرات والبرك والصيد فيها بعد أن ألفوها فى الشام ومصر والأندلس وبلاد أخرى ، أما قبل ذلك فلم يدخل هذا الصيد فى شعرهم إلا قليلا . وإنما كان صيد آخر يكثر فى شعرهم هو صيد الظباء والأسود والحمر الوحشية وغيرها من حيوانات الصحارى والجبال ، وهذا كله صيد يختص به الرجال .

ولكن كان من الطبيعى أن تدخل فكرة الصيد ، فى ذاتها ، فى الشعر العربى من غير تقيد بصيد معين ، لأن وقوع المحب فى حب حبيبته يشبه إلى حد بعيد وقوع الصيد فى يد الصائد . وقد أبدع الشعراء العرب فى هذه الفكرة وانتزعوا منها صورا بلغوا بها أسمى مراتب الجمال . قال قيس بن ذريح :

برت نبلها للصيد لبنى وريشت * وريشت أخرى مثلها وبريت

فلما رمتنى أقصدتنى بسهمها * وأخطأتها بالسهم حين رميت

وقال عمر بن أبى ربيعة :

خليلىّ ما كانت تصاب مقاتلى * ولا غرّنى حتى وقعت على نعم

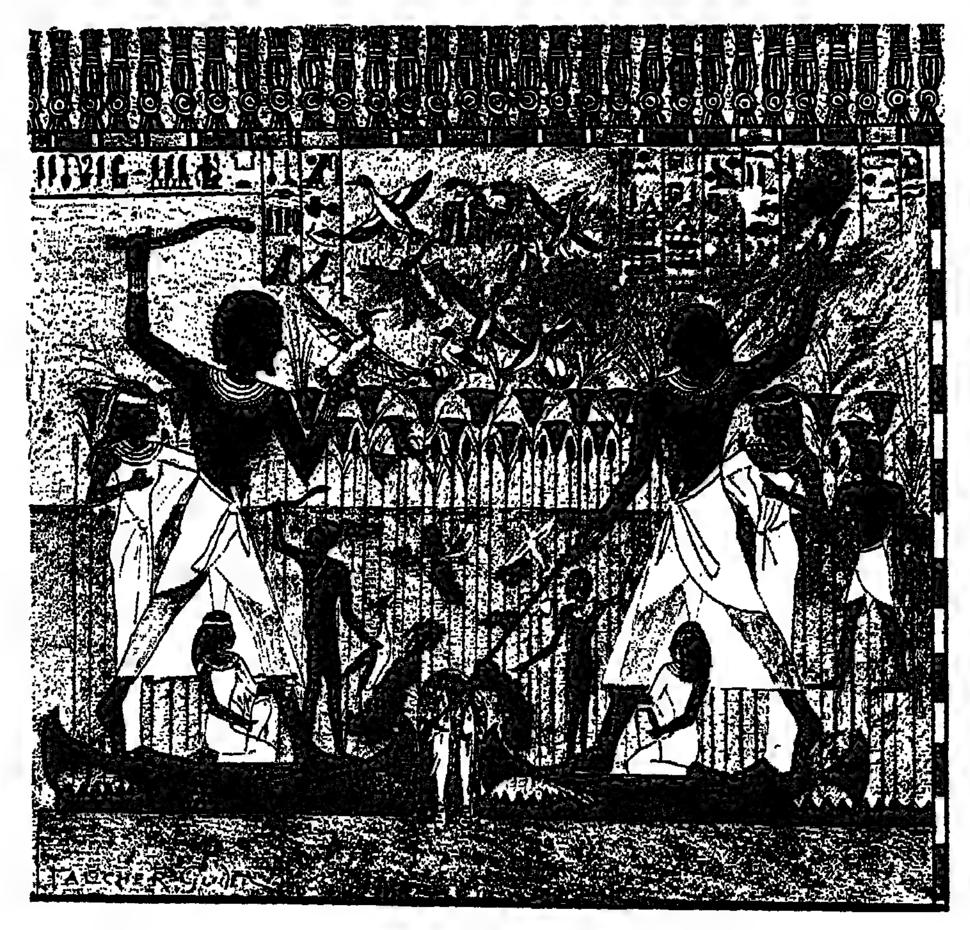
خليـلىّ حتى لف حبلى بخادع * موقى إذا يرمى صيود إذا يرمى

وقال آخر :

تعرضن مرمى الصـــيد ثم رميننا * من النبل لا بالطائشات الخواطف

ضعائف يقتلن الرجال بلا دم * فيا عجبا للقـاتلات الضـعائف

ومثل هذا كثير .



صيد الأسماك والطيور

فى المركب التى على يمين الصورة رجل من الأعيان يصطاد السمك ومن خلفه امرأته وبجانبه بنته وابنه . وفى المركب التى على اليسار هـذا العين نفسه يصطاد الطيور بمضرب كان خاصا لهذا الغرض ومن خلفه امرأته وبجانبه بنته ثم ابنه ، وقد أعد هذا الأخير مضربا آخر ليقدمه إلى أبيه

حدثتنى

بين فتـاة وقمـــرية

ونتقل بعـد ذلك إلى قصـيدة غزل أخرى صيغت فى شـكل محاورة بين فتاة وقمـــرية .

تأتى القمرية فى وقت الفجر إلى حيث الفتـاة نائمة فتغرد بالقرب من رأسها حتى توقظها، فتهب الفتاة وتقول :

غردت القمرية وحدثتنى فقالت :

هوذا الفجر يلوح ألا تخرجين ؟

قلت كلا لست خارجة .

قالت أنت بهذا تجيبيننى .

قلت خففى عنك خففى

لقد وجدت أخى فى سريره

فابتهج قلبي برؤيته .

وقد قال لى أخى :

« لست أفارقك

وهذه يدى فى يدك

وسأتنزه معك

وسنرتاد معا جميع أمكنة البهجة والسرور » .

ألا فاسمعى يا قمرية .

لقد جعلنى أخى

أولى الفتيات فى العالم

لأنه يحبنى ولا يرضى أن يسوءنى .

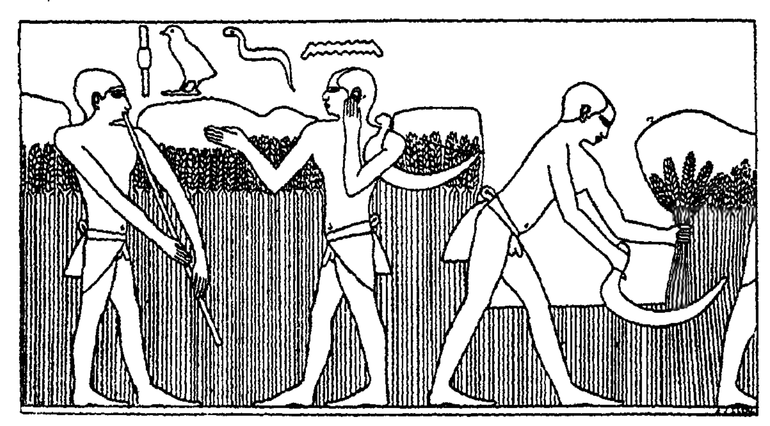
هذه محاورة مع القمرية لاشك فى أنها خيال جميل، كما كان جميلا ذلك الخيال الذى رأيناه فى الفخ والصيد والطير المعطر . وفى هذا دليل على أن المصريين افتنوا فى التعبير عن عاطفة الحب حتى بلغوا حد الإبداع .

والذى آسف له حينما أرى هذا الافتنان ، وأكاد ألمح ما فيه من حرارة العاطفة ، وما وراءه من قوّة الصياغة ، هو أن هذه الصياغة تبقى محجوبة عنا ، فيبقى محجوبا بها كثير مما تحمله من الحرارة والحياة والجمال .

*
* *

وهنا أيضا كان من الطبيعى أن يدخل تغريد الطيور فى الشعر العربى وأن ينتزع الشعراء منه صورا ساحرة، ولكنهم فى الغالب يذكرون الحمام بدل القمرى، لأن هذا الطير الأخير قليل فى بلاد العرب كثير فى مصر . قال نصيب :

لقد هتفت فى جنح ليل حمامة * على فنن وهنا وإنى لنائم
فقلت اعتذارا عند ذاك وإننى * لنفسى مما قد رأته للائم
أأزعم أنى هائم ذو صبابة * لسعدى ولا أبكى وتبكى الحمائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقا * لما سبقتنى بالبكاء الحمائم



الحصد على نغمات الغناء

يرى فى هذه الصورة زامر يزمر بأنبوبة من الغاب . وزميل له يغنى واضعا يده اليسرى على صدغه كما يفعل المغنون القرويون الآن . بينما فلاح يحصد الزرع بالمنجل

وقال عبد الله بن الدمينة الخثعمى :

أإن هتفت ورقاء فى رونق الضحى * على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الوليد ولم تكن * جليدا وأبديت الذى لم تكن تبدى

وقال مجنون ليلى :

ألا يا حمام الأيك مالك باكيا * أفارقت إلفا أم جفاك حبيب

وغير هذا كثير .

غيرة فتاة

هنا نواصل الحديث فى الغزل أيضا ، ولكننا نطرق موضوعا آخر ، هو غيرة الفتاة المحبة إذ تشعر بأن حبيبها يميل إلى غيرها .

تقول الفتاة (١) :

سيجىء الآن أخى .
فهذا هو وجهى إلى الباب يرقب مجيئه .
وهاتان هما عيناى
ترصدان أن يلوح فى الشارع .
وهاتان هما أذناى
تسمعان وقع خطواته .
و إن جسدى ليرتجف
لأن حبى لأخى
هو كل شىء فى هذه الدنيا عندى .
فلأخى وحده
يدق قلبى .
وله يأبى أن يسكت .

(١) المصدر هنا هو كتاب ماسبيرو الذى مر ذكره



علبة للطيب أو لمساحيق الزينة مصنوعة على شكل فتاة تسبح فى الماء
وتقبض بيديها على أوزة عائمة أمامها

بهذه الكلمات عبرت الفتاة عن عواطفها ، فهى تنتظر أخاها على مثل جمر الغضا ، وجهها يرقب الباب وعيناها ترصدان الشارع وأذناها تتسمعان ، فهى قلقة مضطربة ، تعتقد أنه سيجىء ثم تخشى أن لا يجىء . ومع أنها بدأت فقالت قول المطمئنة الواثقة « سيجىء الآن أخى » ، فقد ساورها القلق بعد ذلك فأشاع الرجفة فى جسدها . وكأنما احتاجت إلى تأويل لهذه الرجفة ففعلت ، وكان التأويل أن حب أخيها هو كل شىء عندها فى هذه الدنيا ، وأنه إن كان قلبها يدق ويأبى أن يسكت فهو بالحب وحده يدق وله وحده يعيش .

ولكن هذه الرجفة نمت عن إحساس صادق ، وللمحبين قلوب تحس الخطر قبل أن يقع ، وقد أحست صاحبتنا هذا الخطر فلم يكد جسدها يرتجف تحت تأثيره حتى جاءتها الشواهد عليه فقالت :

هو ذا أخى
يرسل رسولا يعدو على عجل .
وهو ذا الرسول
لم يكد يدخل حتى خرج .
وقد بعث أخى معه يقول :
« إن عائقا يعوقنى » .
ألا نخبرك يا أخى
أن تقول إنك مع امرأة أخرى

تعوق أخوها وأرسل يعتذر ، ولعله كان صادقا ، ولكن هذا الاعتذار وافق ما كان قد شاع فى نفسها من القلق فتمثل لها فى صورة الخيانة ، وحينئذ لذعتها الغيرة بنارها فصاحت تقول :

أنت أنت ذو الوجه الغادر !

لماذا تسحق قلبي بغدرك ؟

وبهذه الصيحة التى تجتمع فيها كل معانى الألم والحب معا تنتهى القصيدة .

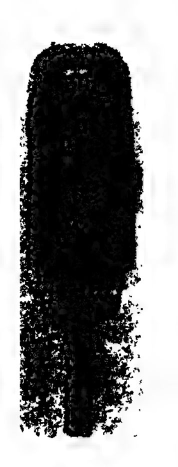
الأزهار والأشجار

وقصيدة أخرى ، لم يقع لنا نصها كاملا ، ولكن وقعت لنا قطع منه ، فنحن ننقل هذه القطع لأن فيها اتجاها جديدا من اتجاهات الشعر الغزلى[1] .

يتخذ الشاعر فى هذه القصيدة من الرياض والأزهار شركاء فى الحب ، يستلهمها أفانين من القول وصورا من الجمال . فهو لذلك يضع فتاته فى روض أغن ، وهذه الفتاة تمشى تداعب الزهر والثمر ، فكلما مرت بزهرة أو ثمرة فيها ما يشبه شيئا من جمالها أشار إلى هذا الشبه .

ثم تنطق الأشجار فتقول إنها هى التى تؤوى تحت خمائلها الحبيبين وتخفى فى ظلال أغصانها المتهدلة ما يتبادلانه من المداعبات .

(١) المصدر هنا هو أيضا كتاب ماسبيرو الذى مر ذكره ثم كتاب « أدب المصريين القدماء » The Literature of the Ancient Egyptians لمؤلفه أدولف إرمان Adolf Erman وقد ترجمه عن الألمانية إلى الإنجليزية أيلوارد م . بلاكمان Aylward M. Blackman .



علبة للطيب أو لمساحيق الزينة مصنوعة على شكل ملعقة

وترى الأشجار أن لها أن تمتن بهذا على الحبيبين وتطلب من أجله رعاية خاصة.

تتكلم واحدة منها فتقول :

بذورى كأسنانها وثمرى كثديها .

أنا خير ما فى البستان وأبقى على مدار الفصول .

فى ظلى تجلس الأخت مع أخيها

وقد ثملا من الشراب

ورش عليهما الزيت العطر .

كل الأشجار فى البستان تذوى

ما خلاى فانى أظل منورة طول العام

وإذا سقط الزهر

فان نَور العام الماضى يكون علىّ

أنا الشجرة الأولى

وباكورة الجميع

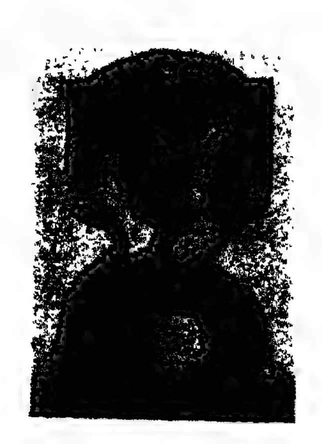
ولا أريد أن أعدّ الثانية .

وإذا تكرر هذا

فسأخرج عن الصمت وأبوح بالسر

فيستبين الغمط

وتؤنب الحبيبة .



علبة للطيب أو لمساحيق الزينة مصنوعة على شكل زهرة اللوتس

وتتكلم شجرة التين فتخاطب الفتاة قائلة :

هل وجدت فى هذا العالم
سـيدة مثلى ؟
إذا لم تكن لك أمة
فانى أمتـك .
لقد جىء بى من بلاد أجنبية
لأكون غنيمة للحبيبة .
وقد زرعتنى الحبيبة فى حديقتها
وليس لى من عمل
غير أن أشرب من ماء الينبوع .

أما شجرة الجميز الصغيرة التى غرستها الفتاة بيدها فانها :

تفتح فمها لتتكلم .
فيكون حفيف أوراقها عذبا كالعسل المصفى .
ما أجمل أغصانها .
أنها موقرة بثمار هى أشد حمرة من حجر الدم[1] .

(١) حجر الدم هو الذى يسمى أيضا حجر اليصب

وأوراقها تشبه حجر الدهنج . وخشبها لونه كلون حجر النشمت[1] .
وهى تجتذب الناس إلى فيئها
لأنه ذو نسيم عليل .

وهنا يمعن الشاعر فى الخيال فيروى أن شجـرة التين هـذه تضع رسالة فى يد بنت صغيرة للبستانى، تعدو بها إلى الحبيبة، فتأخذها هذه وتقرأ :

تعالى واقضى الوقت فى ...[2]
فالحديقة رفافة نضيرة
وفيهـا جواسق لك .
والبستانيون يسرون ويطربون
حين يرونك .
ارسلى العبيد قدامك
ومعهم أدواتهم .
إن المرء ليسكر حين يسرع إليك
من قبل أن يشرب شيئا .
ها هم أولاء الخدم يأتون من عندك بالمواعين
وبالجعة من كل نوع
وبالخبز من كل ضرب
وبأزهار الأمس واليوم
وبكل صنف من الفاكهة المنعشة .
تعالى واقضى اليوم فى حبور
وغدا وبعد غد
ثلاثة أيام كوامل
واجلسى فى ظلى .

---

(١) neshmet أثبت إرمان اسم هذا الحجر كما هو باللغة المصرية فدل بذلك على أنه غير معروف . وقد جرينا نحن على خطته .
(٢) الكلمة هنا مبتورة .



علبة للطيب أو لمساحيق الزينة مصنوعة على شكل عجل

تلقت الأخت هذه الرسالة التى بعثت بها إليها شجرة الجميز، فلم يسعها إلا أن تجيبها ، فجاء الخدم بالمواعين والشراب والطعام والفاكهة والأزهار ، ثم جاءت وجاء الأخ، وجلسا فى ظل الشجرة، فابتهجت هذه وجعلت تقول :

الأخ يجلس على يمينها فتسكره .
وتصغى إلى كل ما يقول .
وقد اضطرب الحفل من السكر .
وبقيت هى مع أخيها .
ضيوفها قد انتشروا حتى
يمشون فى البستان
ويرقدون تحت الأغصان .

هذا مجلس طاب فيه الأكل والشرب وشاعت النشوة بين النسيم والأغصان والأزهار، فانتشر الحفل تحت كل غصن، وفوق كل مرقد، إلا الأخت وأخاها فقد بقيا حيث هما . وقد رأت شجرة الجميز من ذلك كله ما رأت، وسمعت ما سمعت، فماذا تراها فاعلة ؟ أتصون السر أم تفشيه ؟

ستصونه لأنها تنظر إليهم باسمة وتقول :

ولكنى أمينة .
ولا أتكلم بما أرى .
فلن أقول كلمة .

قطع

من قصائد اخرى

وقصائد أخرى وقعت لنا قطع منها أيضا فنذكر ما وقع لنا، بنصه حينا و بمعناه حينا[1]

يقول الفتى :

سبعة أيام لم أر فيها أختى .

فشفنى السقم وثقلت أعضائى

وجاء الأطباء يداوونى فلم تفد أدويتهم

وجاء السحرة فلم يفعلوا شيئا[2] .

و بقيت دخيلة سقمى سرا محجوبا .

ولكن لو أن قائلا قال لى :

« ها هى ذى أختك جاءت »

لبرئت و زالت آثار السقم .

إنها كلما بعثت إلىّ رسولا أحيتنى .

فهى أفعل من الأدوية جميعا

ومن كتب السحر جميعا .

إنها لى تميمة الشفاء لو أنها جاءت .

(١) المصدر هنا كتاب « مصر الفراعنة » (L'Eg. des Pharaons) لإرمان ص ٢٦٨ — ٢٧٠ من الترجمة الفرنسية المطبوعة بباريس فى سنة ١٩٣٩ . وهذا الكتاب هو آخر كتاب لإرمان قبل وفاته . وقد كتبه بلغته الألمانية ثم ترجمه إلى الفرنسية بالعنوان المتقدم ذكره (Henri Wild) .

(٢) كان الاعتقاد فى السحر فاشيا فى ذلك الوقت ، فكان بعضهم يعتقد أن المرض قد يكون ناشئا من علة يداويها الطبيب ، كما قد يكون ناشئا من روح شرير أو من سحر صنعه عدو للمريض ، وهذان يداويهما ، أو بعبارة أخرى يحاربهما ، المتخصص فى السحر بتعاويذه وتمائمه . ولا يزال شىء من هذا باقيا إلى اليوم عند العامة فى مصر وفى كثير من البلدان . ولهذا يقول الشاعر إنه لما شفه السقم جاءه الأطباء ثم جاءه السحرة .

وتقول الفتاة :

ما أسرع دقات قلبي حينما أفكر فى حبك .
إن حبك ليدفعنى إلى الشذوذ عن مألوف الفتيات .
فقد صرت لا أعرف كيف ألبس ثيابى
ولا كيف أنظم مراوحى
ولا كيف أضع الكحل فى عينى
ولا كيف أدهن بالروائح العطرة جسمى .

صاحبتنا هـذه شذت عن مألوف الفتيات فصارت لا تعـرف كيف تلبس ثيابهـا ولا كيف تنظم مراوحها ولا كيف تتكحل ولا كيف تتعطر . وهى فتاة طبعت على العفاف والحياء، فماذا يكون من أمرها، وكيف تعالج هـذا الداء الذى استكن بين جوانحها ؟ ... إنها تتجه إلى قلبها وتهتف :

ألا فاسكن يا قلبي ولا تضطرب
لئلا يقول الناس إنى جننت حبا .
تمـالك نفسك يا قلبي كلما فكرت فيه
واهدأ ولا تدق .

فاذا أنت أصغيت إلى هذا لم يعد يداخلك شك فى أنها ذات حياء يعصمها من التهتك فى الغرام .

على أن هنـاك فتيات أخريات لم يكن مثـل فتاتنا هذه فى القـدرة على كتمان هواهن . فكانت واحدة منهن تقول :

مررت بداره .
فوجدت بابها مفتوحا .
ورأيت أخى بجانب أمه
بين أخوته وأخواته .
كل من مر فى الطريق
ورأى هذا الشاب الجميل

أحبه لأنه ليس له نظير .
لما مررت رنت عينه إلى
فكاد قلبي يطير من الفرح .
لو أن أمي عرفت
ما في قلبي لدخلت .

كانت أمها معها حينما مرت بدار أخيها، فلو أن أمها هذه عرفت ما فى قلبها لدخلت بها، ولكنها لم تعرف فلم تدخل، و إذن فلتتجه الفتاة إلى إلهة الحب تقول لها :

إليك يا « ذهبية »[1]
رسالة منى فاحمليها إليه
قولى له إننى سأذهب إليه
وسأعانقه أمام زملائه
ولن أخجل من ذلك أمام أحد
بل سأبتهج إذ أسمع الناس
يقولون إنك تعرفنى .
لو أن إلهتى[2] هيأت لى
أن أراك اليوم لأقمت عيدا .

هذا لون من حب الفتاة يختلف عن اللون الذى رأيناه فى تلك التى تخاف من أن يعلم الناس أنها جنت حبا، فتطلب إلى قلبها أن يطوى ما فيه . وفى هذا اللون الجديد تطلق الفتاة العنان لعواطفها فتقول إنها ستذهب إلى أخيها، وستعانقه أمام زملائه، ولن تخجل من ذلك، بل ستبتهج إذ تسمع النـاس يقولون إنه يعرفها . والناس فى الهوى مذاهب، ومنهم من يرون أنه لا يصلح إلا بالتدله والاستهتار، ولكن الاستهتار قد يقبل من الفتى وقل أن يقبل من الفتاة .

(١) كانت الإلهة هاتور أو حاتحور إلهة الحب والجمال، وكان من ألقابها « ذهبية » وكانت حينئذ ترسم فى شكل عقد ذهبى .

(٢) المقصود بقولها « إلهتى » الإلهة « ذهبية » أو هاتور التى تقدم ذكرها .



كرسى من الخشب الموشى بالذهب وجد فى قبر « يو يا » والد الملكة « تى يى » زوجة الملك امينوفيس (امنحتب) الثالث

وتستمر فتاتنا فتقول :

لقد سحر صوته قلبي
وأسلمنى إلى السقام .
إنه جار لبيت أمى
ولكنى لا أستطيع زيارته .
ألا إنه لأحمق
وإننى لحمقاء مثله .
أفلا يعلم أنى أحب أن أعانقه .
رب لماذا لم يكتب لأمى .
إننى لك يا أخى .

وقد جعلتنى «الذهبية»
وقفا عليــــك .
تعال لأشاهد جمالك
فسيبتهج بك أبى وأمى .
وسيفرح بك الرجال (١) جميعا .

وكان الشعراء يصفون وقوع الفتى فى شرك الحب فيقولون :

لقد أسرته فكانت شعورها الحبال التى طوقته بهـا ، وعيناها المقود الذى قاده إليها ، وعقدها الرباط الذى ربطه عندها ، وخاتمها الطابع الذى طبعه لها .

صفات الجمال

فى المـــرأة

لم يقع لنا فى صفات الجمال فى المرأة غير كلمات من قصيدة أو قصائد ، تقول :

شعر أشد سوادا من الظلام .
وثنايا أشد بياضا من شرر الحجر الصوان .
وقامة ممشوقة .
وصدر ممتلئ .
ونهدان قائمـان .

وهــذه الأوصاف تدلنـا على ما كان المصريون يحبونه فى المرأة . فهـم كانوا يحبون الشــعر الأسود وكانوا يشبهونه بظلام الليل . وحب الشــعر الأسود منتشر فى أكثر البــلاد الشرقية ، وتشبيهه بالليــل المظلم جرى على ألسنة الشــعراء العرب قديما وحديثا .

(١) كلمة « الرجال » هنا ربمـا كان المقصود بها رجال أسرة الفتاة .

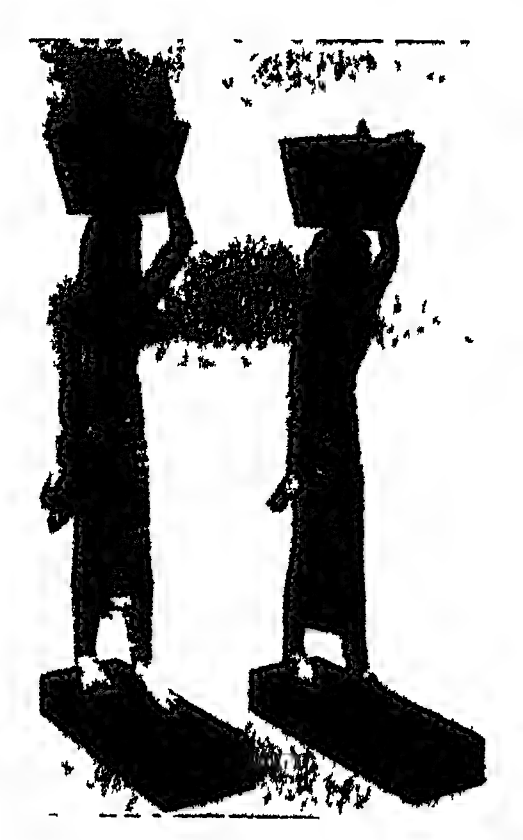
وكان المصريون يحبون فى الثنايا بياضها الناصع ، ولا يزال هذا البياض محبوبا إلى اليوم . وكانوا يشبهونه بالشرر الذى يتطاير من الحجر الصوان لأن هذا الحجر كان عندهم كثير الاستعمال .

ويقرب من تشبيه بياض الثنايا بالشرر المتطاير من الحجر الصوان، تشبيه هذا البياض نفسه بالبريق المتطاير من السيوف فى قول عنترة :

وودت تقبيل السيوف لأنها * لمعت كبارق ثغــرك المتبسم



الكاهنة المقدسة «امير يتس» (Amneritis) وهى بنت الملك «كاشتا» وأخت الملك «شاكا» وفى تمثالها يظهر الجسم غير المكتنز والملابس الصيقة



تمثالان لفتاتين تحملان قرابين . وفيهما أيضا يرى الجسم غير المكتنز والملابس الصيقة

وكان المصريون يحبون القامة الممشوقة لا القامة العبلة المكتنزة . وأثر هـذا الحب يظهر فى أشعارهم كما يظهر فى الرسوم والنقوش التى تركوها . والقامة الممشوقة هى التى تحب اليوم فى مصر وأوربا .

وكانوا يحبون الصدر الممتلئ، والنهدين القائمين، وهى لا تزال محبوبة .

وكان من أوصاف الجمـال فى المرأة عندهم أن يكون عنقها ممـدودا ، ونحرها ناصع البياض، وأن تكون أصابعها كعيدان زهر اللوتس، ولا تزال هذه الأوصاف معدودة من الجمـال .

المجتمع المصرى

الذى خرج منه هـذا الغزل

نظن أن القارئ قد آمن الآن بأن مصر القديمة كان لهـا أدب، وأن من هذا الأدب غزلا . فيحسن بعـد ذلك أن نقول كلمة فى المجتمع الذى خرج منه هـذا الغـزل ، وهو فيما يرجح مجتمع عصور الأسرة الثانيـة عشرة ، ثم الثامنـة عشرة ، وما بعدها بقليل .

وقد أشرنا إلى هـذا المجتمع فى المجلد الأول[1] وذكرنا كلمة كتبها فيـه ويجل (Arthur Weigall) فنعيد هنا هذه الكلمة لأنها خير وصف له . قال ويجل :

«كانت الحياة فى ذلك العصر ناعمة بالغة حدا بعيدا من التأنق، حتى ليدهشنا ما نراه فيها من أوجه الشبه بالحياة فى عصرنا هذا الحاضر . فقد كان أهل الطبقات العليا ينامون على أسرة ذات أغطية ووسائد محشوة بالريش تشبه أغطيتنا ووسائدنا فى هذا العصر شبها كبيرا . وكانوا يجلسون مثلنا على كراسى محشوة بالشعر . وكانت الغرف تضاء بمصابيح زيتية تعكس ضوءها حيطان مكسوة بالمرمر الأبيض الشفاف . وكان النساء يضعن الدهان الأحمر فى شفاههن وخدودهن . وكن يتكحلن بالكحل الأسود ... ... وكان من المألوف

(١) ص ١٨ و ١٩

أن يعنى الرجال والنساء عناية خاصــة بأظافر أيديهم وأقدامهم ثم تسويتها[(١)] ... ... وكانوا يلبسون قفازات حين يخرجون من بيوتهم . وكانوا إذا شــعروا بالظمأ فى وقت الحر تناولوا مرطبات بواسطة غابة فارغة الجوف كغابة القش التى نشرب بها نحن الآن . وكانوا إذا عادوا إلى بيوتهم غسلوا أيديهم فى أحواض وأباريق كالتى نستعملها فى عصرنا هذا .

وفى الحفلات كان نافخون ينفخون فى نقر طويلة من الفضة . أما المدعوون فكانوا يتمتعون بمشاهدة الرقص وسمــاع الغناء والإصغاء إلى موســيقات مؤلفة من قيثارات ونايات ونقارات وساجات وطبول . وكانت لهم ألعاب يتســلى بها الرجال والنساء فى البيوت منها الضامة والزهر وألعاب أخرى من ألعاب الاجتماعات الخاصة .

تلك أمثلة قليــلة ذكرناها هنا اتفاقا ، ومن غير أن نفرد للموضوع بحثا خاصا ، وهى تكفى لإظهار أن المصريين فى ذلك العصر لم يكونوا على الطباع الغريبــة التى نسبها إليهم بعض الكتاب . نعم إنهم كانوا بمــا يضعونه على رءوسهم من الشعور المستعارة ، وبمــا كانوا يلبسونه من الملابس المختلفة المتداخلة ، ثم بمــا كانوا يأخذون به أنفسهم من الآداب والتقاليد الجمة ، نعم إنهم بهذا كله يظهرون أمام أعيننا (يريد أعين الأوربيين) عنــد النظرة الأولى غرباء عنا ، كأنهم صينيون أو يابانيون من أهل الجيــل الغابر ، ولكن النظرة الفاحصة تنطق بأن عاداتهم قريبة كل القرب من عقلنا الغربى ، وأن أفكارهم متصلة بأفكارنا » إلى حد بعيد فى بعض الأحيان » .

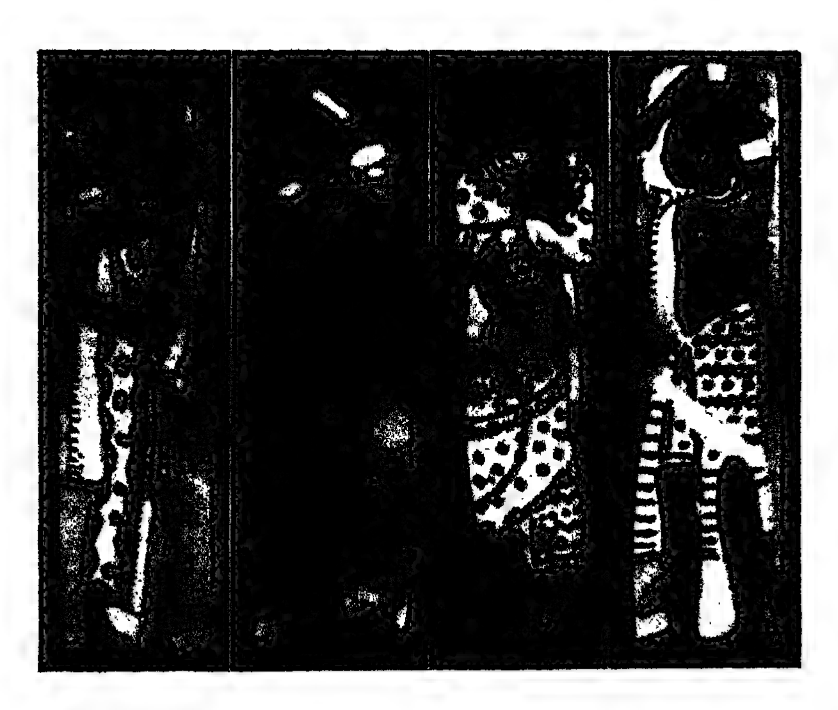
وقد أطلنا فى هذا الاقتباس لاعتقادنا أننا لم نخرج فيه عن الموضوع ، وذلك أن أدب كل أمة صورة منتزعة من حضارتها ومما وصل إليه مجتمعها من الأخلاق والعادات . فاذا أريد فهم الأدب فهما كاملا وجب أن ترسم إلى جانبه صــورة المجتمــع .

ونضيف نحن إلى هــذه الصورة التى رسمها ويجــل للمجتمع المصرى فى عصر الأسرة الثــامنة عشرة أن نســاء الطبقة الراقية كن يلبسن ملابس فاخرة من الكتان

---

(١) هذه العناية بأظافر الأيدى والأقدام هى مايسميه الأوربيون الآن (manicure,pedicure) قــد دلت آثار الدولة القديمة على أنــ المصريين كانوا فى عهدها يعرفون هــذه العناية بأظافر الأيدى والأقــدام .

لوحـــة رقـــم ٥)



أربع لوحات مطعمة بالميناء فى قصر رمسيس الثالث بمدينة هابو
(فى متحف القـاهرة)



صندوق أو خزانة وجدت فى قبر « يو يا » والد الملكة « تى يى »
زوجة الملك امينوفيس (امنحتب) الثالث

الدقيق الصنع . وكن يملن فى الغالب إلى أن تكون ملابسهن منسجمة على أجسادهن ، غير فضفاضة ، كما هى « موضة » السيدات فى أوربا وفى مصر فى الوقت الحاضر . وملابس كهذه تكاد تتبع ما فى الجسم من التعاريج ، فتبرز للعين ما فيه من آيات الجمال .

وكانت الملابس خفيفة لأن جو مصر يقضى بأن تكون كذلك . وكان للنساء غرام بالنوع الذى يعرف الآن باسم « پليسى » Plissé أى المثنّى ، وهو نوع من الملابس يجعل ثنايا متساوية منتظمة من وسط الجسم إلى أسفله ، ثم تكوى هذه الثنايا فيكون منظرها آخذا بالألباب .

ولم تكن النساء متحجبات ، بل كن يغشين المجتمعات سافرات ، فترك ذلك أثره فى صقل العواطف والأخلاق .

نظـرة عامة

فى الغــزل المصــرى

ونقول بعد ذلك كلمتنا فى الغزل المصرى الذى قدمنا أمثلة منه .

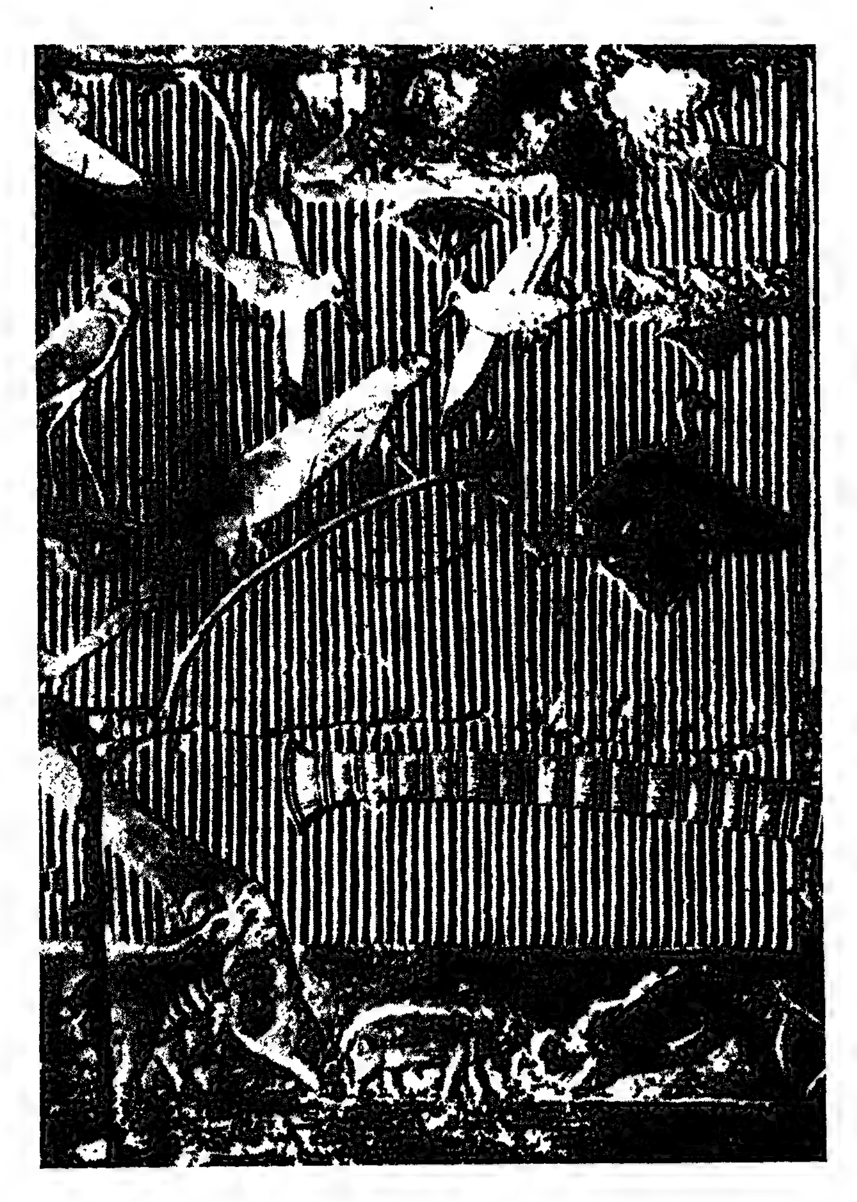
فأول ما يلاحظ فى هـذا الغزل أن الشـاعر يلتزم فى أكثره موضـوعا واحدا يسوقه فى ما يشبه مساق القصة . فالفتى الذى يتمنى الأمانى لكى يرى حبيبته، يظل يتنقل من أمنية إلى أخرى، ثم يضرع إلى الإله بتاح أن يهيئ له رؤيتها، فيجيب الإله ضراعته وتأتى الحبيبة فيعانقها وتعانقه .

والفتاة التى تخرج إلى الصيد تنصب فخها فيقع فيـه أول طير من طيور بونت المعطرة، ولكنها تسهو عنه لانصرافها إلى التفكير فى حبيبها، فيتملص الطير وينجو، ثم ترى الفتاة أنها لن تصيد شيئا ، فتجمع فخها وأدوات صـيدها لتعود إلى أمها ، ولكنها تعود خالية اليدين لأن الحب لم يدع لهـا سبيلا إلى الصـيد، وهى حينئذ تكشف عما فى أعماق قلبها فتقول إن أقصى ماتتمناه هو الزواج .

والفتاة التى توقظها القمرية تقول إنها لا تخرج لأنها وجدت حبيبها فى سريره، وقد قال لها هذا الحبيب إنه لن يتركها، وسيتريض معها فى كل مكان من أمكنة البهجة والسرور، وقد جعلها بذلك أسعد فتاة فى العالم .

ومثل ذلك القصائد الأخرى . فهى كلها موضوعات متماسكة حتى لكأنها تساق مساق القصة، لا موضوعات مختلفة تشتمل عليها القصيدة الواحدة . ولا أريد هنا أن أفاضل بين هذا النوع من الشعر، والنوع الآخر الذى تكون القصيدة فيه موضوعات عدّة، بل قد يكون كل بيت فيها موضوعا قائما بذاته، يختلف عما سبقه وما يتلوه، وإن يكن يجمعها كلها أنها غزل وصبابة، لا أفاضل هنا بين هذا النوع وذاك، لأن هذه المفاضلة خارجة عن غرضى، ولكنى أسجل صفة أراها فى الغزل المصرى، وكفى .

(لوحـــة رقـــم ٦)



طيور وحيوانات فى بركة يزدحم فيها نبات البردى .
وقد وجدت هذه الصورة فى قبر من قبور الدولة القديمة

وصفة ثانية فى الغزل المصرى هى أنه يبدو طبيعيا لا تكلف فيه ولا مبالغة . فهو لا يصف نحول المحب فيقول :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل * لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ولا يصف رقة جسم الحبيب فيقول .

خطرات النسيم تجرح خديـ * ـه ولمس الحرير يدمى بنانه

ولكنه يسلك مسلك الحقيقة فى الوصف وفى التعبير عن العاطفة ، من غير إفراط فى الألفاظ ، ولا مبالغة فى المعنى ، وهو مع ذلك يصل إلى إجادة الوصف وإثارة العاطفة .

ولعل الذى أثر فى الغزل المصرى هذا التأثير ، هو أن المصريين كانوا يحبون الطبيعة ، وقد تركوا لنا من مناظرها فى قبورهم ما لا مثيل له عند أية أمة أخرى . فحب الطبيعة كان صفة بارزة فى فنونهم وفى ملاهيهم . والطبيعة هى الحقيقة بلا مبالغة ولا تزويق .

وصفة ثالثة هى استنطاق الأزهار والأشجار وجعلها تتحدث حديث الحب والجمال، وتصف ما يقع تحت غصونها وخمائلها من لقاء المحبين وعناق المتعانقين . وقد مرت قصيدة تحدثت فيها الأزهار والأشجار، وفى الأدب المصرى قصائد أخرى من هذا الضرب، وقصص تتحدث فيها الطيور والحيوانات ، فهو فيما نعرف أول أدب سن هذه السنة .

ويقول ماسپيرو ، وهو من الذين عالجوا ترجمة الأشعار الغزلية ، إن النظر فى هذه الأشعار يدل بسهولة على أن أصحابها عنوا فيها بانتقاء الكلمات والتعبيرات . وفى بعض هذه القصائد يبتدئ الشاعر باسم زهرة ، ثم يردّده فى كثير من أبياته ، كأنه يريد أن ينتزع منه معانى مختلفة يصف بها حبيبته، وكأنه يعتمد فى انتزاع هذه المعانى على مقاطع الكلمة ووقعها فى الأذن . قال ماسپيرو : « ولكن هذا الضرب من الافتنان فى الكلمات لا يمكن أن يترجم إلى أية لغة من اللغات » .

نقول نحن وهذا يكاد يذكرنا بقول الشاعر العربى :

طرقت الباب حتى كل متنى * فلما كل متنى كلمتنى

فقالت لى أيا اسماعيل صبرا * فقلت لها أيا اسما، عيل صبرى

غير أن هذا الشاعر العربى يتلاعب باسمين من أسماء الأعلام هما أسما وإسماعيل ، أما الشعراء المصريون فكانوا يتلاعبون فى أشعارهم الغزلية بأسماء الأزهار .

وقد كان المظنون إلى زمن قريب أن الهند أوّل بلاد أدخلت كلام الطيور والحيوانات والنباتات فى الأدب، وأن كتاب «كليلة ودمنة» الذى عربه ابن المقفع دليل على ذلك . فالآن يتضح أن هذا الظن غير صحيح ، وأن مصر أقدم من الهند فى استنطاق الطير والحيوان والنبات، فهى صاحبة الفضل الأوّل فيه .

حق الأم
على ولدها

نطرق بعد ذلك بابا من أبواب الأدب يرينا المنزلة التى كان المصريون يضعون فيها الأم من ولدها، والوصايا التى كانوا يوصون بها هذا الولد . كتب فى ذلك حكيم مصرى يسمى «آنى»[1] فقال :

« ضاعف الخبز لأمك . واحملها كما حملتك .

لقد حملتك على كتفها بعد ولادتك بأشهر، وبقى ثديها فى فمك ثلاث سنوات .

إنها لم تتأذ قط من فضلاتك ، ولم تتساءل قط لماذا تشغل نفسها بهذه الفضلات .

---

(١) عاش هذا الحكيم فى عصور الدولة الحديثة .

وقد ساقتك إلى المدرسة ، ثم لما تعلمت الكتابة وقفت بجانبك كل يوم تقدم لك من عندها خبزا وجعة .

فاذا ما كبرت وتزوجت وصار لك بيت تقوم عليه فتذكر دائما أن أمك هى التى ولدتك .

وليكن من حظك ألا تجد أمك هذه ما يحملها على لومك ، ولا على أن ترفع يدها إلى الله شاكية »

هذه الكلمات تنطق بمقدار ما كان المصريون يدخرونه للأم من احترام وتبجيل . ولا عجب فقد قدمنا أن المرأة المصرية كانت تتمتع باحترام فى الحقوق وفى المجتمع دهش له اليونانيون حينما زاروا مصر ، ولم يكن له شبيه فى بلد آخر . فأحر بالأم أن يكون لها من هذا الاحترام أوسعه وأسماه .

وتذكرنا كلمة « آنى » هذه بكلمة لامرأة أبى الأسود الدؤلى ، إذ تحاكمت هى وزوجها إلى معاوية بن أبى سفيان فى ابنها ، فقالت : « إن بطنى لوعاؤه وإن ثديى لسقاؤه وإنى حجرى لفناؤه » .

ثم قالت شعرا :

كان ثديى سقاءه حين يضحى * ثم حجرى فناءه بالأصيل

وكلمة « آنى » أوسع من كلمة امرأة أبى الأسود ، فقد اقتصرت هذه على أن تذكر فضل الأم فى البطن والثدى والحجر ، أما « آنى » فقد زاد على ذلك فضل الأم فى مسحها فضلات ابنها من غير أن تتأذى ولا أن تتساءل فى يوم ما لماذا تشغل نفسها بها . ثم فضلها فى سوق ابنها إلى المدرسة وفى تغذيته بعد أن صار صبيا . ثم تذكير الولد حينما يكبر ويتزوج ويصير صاحب بيت بأن أمه هى التى ولدته وربته . ثم الدعاء للولد بألا تجد أمه ما يحملها على لومه ولا على أن ترفع يدها إلى الله شاكية .

ويرى من كلمة « آنى » أن مدة الرضاعة كانت ثلاث سنوات ، والمعروف الآن أنها فى الغالب سنتان .

زوج يقاضي

زوجته بعد موتها إلى الآلهة

ماتت زوجة، ومضت على موتها ثلاث سنوات، فلم ينسها زوجها ولم يفارقه خيالها . وكان هذا الخيال يتراءى له فى أحلامه فيزعجه ، وذات مرة تراءى له رافعا يده فى وجهه كأنما يهم بضربه . وكان تفكيره المستمر فيها وفى خيالها يبعث الاضطراب فى نفسه ، فظنها تضطهده ، فكتب يشكوها إلى الآلهة ، و يطلب أن يتقاضى معها إليهم . قال :

لماذا تؤذينى حتى صرت فى الحالة التعسة التى أنا فيها .

ماذا فعلت ، وكيف ترفعين يدك على وأنا لم أسىء إليك قط .

لأقاضينك أمام آلهة الغرب (١) التسعة لتحكم بينى و بينك .

ماذا فعلت مما يوجب استياءك منى .

لقد تزوجتك وأنا حديث السن فعشت بجانبك .

ثم شغلت مناصب فى جهات أخرى فلم أهملك ولم أدخل على قلبك شيئا من الألم .

انظرى ! لقد صرت بعد ذلك ضابطا فى جيش فرعون بين ضباط العربات الحربية (٢) .

فكنت أقدم بها إليك ، وأحمل إليك فيها هدايا طيبة .

ولم أخف عنك شيئا طول حياتك .

ولم يستطع أحد أن يقول فى وقت من الأوقات إنى أسىء معاملتك .

كلا ، ولم يستطع أحد أن يقول إنى بعد الطلاق دخلت بيتا آخر (٣) .

وحينا ألزمت بالبقاء فى المكان الذى أنا فيه الآن ، وكان مستحيلا على أن أعود إليك

بعثت إليك بزيتى (٤) وخبزى وملابسى .

ولم يحدث قط أن أرسلت مثل ذلك إلى غيرك .

---

(١) آلهة الغرب هم آلهة الموت وهم أوزريس وتسيعه . (٢) كانت العربات الحربية المصرية فى ذلك الوقت ذات شهرة كبيرة فى الحروب . (٣) يرى من هذه الكلمات أن طلاقا كان قد وقع بين الرجل وزوجته قبل موتها . أما قوله إنه لم يدخل بيتا آخر فمعناه أنه لم يتزوج بعد طلاقها منه . لأن الزواج كان يعبر عنه بدخول البيت . (٤) كان من عادة المصريين أن يتطيبوا بزيت خاص ذى رائحة طيبة .

ثم لما مرضت أرسلت إليك طبيبا صنع لك الأدوية وكان طوع أمرك فى كل ما تطلبين .
ولما وجب أن أرافق فرعون إلى الجنوب كان عندك قلبى .
وقد بقيت ثمانية أشهر دائم الفكر قليل الأكل قليل الشرب .
وبعد موتك سرت إلى ممفيس ورجوت من فرعون أن يأذن لى فى العودة إليك .
ثم بكيتك طويلا أنا ورجالى أمام بيتى .
وقدمت كثيرا من الملابس والأقمشة لفائف لجثمانك .
انظرى ! لقد مضت على الآن ثلاث سنوات وأنا وحيد لم أدخل بيتا آخر [١] .
أما أخواتى اللواتى فى بيتى فانى لم أدخل عند واحدة منهن [٢] » .



هذه القطعة لا تعطينا صورة جديدة من صور الأدب فقط ، بل تعطينا إلى جانب ذلك ضوءا نستطيع أن نصل به إلى داخل الأسرة ونعرف كيف كانت العلاقات الزوجية .

فهذا الزوج يقول متحدثا بفضائله إنه لم يسىء إلى زوجته قط ، ولم يفكر فى غيرها ، ولم يبن بزوجة أخرى حتى بعد طلاقها منه . ومن هذا يؤخذ أن اجتناب تعدد الزوجات كان فضيلة تستحق أن يتحدث بها صاحبها [٣] . والواقع أن الاقتصار على زوجة واحدة كان من العادات المألوفة عند الشعب ، ولكن كان من المألوف أيضا عند الطبقات الغنية أن تكون لهم نساء كثيرات ، على أن يبقى لقب الزوجة لواحدة منهن ، ومثل ذلك الملك . ولهذا قل أن نجد ملكا أو أميرا أو غنيا صور فى قبره ومعه أكثر من زوجة واحدة . والمقابر التى صور فيها رجل ومعه زوجتان أو أكثر قليلة تعد على الأصابع .

---

(١) تقدم أن معنى «لم أدخل بيتا آخر» أنه لم يتزوج امرأة أخرى . (٢) تقدم أن الحبيبة كانت تسمى أختا . (٣) قال هيرودوت ، بعد أن تكلم على بعض عادات المصريين ، فى الفقرة ٩٢ :
« جميع العادات التى أشرنا إليها سابقا مرعية عند المصريين الذين يقيمون فى المناطق الواقعة بعيدا عن المستنقعات . أما الذين يقيمون فى مناطق المستنقعات (أى فى شمالى الدلتا) فانهم يتبعون على العموم عادات غيرهم من المصريين ، وعلى الخصوص عاداتهم فى المعيشة مع زوجة واحدة كما يفعل اليونانيون » .

وبعد أن وقع الطلاق بين صاحبنا وزوجته لم ينسها، بل أرسل إليها الطبيب لما علم بمرضها، وكان يرسل إليها الزيت والخبز والملابس. ثم لما ماتت استأذن فرعون فى أن يعود إليها ليبكيها ويدفنها، وقد بكاها طويلا وقدم لها كثيرا من الملابس والأقمشة لفائف لجثمانها، ومكث بعد ذلك ثلاث سنوات لم يتزوّج .

ولكل إنسان أن يتساءل هل موضوع هذه القطعة قائم على شعور نفسى أراد الزوج أن يعبر به عن خواطر تخالجه ، أو قائم على اعتقاده أن الخيال الذى يزعجه ليلا ونهارا هو روح زوجته يلاحقه ويضطهده بغير حق فخير وسيلة لإبعاده أن يحاكم معه إلى آلهة الموت على النحو الذى فعله لتنتصف له منه وتطرده عنه . ويميل العلماء الذين كتبوا فى هذا الموضوع إلى هذا الفرض الأخير . ونقول نحن إن شيئا يشبه هذا الاعتقاد، من قريب أو بعيد، وجد عند كل أمة، وهو موجود بين عامتنا إلى اليوم .

***

ومن الرسائل الأدبية الجليلة القيمة رسالة وضعها حكيم يسمى « بتاح حوتب » فى عهد الأسرة الخامسة فى شكل مواعظ[1] ووصايا استخلصها من تجاربه فى الحياة ووجه الخطاب فيها إلى ابنه، وقد عرض فيها للعلاقة الزوجية فقال :

« إذا كنت قد بلغت شأوا فى عملك فعمر بيتك ، وأحب زوجتك ، وأشبعها ، واكسها ، ووفر لها الطيوب والعطور، وأفرح قلبها ما دامت على قيد الحياة فإنها حقل طيب لسيدها » .

والمراد بقوله « سيدها » هنا زوجها . وهو يشبه المرأة بالحقل ، ووجه الشبه أن المرأة محل الإخصاب كما هو الحقل . وهذا التشبيه موجود فى الأدب العربى، وقد أشار إليه القرآن الكريم فى قوله « نساؤكم حرث لكم » .

---

(١) سيأتى فى باب « الأدب » تلخيص لهذه المواعظ .

والحكيم آنى الذى تقـدّم أنه عاش فى عصور الدولة الحـديثة، كتب أيضا وصايا ومواعظ، عرض فيها للزوجة فقال :

« لن لزوجتك ولا تكن فظا معها إذا كنت تعرف أنها طيبة . ولا تقل لها « أين هـذا؟ هاتِه » إذا كانت قد وضعته فى موضعه . أنظر بعينك وأنت صامت لتعرف أعمالها الطيبة . إنها تكون سعيدة حين تكون يدك معها ... وبهذا يجتنب الرجل إثارة النزاع فى بيته » .

ثم قال :

« اتخذ لنفسك زوجة وأنت شاب لتهبك ابنا . ينبغى أن يكون لك ابن فى شبابك لتحيا حتى تراه صار رجلا . ما أسعد الرجل ذا الأهل الكثيرين، والمحترم من أجل أولاده » .

أغنية شاعر

يذكر الموت ويدعو إلى التمتع بالحياة

وجدت هـذه الأغنية فى قـبر « انتف » أحد الملوك الذين أسسوا الأسرة الحادية عشرة فى نحو سـنة ٢٢٠٠ ق م . وكانت تغنى على نغمات الموسيقا . وقد نقلهـا ماسبيرو إلى اللغـة الفرنسية فى سـنة ١٨٧٩ فى الجـزء الأول من كتابه (Etudes Egyptiennes) ونقلها إلى الألمـانية إرمان فى سنة ١٨٩٦ ثم ماكس مولر إلى الألمـانية أيضا بعـد ذلك . وفى سنة ١٩٠٥ نقلها برستيد إلى الانجليزية فى الجزء الأول من كتابه (A History of Egypt) . وأخيرا هذبها ونقلها إلى الفرنسـية مرة أخرى مورى فى كتابه (Le Nil et la Civilisation) ص ٢٦٠ فعلى ترجمتى مورى و برستيد نعتمد هنا .

يقول الضارب على « الهارب » فى ترجمة مورى :

« منذ الأسلاف تذهب الأجسام وتحل محلها أجسام أخرى .

والآلهة (١) الذين عاشوا من قبل يناموان فى أهرامهم .

---

(١) يراد بالآلهة هنا الملوك لأنهم كانوا يعبدون كالآلهة .

والنبلاء والعظماء، هم أيضا مكفنون فى قبورهم .

وقد شيدوا جميعا بيوتا فلم يبق لها وجود .

فليت شعرى ماذا جرى لهم ؟

لقد سمعت أقوال ايمحتب وحاردودف[1] اللذين يتناقل الكل حكمهما فأين مكانهما الآن .

لقد تهدمت بيوتهما وزال كل أثرلها كأنهما لم يوجدا .

ليس من يعود إلينا من الدار الآخرة ليقول لنا ماذا بها، ولا ما الذى هم محتاجون إليه فيها .

ليس من يعود إلينا ليطمئن قلوبنا إلى أن تحين الساعة التى تمضى فيها نحن أيضا إلى حيث مضى الآخرون

إذن فاطرب، واعمل ما ترغب فيه ما دمت حيا .

اقض ما أنت محتاج إليه على الأرض، ولا تكدر قلبك إلى أن يجىء يوم البكاء عليك .

إن الإله ذا القلب الساكن[2] لا يسمع البكاء .

والضراعات لا تنقذ من القبر أحدا .

فانظر[3]، اطرب فى يومك ولا تحمل هما .

انظر، ليس من يأخذ أمواله معه .

انظر، ليس من يعود بعد أن مضى .

أما فى ترجمة برستيد (ص ٢١٠ من الترجمة الفرنسية لكتابه) فالأغنية تبتدئ كما يأتى :

« ما أسعد هذا الأمير (أو الملك) الطيب .

لقد تم له الحظ الذى تتوق النفوس إليه .

منذ الأسلاف ... ... »

ثم تستمر الأغنية كما هى عند مورى إلى قول الشاعر :

« ليس من يعود إلينا ليطمئن قلوبنا إلى أن تحين الساعة التى تمضى فيها نحن أيضا إلى حيث مضى الآخرون » .

وبعد ذلك يقول الشاعر :

« إذن فقل لقلبك انس هذا كله .

وتمتع بما تحبه ما دمت حيا .

---

(١) ايمحتب وحارديدف هما من الشخصيات البارزة فى عهد الأسرة الرابعة .

(٢) المراد به أوزريس إله الموتى .

(٣) كلمة « انظر » هذه أو « تأمل » كانت من الصيغ المألوف ترديدها فى الكتابة على مثل هذا النحو فى ذلك العهد .

وتوج رأسك بالريحان .

واكس نفسك بالدقيق من الكتّان .

وادهن جسمك بالروائح الجميلة النادرة

التي تبدو كأنها أعدّت للآلهة .

لاتدع الحزن يدخل قلبك .

وافعل ماترغب فيه وما يسرك .

واجعل أعمالك فى هذه الأرض

وفقا لمتمنيات قلبك

إلى أن يأتى اليوم الذى تموت فيه .

فحينئذ لا يخفق قلبك

ولا تستطيع أن تسمع البكاء عليك .

إن البكاء لم يردّ قط أحدا من قبره .

فاحتفل باليوم السعيد .

واطرب ولا تتردّد .

فليس من يأخذ معه أشياءه التى يحبها .

وليس من يعود بعد أن مضى .



ضارب على «الهارب» يضرب أمام الملك رمسيس الثالث

ولبرستيد ترجمة أخرى لهذا النشيد أثبتها فى كتابه (Dawn of Conscience) « فجر الضمير » ص ١٦٣ وعربها سليم حسن بك فى ص ٤٢٥ من الجزء الأول من كتابه « مصر القديمة » فننقلها هنا عنه وهى :

« ما أسعد هذا الأمير الطيب ، والمقدر الجميل قد وقع[1] ، تذهب أجسام وتبقى أخرى منذ عهد الذين كانوا من قبلنا . والآلهة الذين وجدوا فى الزمن الغابر راقدون فى أهرامهم ، والأشراف قد دفنوا فى أهرامهم كذلك .

والذين بنوا بيوتا قد أصبحت مساكنهم كأن لم تكن ، فماذا جرى لهم ؟

لقد سمعت أحاديث « أمحوتب » و « حاردودف »[2] اللذين يتحدث بكلماتهما فى كل مكان — فما هى مساكنهما (الآن) ؟ جدرانها دمرت ومساكنهما لا وجود لها كأن لم تكن قط .

ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا كيف حال من قبلنا ويخبرنا عما يحتاجون إليه لتطمئن قلوبنا قبل أن نذهب نحن كذلك إلى المكان الذى ذهبوا إليه .

كن فرحا حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوما بموتك . فمتع نفسك ما دمت حيا ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، ودلك نفسك بالروائح الزكية المقدسة .

وزد كثيرا فى المسرات التى تملكها ولا تجعل قلبك يكتئب . اتبع رغباتك وافعل الخير لنفسك . افعل ما تميل إليه على الأرض ولا تغضبن قلبك حتى يأتى يوم نعيك . ومع ذلك فان صاحب « القلب الساكن » لا يسمع عويلهم وإن الصياح لا ينجى إنسانا من العالم السفلى .

اقض اليوم فى سعادة ولا تجهدن نفسك . اصغ ، لا يمكن أحدا أن يأخذ متاعه معه . اصغ ، وليس فى قدرة إنسان قد ولى أن يعود ثانية » .

هذه هى الأغنية كما وجدت فى قبر الملك أنتف . ولم يعرف من هو الشاعر أو الكاتب الذى وضعها ، لأنه لم يكن من مألوف المصريين أن يذكروا اسم كاتب أو شاعر أو نحات أو بناء ، إلا فى القليل النادر .

وقد وجدت هذه الأغنية بعد ذلك منقوشة فى قبر كاهن يسمى « نوفريت حوتبو » ولكن فى ألفاظ أوسع . ويرى ماسبيرو[3] أن الأغنية الأولى كانت أصلا استخدمه

---

(١) الموت . (٢) علق سليم حسن بك على هذين الاسمين فقال إن أولهما كان من أشهر الحكماء وكان يعتبر ابن بتاح أما الثانى فكان يعتبر ابن الملك خوفو .

(٣) ص ١٨٤ من كتابه (Etudes Egyptiennes) .

صاحب الأغنية الثانية فوسعه وزاد عليه . وهـذا يحدو بنا إلى الظن بأن الشعراء المصريين كانوا يعرفون شيئا يشبه مايسمى الآن فى الشعر العربى التشطير والتخميس .

ولم توجد هذه الأغنية فى قبر « نوفريت حوتبو » فقط ، بل وجدت بعد ذلك أيضا على نصب تذكارى لسيدة توفيت فى الاسكندرية فى عهد الملكة كليوبطرة[(١)] ، فى ألفاظ أوسع أيضا مما وجدت بها فى قبر « نوفريت حوتبو » .

* * *

وللنص الذى وجد فى قبر « نوفريت حوتبو » ميزة خاصة هى أنه لم يوجد وحده بل وجد مع ثلاثة أناشيد ، الأول تقوله بنت لنوفريت حوتبو والثانى تقوله بنت له ثانية والثالث يقوله صاحب قيثارة قاعد بجانب البنتين . أما الرابع وهو الذى تقدم ذكره فيقوله صاحب قيثارة آخر قاعد فى جانب وحده .

وقد تلف نشيدا البنتين فلم يبق منهما ما يمكن أن تتألف منه عبارات منسجمة ، ولكن الكلمات الباقية تدل على أن النشيدين لا يزيدان على مدائح ودعوات توجهها البنتان إلى أبيهما فى الصيغ التى كانت توجه فيها إذ ذاك المدائح والدعوات إلى الكهنة .

أما نشيد صاحب القيثارة الجالس بجانب البنتين فقد ترجم إلى اللغات الحية ، والجزء الأعظم منـه مدائح دينية وخلقية وأدبية ، ولكنه يشتمل على فكرة خارجة عن هذه المدائح يقول المنشد فيها[(٢)] :

« ... وأنت يامن تأتى فيما بعد وتقرأ هذه الأغانى التى تملأ القبور من طرف إلى طرف ثم تتساءل :

« العظمة على الأرض ما هى ؟ والاضمحلال فى القبر لماذا ؟ » .

ألا فاعلم أنهما التشبه بمن هو حى أبدا ، عادل لا يخدع أحدا ، حى يمقت تعكير الصفاء .

---

(١) هذا النصب موجود الآن فى المتحف البريطانى .

(٢) اعتمدنا فى هـذه الترجمة على النص الذى أثبته ماسبيرو فى كتابه الذى مر ذكره ص ١٦٤ و١٦٥ و١٦٦

(هنا جملة مضطربة قال ماسبيرو إن الترجمة التى وضعها لهـا مشكوك فيهـا ولذلك تركناها) .

هو من ترجع إليه أجيالنا كلها منذ اليوم الذى وجد فيه أول إنسان إلى أن صار هذا الانسان جماعات تعد بمئات ومئات من الألوف .

وهم جميعا حينا سينيقظون للحياة على هـذه الأرض يقال لكل منهم « امض وانجح وكن سليا معافى ، لكى تصل إلى القبر مصفقا بيديك ، مفكرا دائما فى اليوم الذى تنام فيه على سرير الموت ، مغتبطا بتجهيز قبرك (١) — » .

أيها الكاهن (٢) . إن التدمير (٣) الذى يتحدثون عنه هو الاتحاد بأرباب الأبديه » .



والآن نعود إلى النشيد الأول . يقول هذا النشيد :

« منذ الأسلاف تذهب الأجسام وتحل محلها أجسام أخرى .

والآلهة الذين عاشوا من قبل يناموں فى أهرامهم .

والنبلاء والعظماء ، هم أيضا مكفنون فى قبورهم .

فليت شعرى ماذا جرى لهم ؟

لقد سمعت أقوال ايمحتب وحاردودف اللذين يتناقل الكل حكمهما فأين مكانهما الآن .

ليس من يعود إلينا من الدار الآخرة فيقول لنا ماذا بها ، ولا ما الذى هم محتاجون إليه فيها .

ليس من يعود إلينا ليطمئن قلوبنا إلى أن تحين الساعة التى نمضى فيها نحن أيضا إلى حيث مضى الآخرون » .

فهـذه المعانى تذكرنا بخطبة لقس ابن ساعدة تروى فى كتب الأدب العربى على لسان أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وفيها يقول قس :

« أيها النـاس . اسمعوا وعوا . و إذا وعيتم فانتفعوا . إنه من عاش مات . ومن مات فات . ... » إلى أن يقول : « مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون . أرضوا بالمقام فأقاموا . أم تركوا هناك فناموا » ... إلى أن يقول أيضا : « يا معشر

(١) كان لتجهيز القبر أهمية عظمى عند المصريين .
(٢) الخطاب هنا موجه إلى الكاهن نوفريت حوتبو صاحب القبر .
(٣) يراد بالتدمير هنا الموت .

اياد أين الآباء والأجداد ... وأين الفراعنة الشداد . أين من بنى وشيد . وزخرف ونجد ... طحنهم الثرى بكلكله . ومزقهم بتطاوله . فتلك عظامهم بالية . و بيوتهم خاوية » .

وفى قصائد عدى بن زيد، وفى قصائد غيره من شعراء الجاهلية، هذه المعانى نفسها متفرقة تارة ومجتمعة تارة .

ولا يستطيع أحد أن يقطع بأن هذه المعانى لم يعرفها العرب إلا بعد أن سرت لهم من الشاعر المصرى صاحب النشيد، إذ يغلب أن يكون الأمر فيها أمر توارد خواطر، لانها من المعانى العامة التى يمكن أن يتجه إليها الذهن فى كل بلد على حدة، ولكن مما لاشك فيه أن هذه المعانى وجدت فى الأدب المصرى قبل الأدب العربى، بل قبل كل أدب فى العالم .

ولم تكن بلاد العرب مقطوعة الصلة بمصر، بل كانت مستمرة الصلة بها بحكم الجوار ثم بحكم أن مصر بلاد غنية يلتمس جيرانها الفقراء مأوى فيها ومرتزقا[١] . وللغة العربية ولغيرها من اللغات السامية أثر فى اللغة المصرية القديمة يعرفه العلماء الآن بسهولة ، فليس مقبولا ولا معقولا أن يقال إن اللغات السامية أثرت فى اللغة المصرية يوم لم تكن للساميين حضارة ولم يكن لهم أدب ، ثم لا يقال إن الأدب المصرى الذى كان قد نما وازدهر وصاحب حضارة استمرت قرونا وقرونا أثر فى أولئك الساميين .

ومما يلفت النظر فى النشيد قوله :

« ليس من يعود إلينا من الدار الآخرة ليقول لنا ماذا بها ، ولا ما الذى هم محتاجون إليه فيها » .

ونقول إن هذا يلفت النظر لأن العقائد الدينية المصرية كانت تزخر كلها بالكلام عن مصير الميت بعد موته ، وكانت التقاليد كلها تفرض على أقاربه أن يؤدوا له

(١) وقصة سيدنا يوسف وإخوته شاهد على ذلك إذا احتاج الأمر لشاهد .

طقوسا خاصة وقرابين خاصة ينتفع بهـا فى حياته الأخرى ، فقول الشاعر هـذا يسقط تلك التقاليد ، أو هو على الأقل يشعر بالشك فى نفعها للميت ونفع الطقوس والقرابين .

ألا تراه يتساءل ماذا فى الدار الآخرة، وما الذى يحتاج إليه الأموات فيها؟ إذن يكون من المشكوك فيـه أن يحتاجوا إلى طقوس وقرابين . و إذن ترك الشـاعر التقاليد المتوارثة منذ ألوف من السنين وأطلق لعقله عنان التفكير فتساءل وداخله الشك، والشك أوّل مراتب البحث الطليق .

وقد يكون شك كهذا غير مستغرب من مفكر عصرى ، بل قد يكون غير مستغرب من مفكر مثل أبى العلاء المعرى فى قوله :

لو جاء من أهل البلى مخبر * ساءلت عن قوم وأرخت
هـل فاز بالجنـــة عمالهـا * وهل ثوى فى النار نوبخت

أو فى قوله :

داران ، أما هـذه فسيئة * جدا ، ولا خبر لتلك الدار
ما جاء منهـا وافد متسرع * فنقول للنبأ الجديد : بدار

أو فى قوله :

ما جاءنا أحد يخـــبر أنه * فى جنة من مات أو فى نار (١)

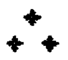
فأما من الشاعر المصرى الذى كان يعيش فى عصر الأسرة الحادية عشرة ، بل ربمـا كان قد عاش قبـل ذلك أيضا ، حين كانت التقاليد الدينية الموروثة كأنها أردية من فولاذ يعجـز الإنسان عن أن يكسرها أو يتحرك فيهـا ، فذلك الشـك مستغرب ، أو هو إذا لم يكن مستغربا دليل على أنه كانت توجد بجانب تلك التقاليد الفولاذية أفكار حرة وعقول تقبل التفكير الحر .

---

(١) هذا البيت يروى لأبى نواس أيضا .

ولا يفوتنا أن هذا النشيد المشتمل على هذا الشك لم يوجد منقوشا فى قبر رجل من عامة النـاس، بل وجد منقوشا فى قبر الملك « أنتف » أحد مؤسسى الأسرة الحادية عشرة ، فقد كان من الملوك إذن من يحترمون التفكير الحرّ ويحتضنونه .

ولمـا كان النشيد قد عاش بعد ذلك إلى أن ردّد بألفاظ أوسع فى قبر الكاهن « نوفريت حوتبو »، ثم عاش أيضـا إلى أن ردّد بالفاظ أوسع فى قبر رجل مات فى عهد الملكة كليو بطرة ، فلا يخطئ من يقول إن من الكهان أنفسهم من كانوا يقبلون التفكير الحرّ، و إن الوسط الذى سمح لهذا النشيد بالبقاء هذه المدّة الطويلة هو وسط لم يكن ينكر التفكير الحر — ولو إلى حدما — على الرغم من قوة التقاليد .



و يقول النشيد بعد ذلك :

« إذن فاطرب واعمل ما ترغب فيه ما دمت حيا .

اقض ما أنت محتاج إليه على الأرض ولا تكدر قلبك إلى أن يجىء يوم البكاء عليك ... الخ » .

أو يقول :

إذن قل لقلبك انس هذا كله .

وتمتع بمـا تحبه ما دمت حيا .

وتوج رأسك بالريحان .

واكس نفسك بالدقيق من الكتان .

وادهن جسمك بالروائح النادرة .

التى تبدو كأنها أعدّت للآلهة .

فهـذه النصائح تذكرنا بمذهب الفيلسوف اليونانى ابيقور الذى يقول بالتمتع بملذات الدنيا . وهنا أيضا لا نجـزم بأن ابيقور أخذ مذهبه من الشاعر المصرى أو من مفكر مصرى آخر، ولكنا نجزم بأن الشاعر المصرى وجد قبل ابيقور بألفى سنة على الأقل، كما نجزم بأن الأدب المصرى وصل إلى اليونانيين وأثر فيهم كما أثرت فيهم العلوم المصرية والديانة المصرية .

ويستمر النشيد فيقول :

«لا تدع الحزن يدخل قلبك .

وافعل ما ترغب فيه وما يسرك .

واجعل أعمالك فى هذه الأرض .

وفقا لتمنيات قلبك .

إلى أن يأتيك اليوم الذى تموت فيه» .

فهنا محل للنظر . لأن الشاعر يدعو إلى أن تكون أعمال الانسان فى الأرض وفقا لتمنيات قلبه، أى لشهواته . فلا نعلم ، قبل كل شيء ، هل هذه الترجمة للأصل المصرى دقيقة أو فيها تحريف قليل يعطيها هذا المعنى . وقد طالما لاحظنا فروقا بين ترجمة وترجمة حتى صار يحق لنا أن نضع هنا هذا الشك عسى أن يجلوه بعض العلماء فى اللغة المصرية .

فان كانت الترجمة دقيقة، وكان مراد الشاعر كما يبين من قوله «وفقا لتمنيات قلبك »، فلقائل أن يقول إنه لا يدعو إلى التمتع بالحياة فى حدود العقيدة الأوزرية التى تجعل كل انسان مسئولا أمام محكمة أوزريس عن أعماله فى الحياة الدنيا، بل يدعو إلى إطلاق العنان فى سبيل الشهوات بلا قيد، ولا خوف من حساب .

وللشعراء فى بعض الأوقات شطحات كهذه أو أوسع، حينما يدعون إلى اللهو والملاذ . والشعر العربى يفيض بكثير من هذه الشطحات .

ومع أن النشيد يدعو إلى الطرب والتمتع بملذات الحياة ، فقد نقش فى القبر مرة وثانية وثالثة . فقد يقال إن هذا من المفارقات ، ولكن نقشه فى القبر ثلاث مرات، وفى عصور مختلفة، يدل على أن المصريين لم يكونوا يرون فيه هذا الحرج.

وفى الشعر العربى كثير من هذه المعانى . قال أحمد بن أبى فنن :

جدّد اللذات فاليوم جديد * وامض فيما تشتهى كيف تريد

وآله ما أمكن يوم صالح * إن يوم الشر — لا كان — عتيد

وقال ديك الجن :

تمتــع من الدنيــا فانك فانى * وإنك فى أيدى الحوادث عانى
ولا تنظرن اليوم لهوا إلى غد * ومن لغــد من حادث بأمان
فانى رأيت الدهر يسرع بالفتى * وينقــله حالين يختلفـان
فأما الذى يمضى فأحلام نائم * وأما الذى يبــقى له فأمانى

وقال ابن المعتز :

وبادر بأيام الســرور فانهـا * سراع وأيام الهمــوم بطـاء
وخل عتاب الحادثات لوجهها * فان عتاب الحـادثات عنـاء

* * *

أما النشيد الثانى فمن ذا الذى يقرأ قوله :

« العظمة على الأرض ما هى؟ والاضمحلال فى القبر لمـاذا ؟ .

ألا فاعلم أنهما التشبه بمن هو حى أبدا ، عادل لا يخدع أحدا ، حى يمقت تعكير الصفاء .

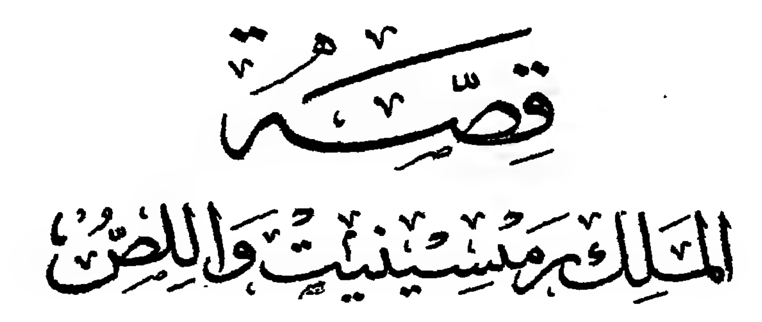
هو من ترجع إليه أجيالنا كلها منذ اليوم الذى وجد فيه أول انسان إلى أن صار هذا الانسان جماعات تعدّ بمئات ومئات من الألوف .

وهم جميعا حينما يستيقظون للحياة على هــذه الأرض يقال لكل منهم « امض وانجح وكن سليما معافى لكى تصل إلى القبر مصفقا بيديك مفكرا دائمـا فى اليوم الذى تنام فيه على سرير الموت ... »

أيهـا الكاهن إن التدمير الذى يتحدثون عنه هو الاتحاد بأرباب الأبدية » .

نقول من ذا يقرأ هذه المعانى العميقة السامية ، ولا يرى فيها خلاصة النظرية التى شغلت كثيرا من العلماء اليونانيين ثم شغلت العلماء العرب من بعدهم ، وكانت تسمى « وحدة الوجود » ، وكانوا يقولون إنهـا فلسفة صـوفية آتية من الهنـد ، والآن هاهو ذا يتضح أنها كانت فى مصر يوم لم تكن للهند حضارة ولا فلسفة .




قصة
الملك رمسينيت واللص

هذه القصة لم يوجد نصها المصرى، وإنما رواها هيرودوت فى كتابه الخاص بمصر، بالتفصيل الذى سنذكرها به هنا، وقال إنه تلقاها من الكهنة المصريين .

وبين يدينا ترجمتان فرنسيتان للنص اليونانى القديم، إحداهما ترجمة ليجران (Ph, E. Legrand) الذى مر ذكره، والثانية ترجمة نقلها ماسبيرو فى الطبعة الثالثة لكتابه (Les Contes Populaires de l'Eg. Ancienne)، «القصص الشعبية لمصر القديمة»، فعلى هاتين الترجمتين نعتمد فى نقل القصة إلى العربية .

« كان الملك رمبسينيت (1) يملك كنوزا من المال لم يستطع أحد من خلفائه أن يدانيها، بله أن يجاوزها . فشيد لادخارها حجرة من الحجارة الكبيرة كان أحد حوائطها جزءا من السور المضروب على القصر كله . ولكن مهندس البناء ركب فى الحائط المتصل بالسور حجرا يستطيع رجلان، بل رجل واحد، تحريكه وسحبه من مكانه ثم رده إليه . ولما انتهى بناء الحجرة جمع الملك فيها كنوزه . ثم مضى زمن، وشعر المهندس بأن آخرته دنت فدعا إليه ولديه وأطلعهما على دخيلة ما فعله فى حجرة الكنوز ليستطيعا أن يعيشا فى رخاء ونعمة . ثم عرفهما طريقة نزع الحجر المتحرك وأعطاهما مقاساته، وقال إنهما إن وعيا ما سمعاه منه، واستخدما فى العمل به الحرص والعقل، صارت ثروة الملك كلها تحت تصرفهما .

ثم مات الرجل، فلم ينتظر الولدان طويلا، ومضيا إلى قصر الملك فى ظلام الليل، وعثرا على الحجر، وسحباه بسهولة، ودخلا إلى حيث الأموال فأصابا منها . وفتح الملك حجرته بعد ذلك فدهش إذ رأى خزائنه نقصت . ولم يعرف على من يلقى التهمة لأنه وجد أختام الباب سليمة والغرفة مسدودة من جميع جهاتها .

وتفقد الملك خزائنه بعد ذلك مرتين وثلاثا، فوجدها تنقص فى كل مرة، فأمر بصنع فخاخ بجانب الخزائن . وعاد اللصان كعادتهما، ودخل أحدهما فلم يكد يدنو من إحدى الخزائن حتى وقع فى الفخ الذى بجانبها، ولم يستطع الخلاص منه . فلما عرف الخطر الذى علق به نادى أخاه وأطلعه على أمره وألح عليه فى أن يقطع رأسه ويرجع به إلى البيت لئلا تكون معرفته سببا فى ضياعه معه . فوافقه أخوه على رأيه، وعمل به، ثم رد الحجر إلى مكانه، ورجع إلى بيته حاملا رأس أخيه .

---

(1) علق ماسبيرو على هذا الاسم فقال إنه الصيغة اليونانية لاسم رمسيس .

وأصبح الصباح، ودخل الملك الحجرة، فانزعج إذ رأى جسم اللص فى الفخ بغير رأس . ولم يجد أثرا يدل على أن أحدا دخل أو خرج . ولم يدر ماذا يفعل، ولكنه أمر بتعليق جثة اللص فى المدينة وإرصاد حراس بالقرب منها يأتونه بكل من يشاهدونه يبكى اللص أو يرثى لحاله .

وطقت الجثة، فتألمت أم اللص وطلبت من ابنها الثانى أن يحتال ليجيئها بها، وهددته إن هو لم يفعل أن تبلغ الملك . فلما رأى الولد ألا مناص من إجابة أمه إلى طلبها أعمل الحيلة، فأعد حميرا بيراذعها، وجاء بزقاق من جلد الماعز، وملأها خمرا، ثم حملها على الحمير وساقها أمامه . ولما اقترب من الحراس القائمين على جثة أخيه فك زقين أو ثلاثة فسالت الخمر . فجعل يضرب رأسه بيديه و يصيح كأنما أخذ بما وقع فلم يعد يدرى أى حميره يدرك قبل غيره . ورأى الحراس فيضا من الخمر يسيل فأسرعوا إليه وفى أيديهم الأوانى . فتصنع الحنق وأخذ يشتمهم . فلاطفوه ليهدئوا من غضبه . فتظاهر بعد قليل بأن سورته هدأت وانحرف بحميره إلى مكان بجانب الطريق وأصلح الزقاق . وفى خلال ذلك تبادل الحديث مع الحراس، وداعبه واحد منهم حتى أضحكه، فأعطاهم زقا، فجلسوا فى التو وشرعوا يشربون . ثم دعوه للجلوس والشرب معهم فرضى . ووجدهم يحسنون رفقته فأعطاهم زقا ثانيا . فشربوا حتى سكروا . ثم غلبهم النوم فناموا حيث كانوا .

وأرخى الليل سدوله فقام اللص إلى جثة أخيه فحلها، وطاب له بعد ذلك أن يداعب الحراس فحلق لكل واحد منهم الجانب الأيمن من لحيته، ثم حمل الجثة وساق حميره، وعاد إلى بيته ظافرا بما طلبته أمه .

وعلم الملك بأن جثة اللص سرقت فاستشاط غضبا، وأبى الا أن يتوسل بكل الوسائل للعثور على صاحب هذه المهارة، فلجأ إلى وسيلة أكاد لا أصدقها، وهى أنه أمر ابنته أن تستقبل كل من يرغب فى مقابلتها على ألا تسمح لأحد بالدنو منها إلا بعد أن يقص عليها أعظم ما فعله فى حياته من دهاء أو جريمة، فاذا جاءها الذى سرق جثة اللص وقص عليها هذه السرقة، حجزته ولم تمكنه من الخروج .

فأطاعت بنت الملك . ولكن اللص أدرك الغرض، وأراد أن يتغلب على كل حيلة للملك، فقطع ذراع رجل مات حديثا وخبأها فى ثيابه، ثم سار إلى بنت الملك . فلما دخل وجهت إليه الأسئلة التى كانت توجهها إلى كل زائر، فقص عليها أن أعظم جريمة له هى التى ارتكبها حينما قطع رأس أخيه بعد أن علق به الفخ فى غرفة كنوز الملك، وأن أعظم مهارة هى التى فعلها حينما حل جثة أخيه وحملها بعد أن أسكر الحراس .

فلم تكد بنت الملك تسمعه حتى همت بالقبض عليه، فانتهز فرصة الظلام الذى كان فى القاعة وأدار إلى ناحيتها الذراع التى كان يخفيها، فقبضت عليها بيدها معتقدة أنها ذراعه، فى حين كان هو قد قفز إلى الباب وهرب .

ونقل هـذا كله إلى الملك فتملكه العجب من مكر هذا الرجل وذكائه وجرأته ، وأذاع فى جميع مدن المملكة أنه عفا عنه وسيجزل له الخير إذا قدم إليه . فصدق اللص وعد الملك هـذا وقدم نفسه . فلما رآه الملك أعجب به إعجابا عظيما وزوجه من بنته ، ناظرا فى ذلك إلى أنه أمهر المصريين الذين هم أفضل الأمم .

* * *

هذه هى القصة كما رواها هيرودوت . وعنده أن الملك رمبسينيت حكم مصر بعـد الملك سيزوستريس ، وأن هذين الاثنين حكما قبل بناة أهرام الجيزة ، أى قبـل الأسرة الرابعـة . وهذا خلط لأن سيزوستريس الذى يعنيـه هيرودوت والذى اشتهر بهـذا الاسم عنـد اليونانيين هـو سينوسريت الثـالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة . أما رمبسينيت فهو أحد الرمامسة ملوك الأسرة العشرين . ويرجح مترجم هيرودوت أن يكون المقصود به رمسيس الثـالث[1] مؤسس الأسرة العشرين . وخلط هيرودوت هذا ، دليل آخر، يضـاف إلى الأدلة التى سـقناها فى المجـلد الأول ، على أن البيانات التاريخيـة التى جمعها فى كتابه عن مصر لا يمكن التعويل عليها إلا إذا أيدتها أدلة من الآثار .

وقد ساق هيرودوت هذه القصة على أنها تاريخ وأن حوادثها وقعت ، ولكن من الواضح أنهـا قصة خيالية وليست تاريخا . وهى واحدة من القصص الشعبية التى تشبه فى سبكها وخيالها قصص « ألف ليـلة وليلة » ، حتى يمكن أن توضع بينها من غير أن تخسر شيئا . وليس يجعلها تاريخا أن حوادثها معزوة إلى ملك بعينه هو أحد الرمامسة، فان القصاص المصريين كانوا يحبون دائما أن يسندوا قصصهم إلى ملوك معروفين ، فهناك قصة الملك خوفو والسحرة ، وقصـة الفلاح الفصيح والملك نابكا وورع، وقصة سينوهيت والملك سينوسريت الأول، وقصص أخرى جارية كلها هذا المجرى .

ومن العناصر البارزة فى القصة أن المهندس الذى بنى للملك حجرة كنوزه جعل فى حائطها المتصل بسور القصر حجرا متحركا يستطيع رجلان، أو رجل، سحبه من

(١) ص ١٢٠ من كتاب هيرودوت لمترجمه (Ph. E. Legrand) .

مكانه ثم ردّه إليه فلا يعرفه أحد . وقد استند بعض علماء الآثار[1] إلى هذا فزعموا أن مصر اقتبست القصة من أصل غير مصرى ، وعللوا ذلك بأن مبانى الملوك المصريين كانت ضخمة ذات حجارة كبيرة فلا يمكن أن يكون فيها حجر متحرك يرفعه ويرده إلى مكانه رجل واحد . وهذا تعليل ينقضه الواقع ، لأن الكاتب اليونانى سترابون كان يعرف أن لهرم خوفو مدخلا يسدّه حجر متحرّك . وقد أثبت فلندرز بترى أن هرم دهشور الكبير كان يسدّه حجر متحرّك[2] . وأبان ماريت باشا أن معبد دندرة كان يتصل به اثنا عشر سردابا لكل سرداب منها مدخل فى سور المعبد يسدّه حجر تتعذر معرفته لأنه منقوش كبقية حجارة السور[3] .

فالواقع يدل إذن على أن ضخامة المبانى، وضخامة الحجارة التى تتكوّن منها، لم تكونا تمنعان المهندسين المصريين من أن يجعلوا فيها حجرا متحرّكا، بل لقد ثبت أن وضع هذا الحجر كان مألوفا عندهم .

وذهب الذين زعموا أن مصر نقلت القصة عن مصدر أجنبي إلى حجة أخرى هى أن الملك رمبسينيت علق جثة اللص الذى قطعت رأسه ، ولم يكن تعليق الجثث مألوفا عند المصريين ، بل كان منكرا يخالف ما كان للأموات عندهم من الحرمة الدينية . وهذه حجة باطلة لأن الحرمة الدينية للأموات لا تمنع أن يأمر الملك بتعليق جثة فى حادث معين لغرض كالذى أشارت القصة إليه أو لغرض آخر . وقد علق أمينوفيس الثانى (أمنحتب الثانى) جثث ستة من الأمراء الأسيويين فى طيبة وعلق جثة أمير سابع فى ناباتا عاصمة النوبة . ويمكن أن يقال إن الحرمة الدينية للأموات تظهر مع ذلك فى القصة ، لأن أم اللص لم تكد تعلم بأن جثة ابنها علقت حتى تحرّكت فيها عواطفها الدينية ممزوجة بعواطف الأمومة ،

(١) منهم ويلكنسون Wilkinson .

(٢) كتاب The Pyramids and Temples of Gizeh ص ١٤٥ و ١٦٧ و ١٦٩ ولوحة رقم ١١ من الكتاب نفسه .

(٣) كتاب Dendérah ص ٢٢٧ و ٢٢٨

فطلبت من ابنها الثانى أن يحتال فى الحصول عليها ولو استهدفت حياته للخطر . وقد كانت حرية أن تكتم حزنها فى صدرها وأن تحرص على حياة ابنها الثانى لو أن عواطفها التى تحركت فيها كانت عواطف أمومة فحسب . فأما وهى عواطف أمومة ممزوجة بعواطف ألم للحرمة التى انتهكت بتعليق جثة ابنها ، وهذا الانتهاك باق ما بقيت الجثة معلقة، فانها لم تبال أن تدفع بابنها الثانى إلى المجازفة، عسى أن ينقذ جثة أخيه، فينقذها هى أيضا من الوخز المستمر كلما رأت الجثة معلقة أو جال تعليقها فى خاطرها .

وتذكر القصة أن الملك أمر ابنته باستقبال كل من يرغب فى مقابلتها على ألا تسمح لأحد بالدنو منها إلا بعد أن يقص عليها أعظم ما فعله فى حياته من دهاء أو جريمة ، وهنا يتحفظ كاتب القصة فيقول إنه يكاد لا يصدق هذا الذى عزى إلى الملك وابنته، وقد أحسن فى هذا، لأن القوانين والعادات كانت صارمة فى كل ما يمس عفة النساء .

فأما القوانين فكانت فى العصور الأولى تعاقب على الزنا بالإعدام، ثم تطورت فصارت تعاقب بإتلاف بعض أعضاء الجسم[1] . وقد ذكر ديودور الصقلى أن المرأة الزانية كانت تعاقب فى مصر بجدع أنفها ، وأن شريكها كان يعاقب بالجلد . ويجب فى الجلد أن يحدث فى المجلود خمسة جروح .

وأما العادات فمرآتها الصادقة ما كتبه أساتذة تهذيب الأخلاق فى وصاياهم وحكمهم، وإليك بعضا منه .

كتب الحكيم بتاح حوتب[2] فى وصاياه :

« إذا دخلت بيتا دخول سيد أو أخ أو صاحب، فلا تنظر بعين السوء إلى من فيه من النساء فأن ألوفا من الرجال يقعون فى الهلاك بسببهن ، لأن جمال أعضائهن يخلب العقول ... .

---

(١) ص ١٨٠ من كتاب Idées Morales dans l'Eg. Antique لمؤلفه Jules Baille.

(٢) تقدم أن هذا الحكيم عاش فى عصر الأسرة الخامسة

«ومتى بلغت شأوا فى عملك فأسس لنفسك بيتا . وأحب زوجتك فى البيت كما ينبغى وأشبعها واكسها وأعطها من الطيب والعطـــور ما تدهن به أعضاءها ، وأفرح قلبها ما دامت على قيـــد الحياة ، فانها حقل طيب لسيدها » .

وكتب الحكيم آنى[1] :

« لا تتبع النساء ، ولا تدعهن يأسرن قلبك... احذر بخاصة المرأة الأجنبية المجهولة فى المدينة فلا تتصل بها . إنها كالماء العميق الغور المجهول الدورات . احذر المرأة المتزوجة التى يغيب زوجها فتقول لك فى الخفاء « إنى جميلة » . إن الاصغاء إليها جريمة تستحق الموت إذا شاع الخبر ، ولو حرصت هى على كتمانه » .

ومن هذا يرى أن شيوع الخبر بمغازلة امرأة متزوجة كان كافيا لاستحقاق الموت .

وليس للقصة مغزى اجتماعى أو دينى على ما يلوح لنا الآن ، ونقول « الآن » لأنها قــد تكون وضعت لمغزى كان يظهر فى الوقت الذى وضعت فيه وللبيئة التى وضعت لهــا ، أما الآن وقد مضت ثلاثة آلاف ســنة — إذا نحن فرضنا أنهــا وضعت فى عصر الرعامسة أو بعده بقليل — فان هذا المغزى لا يظهر ، وكل الذى يبقى أمامنا هو ما فى القصـــة نفسها من المباراة بين ملك ذى حول وسلطان ولص لا يملك غير ذكائه وكياسته .

ومع أن حوادث هذه المباراة فكهة ، فلا شىء فيها يرفضه العقل ، حتى لقد انخدع فيها هيرودوت فحسبها تاريخا ، وهى ليست منه .

وأخيرا تنتهى القصة بكلمة يظهر فيها الروح المصرى القديم ظهورا جليا ، وهى قوله إن الملك زوّج اللص من ابنتــه « ناظـــرا فى ذلك إلى أنه أمهـــر المصريين الذين هم أفضـــل الأمم » . وفى الواقع كان المصريون يعتقدون أنهـــم من طبقة فى الجنس البشرى أرقى من طبقات الأمم الأخرى ، وكانوا لهذا يسمون أنفسهم « رمت » (Romdou)[2] وهى كلمة معناها «الرجال» ولم تكن تطلق إلا على المصريين ، يريدون أنهم « أفضل الرجال » ، أى أنهم يجمعون فى أنفسهم أفضل صفات الرجال .

(١) تقدم أن الحكيم آنى عاش فى عهد الدولة الحديثة .

(٢) و يكتب ماسبيرو هاتين الكلمتين كما يأتى : Rotou أو Romitou

وقــد وجد على تابوت سيتى الأول عرض لأجنــاس الأمم يحضرون جنازة الملك ، فكان رأس هــذه الأجناس المصريين تحت عنوان « رمت » ، ويليهــم « العامو » (Amou) أى الأســيويون ، ثم « النحسو » [1] (Nahésou) أى السود أهــل النوبة والسودان وأفريقية ، ثم « التمحو » (Timihou) أى شعوب الشمال والغرب وهم اللوبيون والأوربيون .

وهذا العرض ، بهذا الترتيب ، يوجد أيضا فى الدير البحرى ، وهو مصحوب فيه بكلام يوجهه المعبود حوريس إلى كل جنس من هذه الأجناس على اعتبار أنهم جميعا أبناء خالق واحد ، فالمستفاد من ذلك أن المصريين كانوا يعتبرون أجناس الأمم إخوانا لهم فى الانسانية ولكنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أرقى هذه الأجناس [2] .

---

(١) يرى بعض العلماء أن كلمة « النحسو » المصرية التى كانت تطلق على السود أهل النوبة والسودان هى التى دخلت فى اللغة العربية بعد ذلك فتولدت منها كلمة « النخاسة » أى تجارة الأرقاء السود .

(٢) راجــع فى ذلك ص ٢١٥ و ٢١٦ و ٢١٧ من كتاب (La Régime Pharaonique dans ses rapports avec l'évolution de la Morale en Egypte).

الأدبُ التهذيبي

الأدب التهذيبي قسم من الأقسام البارزة فى الأدب المصرى القديم . و يطول القول لو أننا توخينا التوسع فيه ، فنكتفى بأن نمر به مرورا وسطا لا سريعا مخلا ، ولا بطيئا يحسن أن تتكفل به الدراسات الخاصة حينما يجىء وقتها ، ونرجو أن يجىء .

*
* *

كان المصريون يحبون العلم ، و يحضون أبناءهم عليه ، ويرونه أشرف مطلب للانسان فى الحياة ، وأقرب وسائله إلى النجاح فيها .

وكانت لهم مدارس تعلم القراءة والكتابة والحساب والهندسة والطب والفلك والنحت والتصوير والموسيقا وغير ذلك من العلوم والفنون . وكانت مدارسهم هذه منتشرة فى كل إقليم ، وكانت فى الغالب ملحقــة بالمعابد . ومن مدارسهم الكبيرة التى اشتهر ذكرها ، والتى يمكن أن تسمى فى التعبير العصرى جامعات ، مدرســة هليو پوليس (أون) ، ومدرســة سايس (صا الحجر) ، ومدرســة هرمو پوليس (خمينو أو أشمونين) ، ومدرســة طيبه ، ومدرســة ابيدوس (العرابة المدفونة) ، ومدارس أخرى مختلفة .

كتب أحدهم فى ورقة تعرف باسم «ورقة ايبرس»[1] يقول :

« تخرجت من مدرسة الطب فى هليو پوليس ، فتعلمت من شيوخها أدو يتهم . ثم تخرجت من مدرسة أمراض النساء فى سايس ، فتعلمت من الأمهات المقدسات أدو يتهن[2] » .

فعرف من هذا أنه كانت توجد فى هليو پوليس مدرسة للطب ، وكانت توجد فى سايس مدرســة لأمراض النساء . وعرف أيضا أن كاتب تلك الورقة انتقل من الأولى إلى الثانيــة ، وتخرج منهما معــا . ومعنى ذلك أوّلا أنه كانت توجد

---

(١) (Ebers)   (٢) ترجم هذا النص لورى (Loret) فى كتابه (Egypte) ص ٢١٠

مدارس للتخصص فى علوم دون علوم ، فمدرسة للطب عامة ، ومدرسة لطب النساء خاصة ، ومدارس أخرى لعلوم أخرى . ومعناه ثانيا أن من النساء من كن يتخصصن لأمراض النساء ، ويتولين التعليم فى المدرسة الخاصة بهذه الأمراض ، وكن يسمين «الأمهات المقدسات»[1] .

وهذا الذى كان فى هليو بوليس وسايس ، كان مثله فى المدن الكبيرة الأخرى ، وكانت تعد بالعشرات .

ولما غزا الفرس مصر ودمروا فيها ما دمروا ، رأى الملك دارا أن يعدل عن سياسة القسوة إلى سياسة المصالحة ، فكان أول شىء فعله فى هذا السبيل أن أمر باعادة المدارس التى دمرت إلى ما كانت عليه ، وكلف باعادتها مصريا كان معه فى عيلام[2] ، فكتب هذا المصرى — وكان يسمى «أوزا — حور — ريس — نتى»[3] على حجر تذكارى له يقول :

« أمرنى الملك دارا ، حينما كان فى عيلام ، أن أمضى إلى مصر ، وأعيد مدارس الكتاب والكهنة التى دمرت إلى ما كانت عليه » .

ثم ذكر أنه صدع بهذا الأمر ، ففتح المدارس ، ورد إليها طلابها من أبناء الأسر الكريمة ، وأجرى عليها ما يكفيها من النفقات .

وما جعل دارا إعادة المدارس إلى ما كانت عليه ، أول أعماله لمصالحة المصريين ، إلا لعلمه بالمنزلة السامية التى كانت لها عندهم . وهو لم يفعل ذلك بمحض رأيه ، بل برأى مشير مصرى كان بجانبه ، وكان يعرف كيف يمكن تضميد جراح قومه .

---

(١) عثر فى مقبرة «اخت حتب» على لقب لأمه يدل على أنها كانت رئيسة الطبيبات أو الأمهات المقدسات . وهذه المقبرة ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة .

(٢) عيلام هى البلاد التى تقع الآن فى شمال إيران .

(٣) (Ouza-hor-ris-nti)



الكتّاب فى ديوان الضرائب

فى الجانب الأيمن كتّاب موظفون فى ديوان الضرائب يكتبون . وفى الجانب الأيسر موظفون يحملون العصى فى آباطهم وقد جاءوا بمولين مقصرين فى الدفع . وفوقهم كتابة معناها « اعتقال رؤساء بعض المدن لتسوية الحساب معهم »

ومع أن المصريين كانوا أهل زراعة ، فقد رفعوا من شأن العلم حتى كان بعضهم يسمو به إلى أعلى من المهن كلها . تضرب مثلا لذلك ما كتبه الحكيم خيتى (١) فى وصاياه لابنه (٢) . قال ما ملخصه :

« هذه نصائح أسداها خيتى بن دواوف لابنه بيبى عند ما رحل به إلى العاصمة ليلحقه بالمدرسة مع أبناء القضاة والحكام (٣) .

قال له :

بودى أن أجعلك تحب العلم والكتب أكثر مما تحب أمك ، وأن أظهر لك محاسنها لأنها أسمى المقاصد .

لقد رأيت صانع المعادن فى عمله ، فرأيته أمام فرنه وقد صار جلد أصابعه غليظا كالتمساح ، وتصاعدت منه الروائح الكريهة كما تتصاعد من فضلات السمك .

ورأيت النحات ينحت بالأزميل فوجدته يشق أكثر ممن يشق الأرض بالفأس . حقله الخشب وفأسه الأزميل . وفى الليل يجب أن يعمل أيضا على ضوء مصباحه ولو كانت يداه متعبتين .

وقاطع الأحجار يعمل فى الحجر الصلد ، فلا يكاد يفرغ من بعض عمله حتى تكون ذراعاه قد كلتا ، وحتى تكون قوته قد انحلت .

---

(١) خيتى بن دواوف هو حكيم عاش فى الفترة الواقعة بين الدولة القديمة والدولة الوسطى .

(٢) كل الحكماء المصريين كتبوا حكمهم ومواعظهم التهذيبية فى شكل وصايا لأبنائهم .

(٣) يلوح من هذا أن بيبى بن خيتى كان قد تعلم قبل ذلك فى مدينة غير العاصمة ، ثم أراد أبوه أن يلحقه بمدرسة فى العاصمة يتعلم فيها أبناء القضاة والحكام ، فهى إذن مدرسة عالية ، أو مدرسة أرستوقراطية .

والحلاق يعمل النهار كله وجزءا من الليــل . وهو يمضى من شارع إلى شارع ليبحث عمن يريد الحلاقة . وهو ينهك فى ذلك نفســه ليملأ بطنه . مثله كمثل النحلة تأكل وهى تعمل .

والنــوتى الذى ينقل البضــائع إلى الوجه البحرى[1] ليربح أجرة نقلها يحمــل من النصب أكثر مما تطيقه ذراعاه ، وهو معرض للبعوض يقتله .

والزارع لا ينتهى قط مما عليه أن يؤديه . وعناؤه لا يوصف . وهو يقتات كما يقتات المرء بين الأسود . وكثيرا ما يمرض . وعند ما يعود إلى داره فى المساء يشعر كأن جسمه يتمزق من التعب .

والنساج فى منسجه أسوأ حالا من امرأة . وهو فى قعوده القرفصاء تحاذى ركبتاه معدته ، ولا يستنشق هواء نقيا ، وعليه أن يعطى البوابين خبزا لكى يرى النور .

وحامل البريد إلى البلاد الأجنبية يترك وصيته لأولاده قبل رحيله ، توقعا لما قد يصادفه من اغتيال الأسود أو اغتيال الأسيويين .

وصانع الأحذية تعس يتسول ... ... وهو يأكل الجلد[2] .

والغسال يغسل الملابس الوسخة على حافة النهر فيكون جارا للتماسيح .

وصــياد السمك حظه أسوأ من حظ أصحاب المهن الأخرى جميعا . انظــر . ألست تراه يعمل على ظهر النهر حيث يختلط بالتمــاسيح .

والبستانى ذو أعباء ثقيلة ، فى الصباح يسقى الكرات ، وفى المساء يسقى الكرم .

وصياد الطير كلما رأى طيورا تخترق الجو قال فى نفسه « ليت معى شبكة » ، والله يأبى أن يجيب طلبه .

اعلم أنه لا توجد مهنة بغير رئيس إلا الكتابة فان صاحبها هو الرئيس[3] .

ومتى عرف الكاتب الكتب عرف الحق فى قولهم إنها مفيدة له ... ... وهذا الذى أقدمه لك الآن من النصح ونحن فى طريقنا إلى العاصمة ، إنمــا أقدمه لأنى أحبك .

إن يوما واحدا تمضيه فى المدرسة يفيدك ، والمجهود الذى تبذله فى خلاله يدوم كما تدوم الجبال[4] » .

---

(١) كان نوتيا من أهل الوجه القبلى . (٢) المراد بهذا أن صانع الأحذية يقبض على الجلد فى بعض الأوقات بأسنانه حينما يريد قطعه . (٣) المراد بذلك أن الكاتب يكون فى أغلب الأحيان موظفا فى أحد دواوين الملك فيصدر الأوامر لغيره ممن لا يعرفون القراءة والكتابة .

(٤) يوجد نص هــذه الوصايا فى كتاب لإرمان جمع فيه باللغة الألمــانية كثيرا من نصوص الأدب المصرى القديم ونقله إلى الانجليزية (Aylward M. Blackman) تحت عنوان (The Literature of Ancient Egyptians) وهذا النص فى ص ٦٧ وما بعــدها من الترجمة الإنجليزية . ويوجد تلخيص واف لهذه النصائح فى كتاب (Le Nil et la Civilisation) لموري ص ٢١٢ . ويوجد تلخيص لها أيضا فى ص ٢٣٩ من كتاب إرمان (L'Egypte des Pharaons) الذى تقدم ذكره .

وبعد خيتى هذا بنحو ألف سنة، أى فى عهد الدولة الحديثة علم كاتب أن ابنه ترك المدرسة وانصرف إلى الزراعة فكتب إليه :

« قيل لى إنك هجرت العلم ... ... وأدرت رأسك إلى الحقول ... ... أفلا تعرف ما هو حظ الزارع حينما تجبى منه الضريبة على محصولاته » .



تصادم العربات الحربية المصرية مع العربات الحربية الحيثية فى معركة قادش

إن الديدان تأكل نصف حبوبه ، والحوت يتلف النصف الآخر ، والجرذان كثيرة فى القــرية ، والجراد يتساقط ، والمواشى تأكل ، والعصافير تنهب ... ... ما أعظم مصيبة الزارع ! إن ما قد يبـق له بعد ذلك فى البيدر يسرقه اللصوص . ويريد المسكين العمل بالمحراث ، فاذا الحبال التى تشده باليــة ، وإذا المواشى التى تجره تكاد تهلك . ويأتى جابى الضرائب ومعــه الحجاب بدبابيسهم والسود بعصيهم . ويقول الجــابى « هات الحبوب » ولا حبوب ... ... فحينئــذ يطرحونه أرضا ويضربونه ، ثم يلفون جراحاته بالأربطة ويلقونه فى الحفرة ، فيغوص فى المـاء ويسبح مخفيا رأسه . وامرأته تثقل بالأربطة أمام عينه[1] . وأولاده يقيدون ، وجيرانه يحملون حبوبهم ويهربون[2] » .

هذا التصوير للزراعة والزراع ، وتصوير خيتى للمهن اليــدوية وأصحابها ، مبالغ فيهما ولا شك ، لأنهما صادران عن رغبة فى التنفير من كل ماعدا الكتابة والعلم . فمن الخطأ أن يعتمد عليهما فى تعرف المركز الاجتماعى الذى كان للزراع والصناع . ولو أن هذا الوصف الذى يوصف به مركز الزراع كان صحيحا لمـا أمكن أن تقوم المدنيــة المصرية التى كان أساسها الأول الزراعة ؛ ولكن هذين التصويرين ، وبين أحدهما والآخر نحو ألف سنة ، يدلان على أن العلم كان مرغوبا فيه وأن المتعلم كان ذا مقام ملحوظ .

وفى عهد الدولة الحديثة خاف بعض الآباء والحكماء أن يقل إقبال الأبناء على الكتابة والعــلم ، بسبب الجندية ، التى راجت سوقها إذ ذاك ، باتساع الفتوحات المصرية ، وبمـا كان الملوك يغدقونه من الخيرات ووسامات التشريف على الجنود وقوادهم[3] ، فكتبوا يصفون لهم متاعب الجندية ويقولون إن العلم أفضل منها[4] .

(١) كأنه يريد أن يقول إن امرأته تضرب هى أيضا ثم تربط جراحاتها .

(٢) الورقة التى وجدت فيها هذه الكتابة تعرف عند العلماء باسم « ورقه أناسطاسى » وقد اعتمدنا فى تعريبها على كتاب (Le Nil et la Civilisation) لمورى ص ٢١١

(٣) كان الجنود والضباط يعتبرون فى عهد الدولة الحديثة من الطبقات الممتازة ، وكان الملوك يمنحون البارزين منهم فى ميادين البطولة وسامات وأراضى يزرعونها ، ثم كانوا فى بعض الأحيان يعفون أراضيهم هذه من دفع الضرائب .

(٤) كتب أحد هؤلاء الحكماء يصف متاعب ضابط العربات فقال :

« تعال أقل لك ماذا على ضابط العربات من الواجبات .

حينما يدخله أبواه المدرسة ، فان كان يملك خمسة من العبيد فعليه أن يعطى اثنين منهم . =

*
* *

وهناك نصائح أخرى طريفة كتبها بعض المعلمين ليهذبوا بها تلاميذهم فنشير هنا إلى بعض منها . وهـذه النصائح لم تكتب لتكون تهذيبا مدرسيا عاما ، بل كتبت علاجا لحالات بعينها ولتلاميذ بعينهم ، فهى لهذا السبب نفسه تحتفظ بكل قوتها وحيويتها ، وتكشف لنا عن العلاقة بين التلميـذ ومدرسته من ناحية و بينه و بين معلمه من ناحية أخرى .

= ومتى تم تدريبـه مضى إلى الاسطبلات ليختار لنفسـه عربة وخيلها أمام جلالة الملك ، له الحياة والصحة والقوة .

فلا يكاد اختياره يقع على خيل جيدة حتى يكاد يطير من الفرح .

و يكون همه الأول أن يصل خببا إلى قريته الصغيرة .

ولكنه لا يصلح للخبب إلا على عصا ، ولا يعرف ما ينتظره .

أنه يعطى أملاكه لأبيـه وأمه ثم يركب عربته .

وحينئذ يعـرف أن عريش هذه العربة يكلفه ثلاثة «دبنات» (أ) وأن العـربة تكلفة خمسة «دبنات» .

وتراه يجرى بعد ذلك كمن يقفز قفزا .

فيقابل فى طريقه أفعى فيرتمى فى قلب أيكة مملوءة بالشوك .

فتهجم الأفعى عليه وتكاد لسعتها تخرق عقب قدمه .

ثم حينما يجئ الوقت لتفقد ملابسه تكون نكبته شنعاء .

لأنهم يطرحونه أرضا و يضربونه مائة عصا » (ب) .

وكتب يصف متاعب ضابط جنود المشاة فقال :

« تعال أصف لك حظ ضابط المشاة ومقدار ما يعانيه من المتاعب

إنهم يأخذونه وهو لا يزال صبيا ، وضفائر شعره لا تزال ملقاة على أذنه ، فيحبسونه فى الثكنة .

ثم يضربونه على جنبيه حتى يكونا كلاهما جروحا . =

(أ) الدبن وحدة من المعدن كانت تستعمل فى المعاملات . انظر ص ٢١٦ و ٢١٧ من المجلد الأول .

(ب) المصدر هنا وفى القصيدة التى تليها هو ورقة أناسطاسى رقم ٣

كتب معلم إلى تلميذه يقول[1] :

«أنصح لك ألا تكون كالرجل الغبي المجرد من التهذيب . إنك تلق العلم بالليل والتهذيب بالنهار ، ولكنك لا تصغى لأى تعليم ، وتأبى إلا أن تجرى على هواك .

إن الحيوان « كايرى » (Kaïry)[2] يؤتى به من إتيوبيا و يؤمر فيطيع ، والأسد يدرب فيقبل التدريب ، والخيل تساس فتخضع ، أما أنت فلا يوجد لك شبيه فى البلد كله ، فاعرف ذلك وتنبه له » .

= و يضربونه على عينه فتصير جرحا هى أيضا .

و يمزق جفناه فيخيطونهما .

و يصاب رأسه بجرح كبير .

وهكذا يضربونه كما يضربون عجين البردى .

ثم تعال أقل لك كيف يسير إلى سوريا وماذا يعمل فى البلاد البعيدة .

أنه يحمل خبزه وماءه على كتفه كما يحمل الحمار عبئه .

وحينئذ يقصم التعب ظهره .

و يريد المسكين أن يشرب فلا يجد إلا ماء وسخا .

وعليه أن يتولى الحراسة بغير انقطاع .

فاذا أدرك العدو ارتجف كما ترتجف الأوزة .

ولم يبق منه ما يجعله جنديا ذا قيمة .

وهو حينذاك يمرض فيلزم فراشه و يحملونه على حمار .

بينما اللصوص يسرقون متاعه و بينما عبيده يتركونه »

وهناك كتابات أخرى من هذا النوع .

(١) المصدر هنا هو ص ٢٤١ من كتاب « مصر الفراعنة » (L'Egypte des Pharaons) الذى سلف ذكره .

(٢) كتب إرمان اسم هذا الحيوان بهذا النطق المصرى فدل بذلك على أنه حيوان غير معروف . وقد جرينا نحن على ما جرى عليه . والمفهوم أن هذا الحيوان وحشى .

ويدل قول المعلم « إنك تلق العلم بالليل والتهذيب بالنهار » على أن تلميذه كان يشتغل النهار وجزءا من الليل . وفى أسلوب الكتاب عنف ظاهر كان مما يستخدم فى التهذيب .

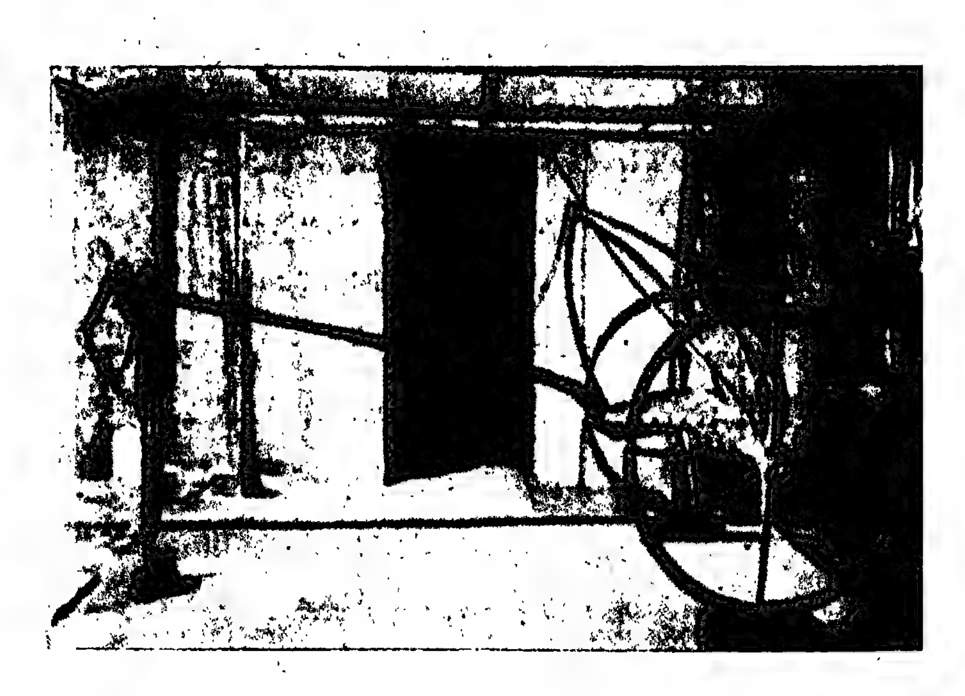
وكتب معلم ثان :

« أيها الكاتب لا تركن إلى البطالة وإلا عوقبت عقابا شديدا .

لا تجعل ميلك إلى الشهوات لئلا تجرى بنفسك إلى الضياع .

اكتب بيدك ، واقرأ بلسانك ، واستشر الذين يعرفون أكثر منك .

لا تضع يوما واحدا فى البطالة وإلا ضربت ، فان أذنى الصبى فى ظهره فاذا ضرب أصغى » .



العربة المصرية فى عهد الدولة الحديثة — وهى مصنوعة من الخشب والبرنز والجلد

وهذه كلمات حية كأنما كاتبها « فقيه » كتاب كان فى بعض القرى المصرية منذ عشرين عاما فقط ، بل لا يبعد أن يوجد الآن من « فقهاء » الكتاتيب من لا يزال يرى أن تكون هذه وسائله فى تربية الصبيان فى كتابه .

وقوله « اكتب بيدك ، واقرأ بلسانك » قول مرب خبير . وقوله « إن أذنى الصبى فى ظهره » تعبير قوى الحيوية .

على أن هذين المعلمين لم يبلغا من العنف ما بلغه معلم ثالث كتب إلى تلميذه :

« لقد صرت أكره الاستمرار فى تعليمك . ماذا يفيد أن أضربك مائة عصا ؟ لا شىء ، فأنت مثل الحمار الجموح الذى يتلقى الضربات ، أو مثل الزنجى المصاب بالتمتمة يؤتى به مع الجزية ... ولكننى سأجعل منك رجلا ، فاعرف ذلك وتيقنه » .

ومعلم رابع ينصح ولا يذكر الضرب بالعصا فيقول :

« قيل لى إنك تترك الكتابة وتستسلم للهو ، فيتلقفك شارع بعد شارع ، حيثما تكون الجعة . ألا فاعلم أن الجعة تبعد الناس عنك ، وأن مثلك فيما تفعله كمثل دفة مركب يريد صاحبها تحريكها فلا تتحرك يمينا ولا شمالا ، أو كمثل معبد بلا معبود ، أو كمثل بيت لا خبز فيه .

وقد قيل لى إنك وجدت تتسلق حائطا ، ففر الناس منك مسرعين ، لأنك تؤذيهم وتحدث فيهم جروحا . فليتك تعلم أن الخمر منكر وتأخذ على نفسك أن لا تقارف المسكرات » .

ولا يقف هذا المعلم عند هذا الحد من النصح والتمنى ، بل يستمر فيريد أن يضرب لتلميذه مثلا يتعظ به فيقول :

« أتعرف ماذا كان من أمرى ؟ كان أنى وأنا شاب مثلك ربطت ، وشدت على الحبال ، وبقيت كذلك ثلاثة أشهر ، موثوقا محبوسا فى المعبد ، بينما كان أبى وأمى وإخوتى فى القرية . ثم أطلق سراحى ، فعدلت عن سيرى السابق وصرت أول أقرانى » .

فليس الأمر هنا أمر العصا فحسب ، بل هو أمر الحبال الموثقة ثلاثة أشهر مع الحبس فى المعبد .

أدب الحكماء

مواعظ كاجمنه

ونأخذ بعد ذلك فى أدب الحكماء .

أقدم حكم وصلت إلينا من هذا الأدب هى التى تعرف باسم «مواعظ كاجمنه»[١] وهى مواعظ يؤخذ منها أن كاتبها كان وزيرا للملك حونى[٢] وأنه كتبها ليهذب بها أبناءه — ومنهم كاجمنه الذى سميت المواعظ باسمه — عسى أن يصير واحد منهم أهلا لأن يخلفه فى منصبه . ثم لما فرغ من الكتابة دعاهم وقال لهم :

« هذا كتابى إليكم فاعملوا بما فيه كأنكم تسمعونه منى » .

فانبطحوا على الأرض أمامه[٣] ، ثم جعلوا يتخذون من المواعظ مرشدا لهم فى سلوكهم . وبعد قليل مات الملك حونى وخلفه الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة فعين كاجمنه حاكما لإحدى المدن ثم وزيرا .

ولم يوجد من هذه المواعظ إلا القليل ، لأن أحد الكتاب عثر فيما بعد على القرطاس الذى هى فيه فمحا الكثير منه وكتب مكانه شيئا آخر[٤] .

وسنلخص هنا أهم ما بقى من هذه المواعظ . وسنجرى على خطة التلخيص هذه فى جميع مواعظ الحكماء لأن صفحات كتابنا هذا لا تتسع لنقلها كاملة[٥] .

مدح كاجمنه الصدق فقال إنه يدعو إلى احترام صاحبه .

ورفع من شأن المهارة فى الكلام فقال إنها تعلى مقام صاحبها ، ولا سيما إذا كانت مقرونة « ببواتر ضدّ المخالف فلا يسلم منها إلا السليم » .

---

(١) (Kagimna) (٢) (Houni) وهو آخر ملوك الأسرة الثالثة التى عاشت فى نحو سنة ٢٩٨٠ ق م . (٣) كان الانبطاح على الأرض من علامات الخضوع والإجلال للوالد وللملك .

(٤) معروف أن ورق البردى سميك فهو يحتمل الغسل بالماء ويبقى بعد ذلك صالحا للكتابة .

(٥) عرب أحمد كمال باشا مواعظ كاجمنه فى كتابه « الحضارة القديمة » ص ٢٨٦ و ٢٨٧ وقد اعتمدنا هنا على هذا التعريب .

ثم قال :

« إذا جلست لتأكل مع ناس كثيرين فتعفف عما تشتهيه من الطعام .

فى السكر والشراهة فضيحة ، مع أن كوبة ماء تطفىء الظمأ ومضغة قاوون تكفى النفس . وقد يغنى القليل عن الكثير .

إذا جلست مع شره فاحذر أن تأكل مثله .

الجاهل لا يؤثر فيه كلام ، و يكون عبوسا عند كل عطاء ، ولو عن قلب سليم ، فهو غم لأمه ولأهله » .

مواعظ بتاح حوتب

الحكيم بتاح حوتب كان وزيرا للملك أسيسى ، أحد ملوك الأسرة الخامسة[1] ، وهو يبتدئ مواعظه بخطاب يتجه به إلى الملك فيذكر ما فعلته به الشيخوخة ويطلب إذنا فى أن يلقن ابنه خلاصة تجاربه وتجارب القدماء فى الحياة فى شكل مواعظ تهذيبية يضعها له عسى أن يسترشد بها فيمكن أن يحل محله .

يقول :

« اسمح لخادمك بان يعد عصا شيخوخته[2] ... ... وليكن لى أن ألقن ابنى مواعظ القدماء الذين خدموا الأجداد السالفين » .

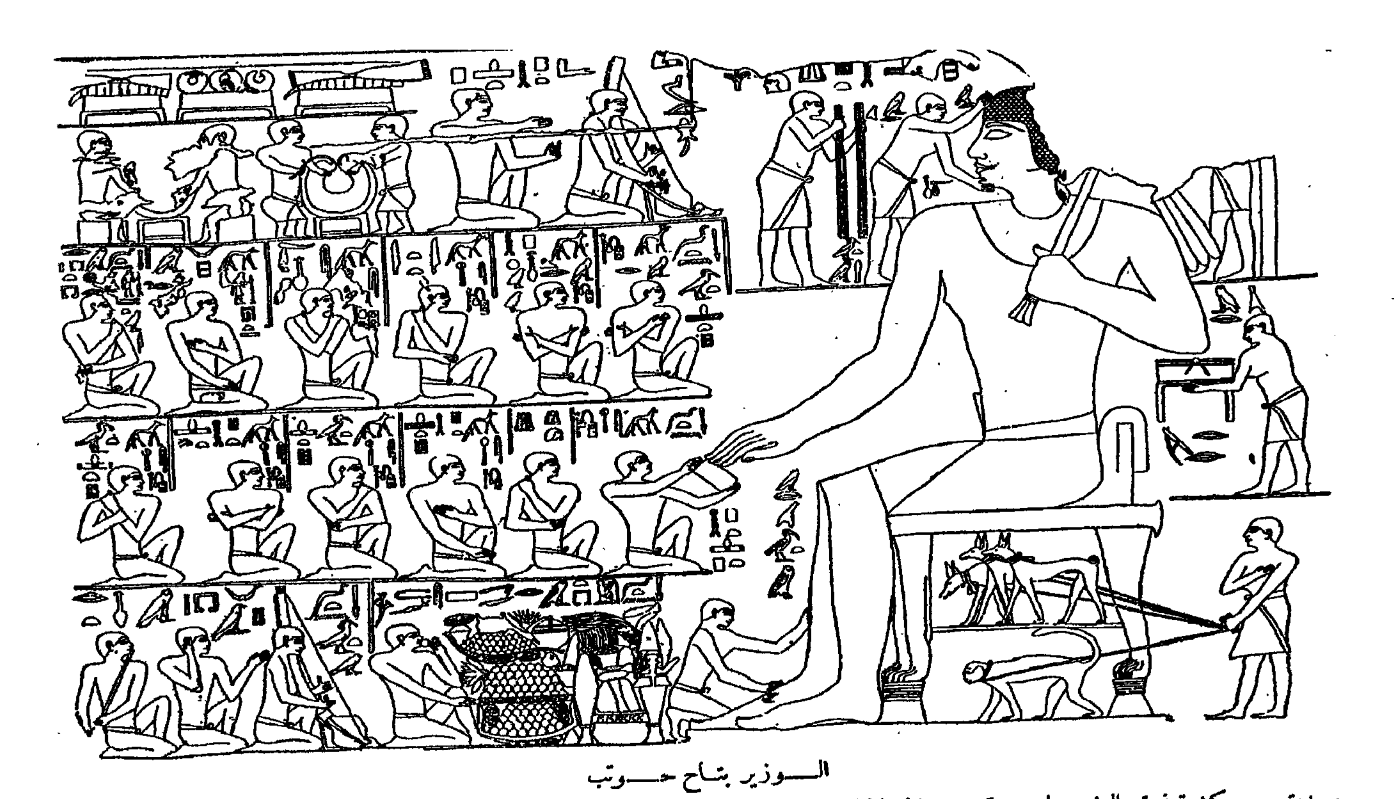
وعلى هذا يجيب الملك فيقول :

« لقن ابنك الحكم القديمة ... ... وليكن موضع الإعجاب من أبناء العظماء » .

---

(١) حكمت هذه الأسرة فى نحو سنة ٢٧٠٠ ق.م .

(٢) قد يكون مراده بالعصا هنا العصا التى يستند إليها الإنسان فى شيخوخته ، وحينئذ يكون كأنه يريد أن يقول : « اسمح لخادمك بأن ينسحب من عمله ويستعد للراحة التى تقتضيها شيخوخته » . وقد يكون مراده باعداد العصا إعداد ابنه .



الــــوزير بتاح حــــوتب

وجدت رسوم كثيرة فى قبر الوزير بتاح حوتب، ومنها هذا الرسم الذى يرينا كيف كان يبتدئ يومه . فعند وجهه خادم يسوى له الشعر المستعار على رأسه . وخادم ثان يعد له ملابســه . وعنــد قدمه خادم ثالث يدلك قدميه برفق . وفى الصف الأعلى أربعــة من الأقزام ينظمون عقــود الوزير واثنان يلحنان أصواتا موسيقية . وفى الصفين الثانى والثالث ١٢ موظفا استعدوا لأن يعرضوا على الوزير ما لديهم ولتلقى أوامره . وواحد من هؤلاء الموظفين يمدّ يده إلى الوزير بورقة والوزير يمدّ يده ليتناولها . ومن خلف الوزير خادم يمسك بأزمة قرد وثلاثة كلاب صيد للوزير .

ثم يشرع بتاح حوتب فى مواعظه ، فنقتطف منها ما يأتى[١] :

إذا كنت قائدا ، وتصدر الأوامر لجم الغفير، فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص فى طبيعتك .

إن الصدق جميل ، وقيمته خالدة ، وإنه لم يتزحزح منذ يوم خالقه ، والذى يتخطى نواميسه يعاقب . وهو أمام الضال كالطريق المستقيم . إن الخطأ لم يتعد مقترفه إلى الشاطئ . نعم إن الشر يكسب الثروة ، ولكن قوة الصدق فى أنه يمكث ، والرجل المستقيم يقول إنه متاع والدى[٢] .

إذا اتفق أنك كنت بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاما فخذ ما يقــدم لك حينما يوضع أمامك . ولا تنظر إلى ما هو موضوع أمامه . ولا تصوب لحظات كثيرة إليه ... ... وانظر بمحياك إلى أسـفل إلى أن يحييك . وتكلم بعد أن يرحب بك . واضحك حينما يضحك . فان ذلك يدخل السرور على قلبه .

إذا كنت ممن يوثق بهم وأرسلك رجل عظيم آخر فيجب عليك أن تبلغ الرسالة كما قالها .

ولا تكن كتوما فيما يمكن أن يقال لك . واحذر النسيان . واحرص على الصدق ولا تتخطه .

إذا كنت فى ركاب رجل ذائع الصيت من الذين هم على وئام مع الإله (الملك) فتجاهل ماضى وضاعته ، ولا تحقد عليه بمـا تعرفه عنه فيما سلف ، واحترمه على حسب مكانته التى أصبح فيها .

إذا وقفت أو قعدت فى البهو (يريد بهو الملك أو بهو عظيم من العظماء) فانتظر بهدوء حتى يأتى دورك . واصغ إلى الخادم الذى يعلن . ومن نودى فله مكان متسع . والبهو له نظامه . وكل ترتيب فيه على حسب خيط القياس . والإله (الملك) هو الذى يعطى المكان الأول . ولا يصل الإنسان إلى شىء بالمرفق .

إذا كنت ممن تقــدم لهم الشكاوى فكن شفوقا حينما تسمع كلام المتظلم . ولا تسىء معاملته إلى أن يغسل بطنــه و يقول كل ما جاء من أجله . إن المتظلم يحب كثيرا أن يهز الانسان رأسه لكلامه إلى أن ينتهى ممـا جاء من أجله .

إذا دخلت بيتا ، دخول سيد أو أخ أو صاحب ، فاحذر أن تنظر بعين السوء إلى من فيه من النساء ، فان ألوفا من الرجال يقعون بسببهن فى الهلاك .

---

(١) عرب هــذه المواعظ أحــمد كمال باشا فى كتابه « الحضارة القــديمة » من ص ٢٨٧ إلى ص ٢٩٧ وعرب بعضها سليم حسن بك فى الجزء الأول من كتابه « مصر القــديمة » من ص ٤١٧ إلى ص ٤٢٣ فنقتطف هنا من هذا التعريب الأخير ، وسنقتطف من تعريب كمال باشا فيما بعد .

(٢) يعنى أن أفضل شىء أورثنى إياه والدى هو أنه انشأنى على الصدق .



فى قبر بتاح حوتب
صنع المراكب الخفيفة من نبات البردى

إذا أردت أن يكون خلقك محمودا فاحذر الشراهة ، فانها مرض مملوء بالداء ولا يشفى . والصداقة معها مستحيلة . وهى حزمة من أنواع الشر ، وحقيبة من كل شىء مرذول .

لا تكن شرها فى القسمة . ولا تكن ملحا إلا فى حقك . ولا تطمع فى مال أقاربك .

إذا بلغت شأوا فى عملك فأسس لنفسك بيتا . وأحب زوجتك وأشبع بطنها وا كسها . وقدم لها الطيوب والعطور . وأفرح قلبها ما دامت على قيد الحياة فانها حقل طيب لسيدها .

إذا أصبحت عظيما بعد أن كنت صغير القدر ، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجا ، فلا تنس كيف كانت حالك فى الزمن الماضى .

احن ظهرك لمن هو أعلى منك (رئيسك فى دار الملك) . بذلك يبقى بيتك بخيره ، ويأتيك مرتبك فى حينه . ومقاومتك من فى يده السلطة قبيح . والإنسان يعيش ما دام متساهلا .

لا تكثر (١) من اللغط ولا تسمعه ، لأنه شىء أفلت من نفس فائرة ، فان تكرر فأطرق إلى الأرض ولا تصغ إليه ولا تحك شيئا من معناه .

إذا كنت قادرا فاجعل عنايتك فى العلم ، وفى القول الفصيح ، ولا تأمر إلا بعد التدبر . التصرف المطلق يؤدى إلى السوء . لا تكن أقوالك مصحوبة بالأنفة . اجعل أوامرك مسموعة وأجوبتك سديدة وتكلم بدون حدة . الرجل الهادىء يخوض عباب الموانع والرجل الدائم الغضب لا يجعل لنفسه وقتا طيبا .

تعلم أداء التعظيم للرئيس . وإن كنت تحصد من أجله مع ناس فدع المحصول يعود بتمامه إلى صاحبه الذى تجد عنده عيشك ، لأن عطاء بالرضا خير من الاغتصاب الذى يغطى ظهرك بثوب من الخزى ، وما تأخذه بالحلال يعيش به بيتك .

---

(١) من هنا يبتدىء ما نقتطفه من تعريب كمال باشا .



فى قبر بتاح حوتب أيضا

صيد الطيور بالشباك . فى الصف الأعلى رجال يجذبون حبل الشبكة التى امتلأت طيورا وهم نائمون على ظهورهم . وفى الصف الأدنى رجال يجذبون حبل الشبكة وهم قعود

اعرف من كانوا أصدقاءك حينما كانت أعمالك فى انحطاط ، فان فضلك عندهم أفضل من فضلك عند الذين يجلونك وقت تقدم أعمالك .

لا تعنف زوجتك بل دعها منشرحة الصدر أكثر من نساء بلدها ، فانها تستقيم إذا كان الحبل لها لينا . لا تنفرها ، بل قدم لها ما تستحسنه .

اسمع يا بنى تستفد . فانى صرت مديرا لأنى سمعت . إن السماع أحسن كل شىء لأنه يجلب المحبة والخير المضاعف . والله يحب من يسمع و يبغض من لا يسمع .

الرجل الذى لا خبرة له لا يسمع ، ويرى العلم فى الجهل ، والربح فى الخسارة ، و يفعل كل شىء على ضلال ، و يتغذى من كلام السوء الذى يذهله .

لتكن أفكارك صائبة ، وليكن لسانك مضبوطا . تدبر مع الكبار . اجعل نفسك موزونا على منهاج معلمك ، وافعل ما يقول .

الغلام الطيب هدية من الله ، لأنه يحسن العمل بأكثر مما يقال له ، و ينشرح صدر معلمه ، ويهدى نفسه باجتهاده إلى الصراط المستقيم . وبذلك تتوصل يا بنى إلى سلامة قلبك ، و إلى سرور الملك منك ، و إلى اغتنام سنى حياتك بغير كدر . وهذا هو الذى أبقانى فى الدنيا مائة وعشر سنين متمتعا بنعم الملك حتى صرت من المقدمين الذين نالوا الشرف بأعمالهم وفعلوا ما فيه رضا الملك .

⁂

تلك هى المقتطفات التى رأينا اقتطافها من مواعظ بتاح حوتب . وهى تقع فى ٤٣ لوحة ، كل واحدة منها تشتمل على عظة أو عظات . والقرطاس الذى

وجدت فيه يعرف عند العلماء باسم « قرطاس بريس »[١] . ويذهب بعضهم[٢] إلى أنها وضعت فى عهد الأسرة الحادية عشرة أو الأسرة الثانية عشرة ثم نسبت إلى بتاح حوتب، لأن المصريين كانوا يحبون نسبة ما يصنعونه إلى القدماء، رغبة فيما يضفيه عليه القدم من القوة . والدليل الذى يستند إليه هؤلاء العلماء هو قولهم إن لغته وكتابته هما أشبه بعهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة منهما بعهد الأسرة الخامسة . ولكن لما كان هذا الفارق فى اللغة وفى الكتابة ضعيفا لم يأخذ العلماء الآخرون برأيهم ، ولم يستبعدوا أن تكون المواعظ من وضع بتاح حوتب . وقد أثبت برستد فى كتابه « بفجر الضمير » — (Dawn of Conscience) ص ١٢٩ أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة .

والوزير بتاح حوتب شخص أثبت الحفر وجوده، ودل على قبره فى سقارة، حيث قبور الأسرة الخامسة . فهو شخص تاريخى، ومواعظه هذه ترجع إلى نحو سنة ٢٧٠٠ ق م ، أى إلى ٤٦٤٠ سنة مضت . أما مواعظ كاجمنه فيرجع وضعها إلى ٤٩٢٠ سنة مضت .

وقد يقرأ ابن اليوم هذه المواعظ فيراها عادية لا تستوقفه، ولكنه إذا استحضر فى ذهنه أنها لم توضع فى هذا العصر، ولا منذ قرن أو قرنين، بل وضعت منذ ما يقرب من ٥ آلاف سنة، بالتاريخ القصير، حق له أن يرى فيها ما يستوقفه، وعرف لماذا قلنا فى المجلد[٣] الأول إن المدنية المصرية التى عاشت أربعين قرنا أو يزيد، إنما عاشت هذه القرون الطويلة لأنها قامت على أساس علمى وخلق صحيح .

ففى ذلك العهد البعيد، عهد الأسرة الثالثة والأسرة الخامسة ، كان المصريون يعرفون أدب النفس وأدب المجتمع ، ويطلبون الكمال فيهما معا . كانوا يحضون على مكارم الأخلاق ، من صدق ، وأمانة ، وعفة ، ووفاء، وقناعة، ونزاهة، واستقامة، ورعاية للمظلوم، وعطف على الصغير، واحترام للكبير، وحب للزوجة،

(١) Papyrus Prisse

(٢) منهم جيكي (Cap. G. Jéquier) ومولر (Moller) وديفو (Eug. Dévaud)

(٣) ص ١٠

وضبط لزمام النفس ، وابتعاد عن الشراهة ، واستماع لوصايا الحكماء ، لأنهم كانوا يرون فى هذه الفضائل وأمثالها خير دعامة يقوم عليها المجتمع .

وهذا العهد البعيد هو بعينه العهد الذى كان المصريون يشيدون فيه أهرام سقارة وأهرام الجيزة ، ويبلغون فيه الذروة فى فنون النحت والنقش والتصوير . فعملهم فى البناء والفنون كان يقوم إذن بجانب عمل آخر لهم هو بناء الأخلاق . وكما بنوا الأهرام ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من الفنون على غير مثال اقتبسوه من سواهم ، بنوا بناء الأخلاق على غير مثال اقتبسوه من سواهم ، فكانوا فى ذلك كله مبتكرين .

*
* *

وتنقسم مواعظ كاجمنه وبتاح حوتب إلى نوعين ، أحدهما أدب النفس ، والثانى أدب المجتمع . وهى أقدم ما يعرفه العالم فيهما ، فليس يخطئ من يقول إن المصريين هم الذين وضعوا أوّل أساس لهما .

يقول كاجمنه .

« إذا جلست لتأكل مع ناس كثيرين فتعفف عما تشتهيه من الطعام » . ثم يقول : « إذا جلست مع شره فاحذر أن تأكل مثله » .

ويقول بتاح حوتب :

« إذا اتفق أنك كنت بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاما فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك . ولا تنظر إلى ما هو موضوع أمامه . ولا تصوب لحظات كثيرة إليه » .

فهذه كلها مواعظ لا تزال من أدب المائدة إلى اليوم .

أما قول بتاح حوتب بعد ذلك :

« انظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك ... ... واضحك حينما يضحك » .

ثم قوله :

« إحن ظهرك لمن هو أعلى منك . بذلك يبقى بيتك بخيره . ويأتيك مرتبك فى حينه ومقاومتك من فى يده السلطة قبيح . والإنسان يعيش ما دام متساهلا » .

فهى وصايا قد لا يقبلها الآن كثير من الناس ، ولكنها كانت مقبولة مألوفة فى المجتمع المصرى فى الجيل الماضى ، أى منذ خمسين سنة . وهذا النوع من

أدب المجتمع هو من الأخلاق التى تنشئها البيئة الاستبدادية ، فكيف إذا كانت البيئة بيئة نظام للحكم كان الملك فيه معبودا .

على أن هذه البيئة التى كان الملك يعبد فيها كانت تظهر فيها ، وقتا بعد وقت، على ألسنة الكتّاب، نصائح ووصايا تحذر من عواقب الانفراد بالرأى . ومن هذه الوصايا قول بتاح حوتب :

« التصرف المطلق يؤدى إلى السوء » .

وهو قول تتضح قيمته إذا تذكرنا أن قائله لم يكن شخصا عاديا ، بل كان وزيرا ، وقد وضع مواعظه باذن من الملك ، فيغلب على الظن أن يكون الملك قد اطلع عليها .

ولا نزاع فى أن آراء المصريين فى نظام الحكم كانت فى ذلك الوقت قد بدأت تتطور ، لأنهم ثاروا عليه فى عهد الأسرتين السابعة والثامنة ثورة قلبته رأسا على عقب ، واستمرت نحو مائتى سنة ، وكانت فاصلا بين الدولة القديمة والدولة الوسطى . فليس من المستغرب أن نلمح بوادر لهذا التطور فى مواعظ كتبت فى عهد الأسرة الخامسة .

ويقول بتاح حوتب :

« إذا وقفت أو قعدت فى البهو فانتظر بهدوء حتى يأتى دورك ، واصغ إلى الخادم الذى يعلن . ومن نودى فله مكان متسع . والبهو له نظامه . وكل ترتيب فيه على حسب خيط القياس . والإله (الملك) هو الذى يعين المكان الأول . ولا يصل الإنسان إلى شىء بالمرفق » .

ففى هذا دليل ساطع على أنه كان يوجد للدخول عند الملك، أو عند العظماء ، نظام دقيق ، وأن دقة هذا النظام كانت تستلزم أدبا خاصا ، هو الذى يسمى الآن « بروتوكولا » . والبهو المشار إليه هنا يشبه ما يعرف فى القصور الآن باسم « قاعة الانتظار » . والخادم الذى يعلن ، هو الموظف الذى يدعو كل من يجىء دوره فى الدخول . وقوله «لا يصل الإنسان إلى شىء بالمرفق» هو نهى عن التزاحم والتدافع .

ومن أدب الجلوس لسماع المظالم قول بتاح حوتب :

« إذا كنت ممن تقدم لهم الشكاوى فكن شفوقا حينما تسمع كلام المتظلم . ولا تسيء معاملته إلى أن يغسل بطنه ، و يقول كل ما جاء من أجله » .

وغسل البطن تعبير مجازى سليم . وسيأتى أن هذا النوع من الأدب تقدم تقدما كبيرا فى عهد الدولة الحديثة .

وقد قلنا من قبل إن المصريين كانوا يحبون الفصاحة فى التعبير ، وضربنا مثلا لذلك وصية الملك خيتى لابنه الملك مرى كارع . فقول بتاح حوتب :

« إذا كنت قادرا ، فاجعل عنايتك فى العلم ، وفى القول الفصيح » .

وقول كاجمنه :

إن المهارة فى الكلام تعلى شأن صاحبها .

يدلان على أن الفصاحة فى القول كانت مطلبا يدعو إليه الحكماء فى كل مكان وزمان .

مواعظ الملك خيتى لابنه الملك مرى كارع

كان الملك خيتى الثالث أحد ملوك الأسرة العاشرة التى كانت قد اتخذت مدينة أهناسيا (هراكليوپوليس) قاعدة لها . وفى مدته ثار عليه القسم الجنوبى من مصر (من طيبة إلى إيلفنتين) بزعامة الأمير أنتف أمير طيبة . وكانت ثورة طيبة هذه من بوادر السيطرة التى بسطتها بعد ذلك على مصر كلها ، كما كانت زعامة أنتف من بوادر تأسيس الأسرة الحادية عشرة .

وكانت مصر قد شهدت إذ ذاك ثورة شعبية على نظام الحكم فيها ، هدمت الدولة القديمة ، وقضت على كثير من تقاليدها ، وداست كثيرا مما كان يعتبر مقدسا فى عهدها . ففى أعقاب هذه الثورة ، و بين الحروب والاضطرابات التى كانت تهدد

بالخطر أهناسيا والأسرة العـاشرة ، كتب خيتى الثالث يوصى ابنـه خيتى الرابع ، أو مرى كارع ، الذى خلفه بعـد ذلك على الملك ، بأن تكون علاقاته حسـنة مع الجنوب[1] ، ويظهر ألمه من انقسام أقاليم الوجه البحرى الشرقيـة حتى صارت كل مدينـة فيها مستقلة ، وصارت الإمارة التى كان يحكمها أمير واحد موزعة بين عشرة أمراء[2] . و بعد ذلك أخذ خيتى يبذل النصائح والمواعظ لابنه فقال[3] :

« كن رحيا ولكن اعرف كيف تعاقب » .

وكانت مصر قـد عانت فى ذلك الوقت آلام الفوضى ، فأوصى خيتى ابنه بأن يكون شديدا فى محاربتها فقال :

« إذا وجدت فى مدينة رجلا خطرا ، كثير الكلام ، محرضا على الشغب ، فامحه من الوجود . اقتله ، وامح اسمـه ، ودمر أصـله ، و بدد أنصاره الذين يحبـونه ... ... إن الرجل المشاغب ينشر الفـوضى فى المدينة ، و يخلق الانقسام بين جيل الشبان ، فاذا عثرت عليه فقدمه للقضاة ودمره ، لأنه عدو . إن الرجل المشاغب الثرثار خطر على المدينة التى هو فيها » .

ويجب فى نظر خيتى أن يكون الملك فصيح اللسان ، قوى الجنان ، يملك الناس ببيانه ، كما يملكهم بحسامه ، قال :

---

(١) كان الملك خيتى حينا كتب هذا قد عقد صلحا مع أنتف أمير طيبة .

(٢) هنا قال الملك خيتى إن الخطـر على مصر فى الناحيـة الشرقية ، يأتى من البدو الأسيو يين ، ثم وصف البدوى الأسيوى فقال :

« تأمل هذا العامو (أو الآمو ومعناه الأسيوى) الحقير ... إنه لا يستطيع أن يبقى فى مكان واحد ، بل ترحل به ساقاه على الدوام . وهو يقاتل منذ أقدم العصور بلا انقطاع ، فلا ينتصر ، ولكنه لا ينهزم . وهو لا يقول متى يشن غارته ، بل ينقض انقضاض اللصوص ... إن هذا الأسيوى ضربة على مصر مرذولة ، ومع ذلك لا يزعجك أمره ، لأنه قد ينهب مسكنا منعزلا ، ولكنه لا يهاجم مدينة مأهولة بالسكان . فأقم حصونا على حدود مصر الشرقية عند قلعة كيمور (بالقرب من وادى الطميلات) وفى الأراضى الشمالية ... » .

(٣) اعتمدنا فى تعريب هذه المواعظ على كتاب « مصر الفرعونية » (L'Eg, Pharaonique) لمورى ص ٢١٧ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٠ . وعلى كتاب (Le Nil et la Civilisation) لمورى ص ٢٩٧ . وعلى كتاب « الديانة المصرية » (La Réligion Eg.) لإرمان ص ١٩٢

« كن رجل فن بارع فى قولك تكن قويا ، لأن اللسان سيف للملك أشد فعلا من القتال . ولا شىء يفاجىء الرجل الفطن . والملك الحكيم يجب أن يكون مدرسة للعظماء الذين حوله . وهو إذا كان حسن الاطلاع لم يخدعه الكذب ، لأن الحقيقة تأتيه خالية من الشوائب » .

وفى كل حكومة مستقرة لابد من عظماء يبرزهم من غمار الناس علمهم أو غناهم :

« فعليك أن تحرك هؤلاء العظماء بحيث يعملون بأوامرك . إن الرجل الغنى يكون صالحا للعمل بنزاهة ، لأنه يجد أكثر مايطلبه حاضرا بين يديه ، فقلما تتطلع نفسه . أما الفقير فقد لاينطق بالحق . إن المحتاج الذى يقول فى نفسه « ليت لى هذا أو ذاك » ليس صالحا للعدل ، لأنه قد يحابى و يميل مع من يرشوه . ما أعظم الملك الذى يكون مستشاروه عظماء ، وما أقوى الملك الذى تكون له حاشية كبيرة منهم[١] » .

ولكن ثورة الشعب كانت قد هدمت الامتيازات الدينية والمدنية التى كان المقربون من الملك يتمتعون بها ، فخيتى يقبل هذه الحالة الجديدة ويقول :

« اجعل الكفاية مقياسك فى استخدام ابن العظيم وابن الصغير ... ... لاتؤذ أحدا بغير حق . إن من الخير لك أن تكون رحيما ، وأن تقيم لنفسك تمثالا من الحب فى القلوب ... ... فان فعلت فسيحمد الناس ذلك لله ، وسيقدرون طيبتك ، وسيدعون لك بالصحة وطول العمر .

أكرم الذين يستحقون الإكرام ، وأحسن معاملة شعبك ، واعمل للمستقبل .

تكلم بالحق يهبك العظماء . واعلم أن من أفضل الأشياء للملك أن يكون ذا قلب سليم ، فانه بذلك يجمع احترام البلاد حوله وحول حاشيته .

كن عادلا واعمل بالعدل مادمت حيا . عز الباكى . واجتنب أن تسىء إلى الأرملة . ولا تحرم أحدا مما تركه له أبوه . ولا تطرد القضاة من كراسيهم . ولا تعاقب بغير ذنب . ولا تضرب فى غير فائدة ... ... ولا تستثن من كل ذلك إلا العاصى الذى فكر ودبر ... ... »

وبعد ذلك ينتقل خيتى إلى الحساب بعد الموت وعدل الآلهة فيه فيقول[٢] :

« ليس لأحد على الأرض أن يقتل ، ولا أن يعمل بما يخالف العدل ، لأنه سوف يؤدى حسابا عن أعماله ... ... إن القضاة المقدسين[٣] الذين يحاكمون الميت لا يتسامحون فى تطبيق الشريعة . فويل حينئذ

(١) يترجم إرمان هذه الفقرة كما يأتى :

« كن كريما مع مستشاريك لأنك بذلك تحميهم من أن يرتشوا » ص ١٣٢ من كتاب (L'Eg. des Pharaons)

(٢) كلمة خيتى هذه بشأن الحساب بعد الموت كنا قد نشرناها فى المجلد الأول ص ١١٢

(٣) القضاة المقدسون هم قضاة محكمة أوزريس .

لبيت من متهميه ... ... لا تغتر بامتداد السنين ، فان حياة الإنسان على الأرض ليست فى نظر القضاة المقدسين سوى لحظة قصيرة ... ... سينشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطئ الثانى[١] . وستكون أعماله مجتمعة بجانبه . إنها الأبدية هناك لاشك فيها ، فمجنون من يحتقرها . أما الذى يأتى بغير ذنوب فسيحيا فيها كما يحيا الآلهة .

إن الحياة على الأرض تمضى على عجل ... ... وامتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكهم . فمن اتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى . من جاز الحساب أمام أوزريس مضى إلى الحياة الأخرى ، أما من تساهل مع نفسه فى الحياة الدنيا فلا مفر له من التدمير .

إن الفضيلة التى يتحلى بها الرجل العادل أفضل فى عين الله من الثور الذى يذبحه الرجل الشرير قربانا له . على أنه ينبغى مع ذلك الرجل أن يفعل ما ينفع روحه فى الحياة الأخرى ، فيقدم القرابين لله ، فان الله يعرف من يفعل له شيئا[٢] .

أنظر ! إن الناس قطيع الله ، وهو يهديهم سواء السبيل . إنهم خلقوا منه وعلى صورته ... ... وقد خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والسمك يتغذون منها ... ... وهو يسمعهم حينما يبكون ويشكون ، وقد جعل لهم رؤساء[٣] هم كالأوصياء عليهم يسندون ظهور الضعفاء منهم ... ... »



كان موضوع المواعظ عند كاجمنه وبتاح حوتب أدب النفس وأدب المجتمع ، أما فى مواعظ خيتى هذه فالموضوع سياسة الحكم . ولهذا لا يتحدث خيتى عن أدب المائدة ، ولا عن أدب المرؤوس نحو رئيسه ، ولا عن دخول البيوت ، ولا عن الزوج وزوجته ، وإنما يتحدث عن حزم الملك فى مقاومته عناصر الشغب ، وعن البطانة التى تلتف حوله ، وعن واجبه فى أن يكون مدرسة لهذه البطانة تتلقى منها الحكمة وحسن القول ، وعن المساواة فى الوظائف بين ابن الكبير وابن الصغير بحيث لا يتميز واحد منهما على الآخر إلا بكفايته ، وعن العقاب الذى يجب ألا يكون إلا لذنب ، وعن الحب الذى ينبغى للملك أن يقيم لنفسه تمثالا منه فى قلوب رعيته ، وعن غير ذلك مما يستقيم به الحكم ويصلح حال الحاكم .

(١) الشاطئ الثانى تعبير كان المصريون يريدون منه الحياة الأخرى .

(٢) إلى هنا ينتهى ما نشرناه فى المجلد الأول . (٣) المراد بالرؤساء هنا الملوك .

وكان خيتي قريب عهد بالثورة واضطراباتها، فلا عجب إذا فاض حديثه عنها قوة وشدة . ولكنه فيما عداها يوصى بالرأفة والرفق والعدل فيقول :

« كن رحيما ، ولكن اعرف كيف تعاقب ... ... لاتؤذ أحدا بغير حق ... ... إن أفضل الأشياء للملك أن يكون ذا قلب سليم » .

ثم يعود إلى العقاب فيقول :

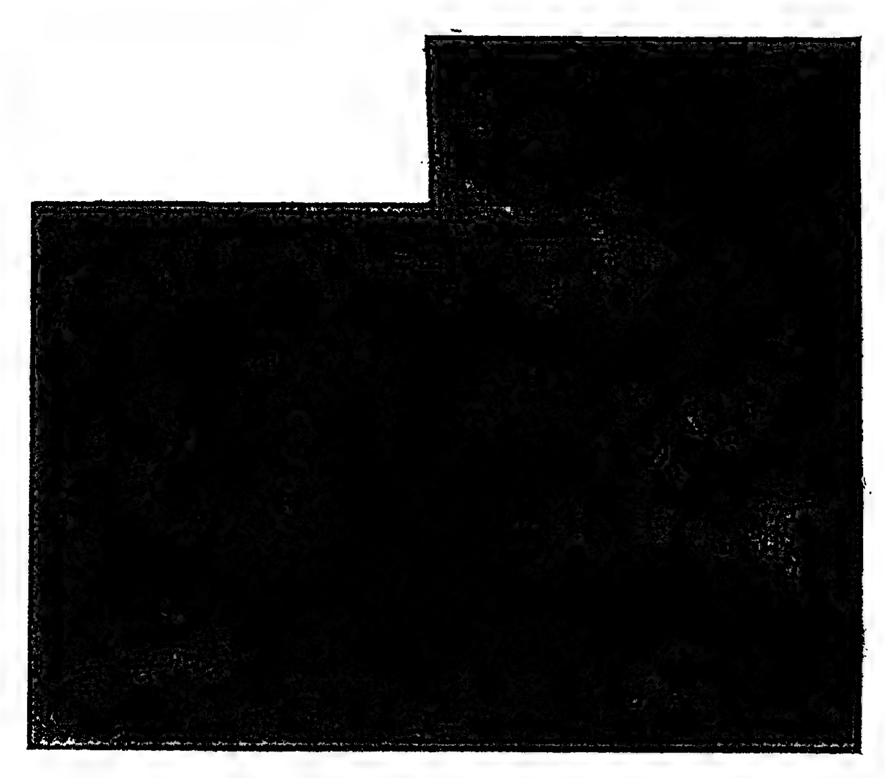
«لاتعاقب بغير ذنب ، ولا تضرب فى غير فائدة ... ... ولا تستثن من ذلك إلا العاصى الذى فكر ودبر» .

وهذه كلها مبادئ سامية تتفق مع مبادئ الحكم الحسن فى عصورنا هذه الحديثة .



الجنود المصريون يضربون بالعصى جاسوسين حيثيين

لما سار رمسيس الثانى لمحاربة الحيثيين فى معركة قادش تحصن ملك الحيثيين والأمراء الأسيويون الذين كانوا حلفاء فى مدينة قادش ثم أرسلوا جاسوسين يضللان المصريين فاعتقلهما المصريون وسألوهما عن المكان الذى احتشد فيه الحيثيون وحلفاؤهم فعينا مكانا بعيدا عن المنطقة التى كان المصريون قد وصلوا إليها . ثم عرف المصريون أن الأسيرين خدعاهم . وفى ذلك الوقت لم يكن مع رمسيس الثانى غير جزء قليل من الجيش المصرى . فاضطر أن يخوض المعركة بمن معه وأرسل إلى بقية الجيش يستعجلها فى القدوم . وانهزم المصريون فى بدء المعركة ، ولكن بقية الجيش جاءت فتحول انهزامهم إلى انتصار



كوكبة من الجنود المصريين حملة الدرق والمزاريق (piquiers)
منقولة عن معبد الدير البحرى

ولمتسائل أن يتساءل ما هو مبدأ خيتى فى تدمير المشاغب والعاصى ومحوهما من الوجود؟ هل هو يوصى بقتلهما من غير محاكمة يثبت فيها الجرم وتثبت الإدانة، أو يوصى بالمحاكمة ثم يكون المحو من الوجود بعد ثبوت الجرم والإدانة .

وإنما وضعنا هذا السؤال لأن خيتى يقول فى مواعظه :

« إن الرجل المشاغب ينشر الفوضى فى المدينة ... فاذا عثرت عليه فقدمه للقضاة » .

فهو هنا يوصى بالمحاكمة، ولكنه يقول فى مكان آخر :

« لا تعاقب بغير ذنب ، ولا تضرب فى غير فائدة ... ولا تستثن من ذلك إلا العاصى الذى فكر ودبر » .

فاذا لم يكن هذا التناقض بين هذين القولين ناشئا من خطأ فى الترجمة من الأصل المصرى، فانه يترك لبسا فى المبدأ الذى يقول به خيتى .

والآن وقد عرضنا لهذا، نرى أن نشير إلى حادثين بارزين فى تاريخ مصر القديم . أولها أن الملكة « ورت حتس » زوجة « ببي الأوّل » ، أحد ملوك الأسرة السادسة، أجرمت فى حق زوجها ، فلم يعاقبها من غير تحقيق قضائى ، بل أمر بالتحقيق القضائى ، وتولاه قاض مقرّب منه كان يسمى « ونى »، فقال هذا الأخير فى نقوش تركها فى قبره (١) :

« أصبحت كبير بيت الزينة فى عهد جلالة ببي الأوّل وقد رقانى جلالته إلى رتبة سمير وكاهن أعظم لأوقافه الجنازية . وبعد ذلك نصبنى جلالته قاضيا لنخن (٢) ورئيس المجلس الأعظم للستة (٣) . وكان قلبه مفعما بى أكثر من كل خدامه الآخرين . وكنت أحقق فى قضاياه وليس معى غير الوزير، بكل تكتم، باسم الملك . وكان ذلك خاصا بالحريم الملكى » .

ثم استمرّ إلى أن قال :

« و بمناسبة قضيته (أى قضية الملك) فى الحريم الملكى ضد الزوجة الملكية ورت حتس ، وقد أديرت سرا ، فان جلالته منحنى القيام بعمل تحقيق ، وقد كنت منفردا ، وليس معى وزير أو عظيم ، لأنى كنت مثال الاستقامة ومحبيا إلى قلب جلالته ، وكان ميالا لى . وقد كنت أنا الذى قام بدور الكاتب ، وكنت حينئذ وحيدا ومعى قاض واحد » .

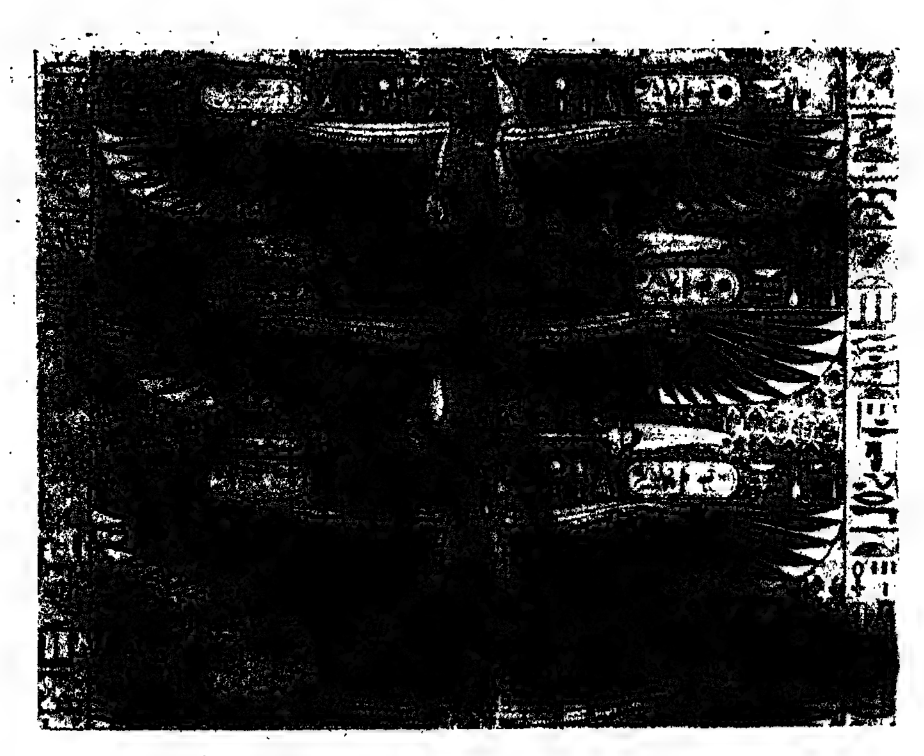
فواضح من هذا أن الملكة ورت حتس كانت قد اتهمت بذنب اقترفته ضدّ الملك ، فأمر الملك بالتحقيق معها . وكان ونى هو الذى تولى هذا التحقيق . ولم يقل ونى، ولم تقل أية نقوش أخرى، ما هو هذا الذنب الذى ارتكبته الملكة ، ولكن العلماء يرجحون أنه كان مؤامرة من مؤامرات القصور .

---

(١) كتاب « مصر القديمة » لسليم حسن بك ص ٣٦٩ من الجزء الأول .

(٢) نخن مدينة قديمة كانت تقع بالقرب من أدفو على الضفة الغربية للنيل . وكانت تقوم أمامها على الضفة الشرقية مدينة أخرى تسمى نخب . وكانت الاثنتان من المدن المقدّسة فى العصور السابقة على اتحاد الوجهين القبلى والبحرى فبقيت لها هذه القداسة بعد اتحاد الوجهين ، وصار لقب « قاضى نخن » من رتب الشرف التى تعطى للقضاة .

(٣) المجلس الأعظم للستة كان من مجالس القضاء فى ذلك العهد .



حلية السقف فى قبر « سبتاح » أحد العظماء فى عصر رمسيس الثالث . وهى تمثل أجنحة عقبان

وأما الحادث الثانى فقد وقع للملك رمسيس الثالث أحد ملوك الأسرة العشرين . وذلك أن زوجة لهذا الملك كانت تسمى تى يى رزقت منه ولدا كان يسمى بنتاءور . ولم يكن بنتاءور هـذا وارثا للعرش بعـد أبيه، بل كان الوارث ابنا آخر من زوجة أخرى ، وهو الذى سمى بعد ذلك رمسيس الرابع . فأرادت تى يى أن تجلس ابنها على العرش، فدبرت مؤامرة اشترك فيها كبير حجاب الملك وعشرة من خدّام الحريم الملكى و بعض كبار الموظفين فى القصر وقائد من قوّاد الجيش وثلاثة من كتّاب الملك وغيرهم . واستطاع هؤلاء المتآمرون أن يستميلوا ستا من نساء الحـرّاس القائمين على أبواب الحـريم ، فأمكن بواسطتهن تبادل الرسائل بين المتآمرين داخل القصر وشركائهم خارجه . وكانت الخطـة فى هـذه المؤامرة اغتيال الملك، و إضرام ثورة فى الوقت نفسه، ينتهز بنتاءور فرصتها فيعتلى العرش و يبعد صاحب الحق فيه .

وجرت هذه المؤامرة إلى غايتها ، وهجم المتآمرون على رمسيس الثالث لاغتياله ، ولكنهم فشلوا ونجا الملك ، ويرجح برستيد أن يكون قد جرح (١) . وعلى أثر ذلك كلف الملك محكمة خاصة مؤلفة من ١٤ قاضيا أن تحاكمهم ، وأصدر بتأليفها أمرا قال فيه (٢) :

« ندبت للحكم فى هذه القضية ... » .

ثم ذكر أسماء القضاة وصفاتهم واحدا واحدا ثم قال :

« أقول لكم بعد ذلك إنى لا أعرف شيئا مما دبره المتهمون ، فعليكم أنتم أن تتثبتوا منه وتفحصوه . ومتى فرغتم من فحصه فعليكم أن تعدموا ، على غير علم منى ، من يستحقون الإعدام منهم ، وأن تعاقبوا الآخرين على غير علم منى أيضا ... واحذروا من أن تعاقبوا أحدا بغير حق ... وأقول لكم بعد ذلك : أما فيما يختص بالمتهمين والأعمال التى وقعت منهم ، فليقع اثم كل آثم على رأسه ، وأما فيما يختص بى فانى محمى من السوء إلى الأبد ، وقد صرت فى عداد الملوك العادلين الماثلين أمام أمون رع ملك الآلهة وأمام أوزوريس رب الأبدية (٣) » .

---

(١) ص ٥٠٧ من الترجمة الفرنسية لكتاب (A History of Eg.) . (٢) المصدر السابق ص ٥٠٧ (٣) .وجدت أوراق هذه القضية كاملة لا ينقص منها إلا قليل . فوجد الأمر الذى أصدره رمسيس الثالث وهو الذى عربناه هنا . ووجدت محاضر المحاكمة والأحكام التى صدرت .

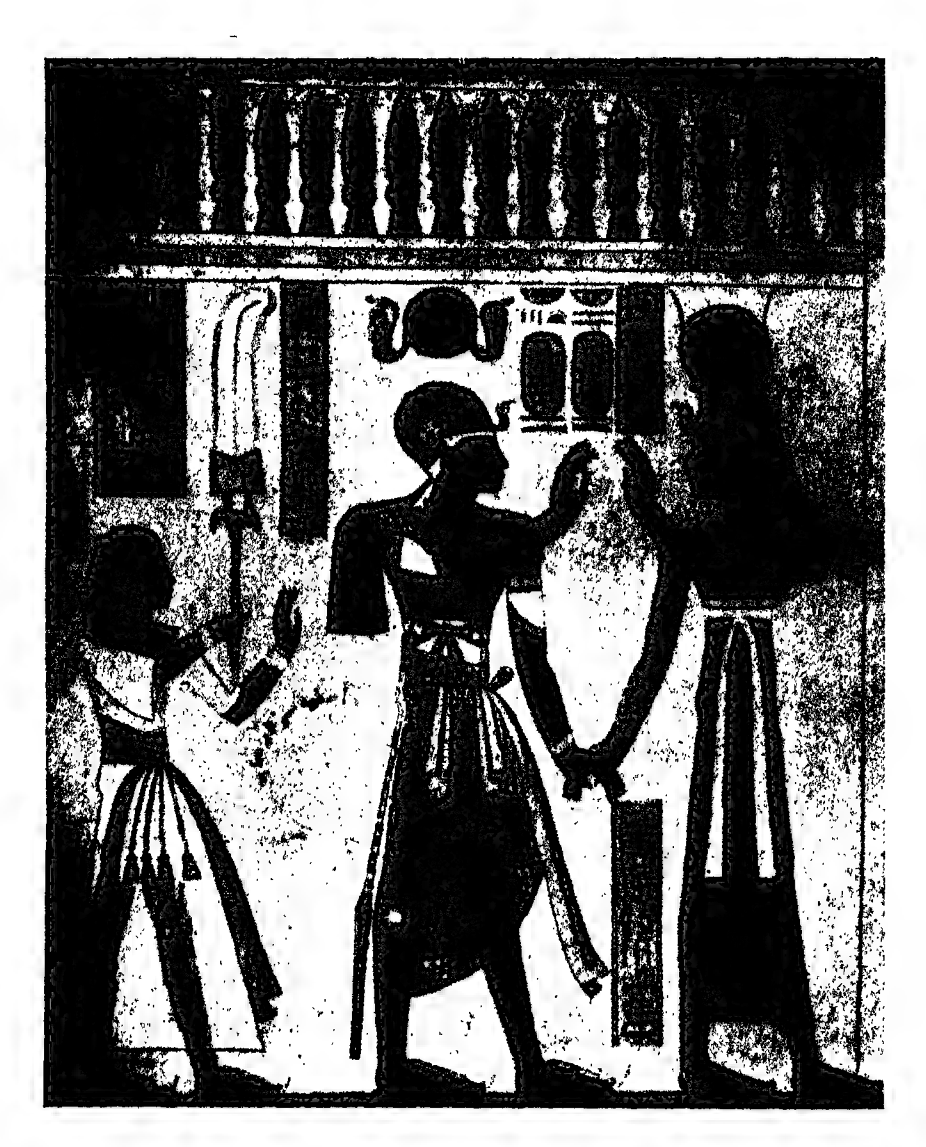
وقد حدث فى خلال المحاكمة أن سعى بعض السيدات المعتقلات إلى اغواء اثنين من قضاة المحكمة ، فعملن لمقابلتهما بوساطة السجانين فنجحن ونقلهن السجانون إلى القاضيين فأمضين معهما ليلة شرب ولهو ، فلم يمض قليل حتى كان الأمر قد عرف ، فقبض على القاضيين والسجانين ، وعلى قاض ثالث اتهم ظلما ، ثم حقق معهم جميعا فظهرت براءة هـذا الأخير فأفرج عنه ، أما الآخرون فحكم عليهم بصلم آذانهم وجدع أنوفهم . وبعد بضعة أيام من تنفيذ هذا الحكم انتحر أحد القاضيين .

أما المؤامرة نفسها فقد صدر فيها الحكم على ٣٢ شخصا من المتآمرين ، بعضهم بالإعدام وبعضهم بأحكام أخرى . وكان الأمير بنتاءور من الذين حكم عليهم بالإعدام فترك له أن يقتل نفسه ففعل . ولم يعرف الحكم الذى صدر على أمه تى‌يى .

وقول رمسيس الثالث : « ... أما أنا فانى محمى من السوء إلى الأبد ، وقد صرت فى عداد الملوك العادلين الماثلين أمام أمون رع ملك الآلهة وأمام أوزوريس رب الأبدية » معناه أن الملك كان يشعر بأن آخرته دنت وأنه عما قريب سينتقل إلى الحياة الأخرى .

ويظن بعض العلماء ، ومنهم إرمان ، أن رمسيس الثالث قتل فى هذه المؤامرة وأن الأمر الذى صدر بتأليف المحكمة كتب باسمه بعد وفاته .

(لوحـــة رقـــم ٧)



الملك رمسيس الثالث أمام إيزيس ومن خلفه ابنه الأمير « امن — نحى — بشيف » .
وكان من عادة الأمراء الشبان أن يضعوا على رؤوسهم حلية تتدلى إلى الجهة اليمنى وهى تظهر هنا

ففى هــذين الحادثين ، حادث المـؤامرة على بيبى الأوّل وحادث المـؤامرة على رمسيس الثـالث ، لم ينـدفع الملكان بالغضب فيبعثا بالمتآمرين إلى الإعدام بلا تحقيق ولا محاكمة . وإذا قيل إن المؤامرة فى الحادث الأوّل مشكوك فيها ، فانها فى الثانى لا شك فيها ، وقد شرع المتآمرون فى اغتيال رمسيس الثالث ، ومع ذلك لم يفعل هــذا الأخير غير أن أحالهم إلى التحقيق والمحاكمة ، وقال للقضاة إنه لا يعرف شيئا ممــا دبروه ضــدّه ، أى انه يمتنع من أن يشير عليهم برأى أو عمل ، ويترك لهم أن يتبينوا الجريمة ونصيب كل مجرم فيها ، حتى إذا فرغوا من ذلك أنزلوا العقاب بكل من يستحقه من غير أن يراجعوه . وهو فى هــذا كله يحذرهم من أن يعاقبوا بغير حق .

والذين قرأوا ولو بعض الشيء من تواريخ الأمم ، يعرفون أن كثيرا من الملوك فى الشرق والغــرب ، كانوا إلى أزمنة قريبة ، إذا غضبوا على أمير أو وزير أو عظيم دفعوا به إلى سيف السياف ، أو إلى السجن يدخل عليه فيــه من يقتله ، بلا تحقيق ولا محاكمة . ويعــرف قرّاء التاريخ أيضا أن هــذا هو الذى كان فاشيا فى أوربا فى العصور الوسطى ، وأنه كان يفعله الملوك فى ممالكهم والأمراء فى إماراتهم . فهذا الذى فعله بيبى الأوّل منذ نحو خمسة آلاف سنة ، وفعله رمسيس الثالث منذ أكثر من ثلاثة آلاف ســنة يدل على تمسك بالعــدل كانت مصر وحدها هى التى تعرفه فى تلك العصور القديمة .

ولسنا نزعم أن جميع ملوك مصر كانوا يفعلون مثل بيبى الأوّل ورمسيس الثالث ، ولكننا نزعم أن هــذين الملكين لم يفعلا ما فعلاه — وبين أحدهما والثانى أكثر من ألف سنة — إلا وقد عرفا أن حب العدل كان من أقوى الفضائل عند الأمة المصرية ، وفى القوانين المصرية .

وقد كان كذلك فى الواقع . وهــذا هو الذى حدا بنا إلى الوقوف لحظة عند قول خيتى .

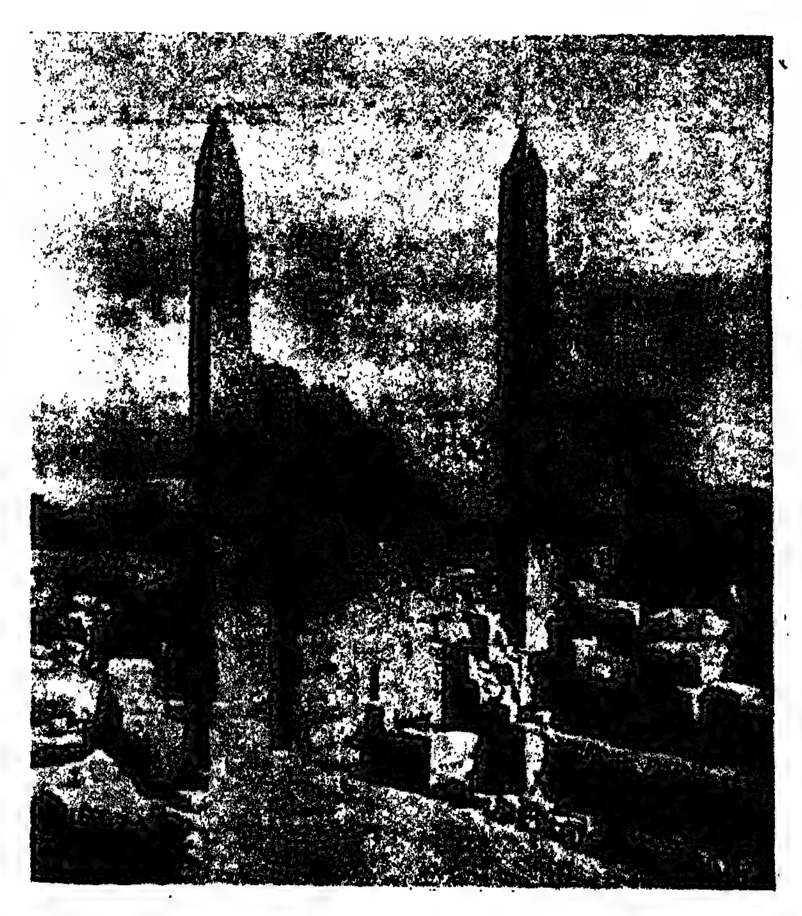
« لا تعاقب بغير ذنب ، ولا تضرب فى غير فائدة » .

ثم عند قوله :

« إن الرجل المشاغب ينشر الفوضى فى المدينة ... ... فاذا عثرت عليه فقدمه للقضاة » .

⁂

ومما هو جدير بالملاحظة فى مواعظ خيتى أنه لا يوصى ابنه الذى سيلى العرش من بعده بأن يكون إلها لشعبه ، يستمدّ سلطته من قداسة الألوهية ، بل يوصيه بأن يكون حاكما رحيما، عادلا ، يتألف عظماء دولته، و يقيم لنفسه تمثالا من الحب فى قلوب رعيته .



مسلتا تحوتمس الأوّل والملكة حتشبسوت فى الكرنك

وهنا يهتم خيتى بأن يذكر ابنــه بأنه سيؤدّى حسابا عن أعمــاله أمام محكمــة أوزريس وقضاتها المقدّسين . ويقول له إن هؤلاء القضاة لا يتسامحون فى تطبيق الشريعة، وإن أعماله ستكون مجموعة بجانبه فى هذه المحكمة، فعليه أن يستحق البراءة أمامها والسعادة الخالدة فى الحياة الأخرى بأعمــاله تلك ، لا أن يعتمد على أنه إله أو سليل آلهة وأنه بهذا وحده يستحق البراءة والخلود ولو كانت أعماله فى الدنيا سيئة .

ومما يتمشى مع هذا المعنى قول خيتى بعد ذلك إن الله جعل للناس « رؤساءهم كالأوصياء عليهم يسندون ظهور الضعفاء منهم » . والرؤساء هنا هم الملوك، فهم فى نظر خيتى أوصياء يسندون ظهور الضعفاء لا آلهة يعبدهم الناس .

وهذه نظرة للملك ومركزه من أمته تعتبر جديدة فى وقت كان الملوك فيه يعبدون. وصدورها من ملك يوصى بها ابنه الذى سيصير ملكا أمر يستحق التقدير ، ويحمل على الظن بأنها كانت بعض ما أوحت به الثورة .

ولكن هذا المعنى لم يعمر طويلا، لأن الثورة قمعت، ولأن نظام الحكم الملكى عاد بعد قمعها قويا على يد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة ثم على يد الأسرة الثامنة عشرة، فعاد الملوك يعتبرون أنفسهم أبناء الآلهــة، وعاد الشعب يقبل منهم هذا الاعتبار، ولكن مع شىء من التخفيف، بحيث لم تبق ألوهية الملك كما كانت فى عهد الدولة القديمة وإن تكن قد بقيت قريبة منها . ثم أخذت المدنية المصرية تنحدر إلى الانحطاط فانحدرت معها العقائد إلى كثير من الأوهام .



وفى مواعظ خيتى معنى بارز تردّد من بعده فى التوراة وهو قوله :

« إن الفضــيلة التى يتحلى بهــا الرجل العادل أفضــل فى عين الله من الثور الذى يذبحه الرجل الشرير قربانا له » .

ونقول إن هــذا المعنى بارز لأن الأساطير والتقاليد القديمة كانت قــد جرت بالإعلاء من شأن القرابين التى تقدّم للآلهة حتى لقد اعتقد العامة أنها كافية فى تبرئة المذنب من ذنوبه . فصيحة خيتى هذه تقضى على هذا الاعتقاد وترد الأمر إلى نصابه .

وقـد تردّد هـذا المعنى فى غير موضع من التوراة . و بمـا أن للتوراة نسختين عربيتين إحداهما نسخة « الجمعيـة الأميركانية » والثانية نسخة « الآباء المرسلين اليسوعيين » فتثبت هنا ما نشـير إليه من نصوص التوراة فى كل نسخة من هاتين النسختين .

ففى النسخة الأميركانيـة أن الآية الثامنة من الأصحاح الخامس عشر من سفر الأمثال تقول :

« ذبيحة الأشرار مكرهة الرب، وصلاة المستقيمين مرضاته »

وفى نسخة الآباء اليسوعيين أن هذه الآية نفسها تقول :

« ذبيحة المنافقين رجس عند الرب وصلاة المستقيمين مرضاته »

ولم يرد هـذا المعنى فى هـذه الآية وحدها ، بل ورد فى آية أخرى أيضا ، هى الآية الثالثة من الأصحاح الحادى والعشرين من سـفر الأمثال ، وهـذا نصها فى النسخة الأميركانية :

« إجراء العدل والحكم أفضل عند الرب من الذبيحة »

وهى بهذا النص نفسه فى النسخة اليسوعية .

ويرى كثير من العلماء ، نذكر منهم إرمان وهومبرت[1] وجولنيشيف، أن المعنى فى كلمة خيتى وفى هذه الآيات واحد. وهو واحد فى الواقع، وقد كان لنا أن نستغنى بذلك عن ذكر هؤلاء العلماء ، ولكننا ذكرناهم لنعطى الحق لأصحابه .

غير أن خيتى الذى كسر قيود التقاليد فى كلمته تلك، لم يستطع أن يقطع كل صلة له بهذه التقاليد، بل بقيت بقية منها عالقة به، فعاد يقول :

«على أنه ينبغى مع ذلك للرجل أن يفعل ماينفع روحه فى الحياة الأخرى، فيقدم القرابين لله، فان الله يعرف من يفعل له شيئا »

وفى هـذا وحده دليل على مقدار ما كان للاعتقاد فى القرابين من سلطان على النفوس .

---

(١) (Paul Humbert)

*
* *

ويقول خيتى بعد ذلك :

« انظر ! إن الناس قطيع الله ، وهو يهديهم سواء السبيل . إنهم خلقوا منه وعلى صورته »

وهذا يكاد ينقلنا إلى عصر التوراة وأسلوب تحريرها، والتوراة تقول فى الاصحاح الخامس من سفر التكوين :

« هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على شبه الله ... الخ » .

مواعظ أمنحت
لابنه سنوسريت الأول

الملك أمنحت الأول هو مؤسس الأسرة الثانية عشرة، وكانت مصر قبل عهده تشكو من النفوذ الواسع الذى كان حكام الأقاليم قد انتزعوه من ضعف الملوك السابقين، وكان نفوذهم هذا علة من علل انتشار الفوضى، فقضى عليه أمنحت ، فاستتب له الملك ، وقاد الجيوش إلى غزوات فى النوبة وسع بها حدود مصر الجنوبية ، وبنى على حدودها الشرقية سورا من المعاقل يمنع إغارات الاسيويين عليها .

وقد تمتعت مصر فى عهده بالنظام والهدوء والرخاء ، ولكنه استهدف فى شيخوخته لمؤامرة، كاد مدبروها أن يغتالوه وهو نائم فى قصره، لولا أنه استيقظ، وتسلح، ودافع عن نفسه، فنجح وردهم خاسرين .

وحملته هذه المؤامرة على أن يفكر، وكان قد أشرف على السبعين من عمره، فأشرك معه فى الحكم ابنه سنوسريت الأول (سيزوستريس الأول) ، وكتب بعد ذلك مواعظ لابنه هذا بدأها بذكر المؤامرة فقال :

« كان ذلك بعـد أن تناولت عشائى وأرخى الليل سدوله . لقد أردت حينذاك أن أستريح ساعة ، فتمددت على سريرى وأخذ النوم يداعب أجفانى ، وإذا بى أسمع قعقعة أسلحة ، فهببت منتفضا ، وأخذت سلاحى ، ورددت الشقى وحدى .

لقد حدث هـذا الحادث الفظيع حينما كنت أنت بعيدا عنى ، وكانت الحاشية لا تعلم أنى أنقل السلطة إليك ، ولم أكن أقيم معك . فالآن فلنحكم معا ، لأنهم صاروا لا يخافون منى ولا يطيعوننى » .

ثم قال إنه لم يكن يستحق هـذه المؤامرة ، لأنه بسـط الخير ، ووسع حدود مصر ، وكان النيل يحييه فى كل مكان ، ولم يوجد فى عهده جوع ولا ظمأ ، وكان الكل يعيشون هانئين يتحدثون بذكره . قال :

« وكان كل ما آمر به عدلا ، وقـد قمعت أعداء الجنـوب ، وجعلت البـدو يسيرون خلفى كالكلاب » .

ثم شرع يوصى ابنه فقال [1] :

« التفت جدّ الالتفات لما أوصيك به هنا .
لكى تصبح ملك الأرض وسيدها .
ولكى تنمى ثروتك .
كن شديدا على مرءوسيك .
فقد جبل الناس على ألا يحفلوا إلا بمن يخافونه .
لا تقترب من أحد وأنت وحدك .
لا تشغل نفسك بالتفكير فى أخ لك .
لا تتخذ أصدقاء .
ولا أصفياء أخصاء .
فانك لا تكسب بهم شيئا .
وإذا مضيت إلى النوم فلا تفكر إلا فى نفسك .

---

(١) اعتمدنا فى تعريب هـذه المواعظ على برستيد ص ١٨١ و ١٨٢ من الترجمة الفرنسية لكتابه (A History of Eg.)

لأنه متى جاء يوم الجريمة .
لم يبق للملك شعبه .
لقـد أعطيت السائل .
وأطعمت اليتيم .
وكان أقل الناس مستطيعا أن يصل إلىّ .
كما يستطيعه الرجل العظيم .
ومع ذلك ثار على من أكل خبزى .
وكان من مددت له يدى هو الذى ترك عليها آثار الفزع » .



هـذه المواعظ مستمدة كلها من المؤامرة التى كان أمنمحت هدفا لها ، فقـد خيبت هذه المؤامرة آمالا واسعة كانت له فى الناس ، بعد أن أسدى إليهم العدل والنظام والخـير فى حكمه . وكانت هـذه الخيبة مرة على نفسه ، مؤلمة لهـا ، فبدا فى مواعظه أنانيا حذرا ، ولكنه فى أنانيته وحذره جاء بما ينم عن حكمة و بعد نظر . ومن منا يقرأ قوله « جبل الناس على ألا يحفلوا إلا بمن يخافونه » فلا يجد مصداقه فيما يقـع له كل يوم . ومن منا يقرأ قوله « لقـد أعطيت السائل ، وأطعمت اليتيم ، وكان أقل النـاس مستطيعا أن يصل إلىّ ، كما يستطيعه الرجل العظيم ، ومع ذلك ثار علىّ من أكل خبزى ، وكان من مددت له يدى هو الذى ترك عليها آثار الفزع » فلا يشعر بمـا تنضح به هذه الكلمات من المرارة ، ولا يقول «قتل الانسان ما أكفره» .

و ينظـر أمنمحت فى قوله « متى جاء يوم الجريمة لم يبق للملك شعبه » إلى ما وقـع له ، إذ أراد المتآمرون اغتياله ، وهجم عليه واحد منهم ، فلم يكن الشعب بجانبه ، ولم ينجه إلا إسراعه إلى سلاحه ونجاحه فى مقابلة المعتدي به .

مواعظ آنى لابنه خنسو حوتب

لم يكن آنى ملكا ولا وزيرا، وإنما كان كاتبا عاش فى عصور الدولة الحديثة[١]، وقد وضع مواعظ يعظ بها ابنه خنسو حوتب فنلخص المهم منها هنا . قال[٢] :

« إذا دخلت بيت غيرك فلا تلق بالك لما تراه منتقدا . فان وقعت عينك على شىء منتقد، فاسكت ولا تحدث به أحدا فى الخارج، لئلا يلومك عليه من يسمعك .

لا تفش سرا، وإذا تحدث أحد فى دارك بسر، فكن كأنك لم تسمعه .

إذا رأيت من هو أعلى منك مغضبا فلا ترد عليه متحديا، ولكن ابتعد من طريقه . وإذا أجبت على كلماته المرة فأجب بلسان لين، وهدىء قلبه، فسترى أنه متى انقضت ساعة غضبه ارتد حامدا لك مافعلته .

لا تفض لكل إنسان بذات نفسك، فان الكلمة الطائشة قد تخرج من فك فتخلف لك أعداء إذا نقلت عنك . والمرء قد يقضى على نفسه بفلتات لسانه .

الإنسان مخزن لأنواع مختلفة من الأجوبة، فاذا أجبت فاختر الجواب الحسن منها، واترك الردىء مخزونا .

لا تدخل المحكمة ولا تخرج منها، لئلا تسوء سمعتك . وابتعد عن الجمهور الذى تراه متحفزا لضربك لئلا يلومك قضاة المحكمة على اختلاطك به .

اجتنب كل ما ينافى الآداب وحسن الأخلاق .

---

(١) مواعظ آنى وجدت فى ورقة يرجع عهدها إلى الأسرة الثانية والعشرين (من ٩٤٥ إلى ٧٤٥) على ما يرى أكثر العلماء ومنهم إرمان . ولكن مولر (Moller) يرى أن هذه الورقة ترجع إلى عهد الأسرة الواحدة والعشرين (من ١٠٩٠ إلى ٩٤٥) .

(٢) ترجم إرمان هذه المواعظ إلى اللغة الألمانية ترجمة حرفية فى كتابه (Die Literatur der Ægypter) ونقلها إلى الانجليزية مترجم كتابه هذا وقد سبقت الإشارة إليه . ثم عاد إرمان فلخص هذه المواعظ فى كتابه الذى ترجم إلى الفرنسية باسم (L'Eg. des Pharaons) . فعلى هذا التلخيص نعتمد هنا . ص ٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٧

لا تكثر من شرب الخمر لأنك إذا سكرت وانكسر عضو من أعضاء جسمك ، لم تجد من يمد لك يده ، بل يقول رفقاؤك : "ليطرح هـذا السكران بعيـدا عنا" . ثم إذا جاءك من يبحثون عنك لسؤالك ، وجدوك ممددا على الأرض كالطفل .

احترم الناس . ولا تقعد حينما يكون واقفا من هو أكبر منك سـنا ، أو من هو أعلى منـك مرتبة فى سلك عملك .

وعليك قبل كل شيء أن تمجد أبويك ، فاسكب المـاء لأبيك وأمك اللذين يرقدان فى الوادى البلقع[١] .

أعط أمك كثيرا من الخبز واحملها كما حملتك . لقـد تعبت فى حملك وأنت جنين . ثم لمـا وضعتك بقيت تحملك على كتفها ، وبقى ثديها فى فك ثلاث سنوات . ولم تتأذ قط من فضلاتك . وقد أدخلتك بعد ذلك المدرسة لتعليمك الكتابة . وكانت تقف كل يوم بجانبـك تقدم لك من عنـدها خبزا وجعة . فاذا ما كبرت وتزوجت وصار لك بيت تقوم عليه ، فتذكر دائمـا أن أمك هى التى ولدتك . وليكن من حظك ألا تجد أمك هـذه ما يحملها على لومك ، ولا على أن ترفع يدها إلى الله شاكية ، ولا أن يسمعها الله صائحة منك[٢] .

اتخذ لنفسك زوجة وأنت شاب لتهبك ابنا . ينبغى أن يكون لك ولد فى شبابك لتحيا حتى تراه صار رجلا . ما أسعد الرجل ذا الأهل الكثيرين ، والمحترم من أجل أولاده .

لن لزوجتك ولا تكن فظا معها إذا كنت تعرف أنها طيبة . ولا تقل لها "أين هـذا ؟ هاتيه" إذا كانت قد وضعته فى موضعه . انظر بعينيـك وأنت صامت لتعرف أعمالـها الطيبة . إنها تكون سعيدة حين تكون يدك معها ... ... وبهذا يجتنب الرجل إثارة النزاع فى بيته .

ترقب الموت فى كل وقت ، لأنه لابد من يوم يجيئك فيـه رسوله ، وحينئذ لا تقل له "كيف تجيئنى وأنا حديث السن" ، فان الموت يقبض الطفل الذى لا يزال على ثدى أمه كما يقبض الرجل المـسن . ولهذا يجب أن تعد مكانا طيبا فى وادى الصحراء[٣] ليدفن فيه جثمانك يوما من الأيام .

---

(١) المراد بالوادى البلقع المكان الذى فيه مقابر الموتى .

(٢) مر فى ص ١٠٦ و ١٠٧ تعريب لهذه القطعة الخاصة بفضل الأم على ولدها اعتمدنا فيه على مصدر آخر هو كتاب (Le Nil et la Civilisation) لموري ص ٥٣٦ ، وليس بين تعريبها هنا وتعريبها هناك سوى اختلاف فى ألفاظ قليلة .

(٣) المراد بوادى الصحراء المكان الذى فيه مقابر الأموات .

قدم قرابين لإلمك ، ولكن لا تأثم ... ... لا تفرض نفسك على موكبه ، ولا تزاحم بمرفقيك لحمله[1] ... خف الله واتق غضبه . إنه هو الذى يهب الحياة للملايين من المخلوقات ، ولن يكون كبيرا إلا من أراد له أن يكونه .

وإذا صليت لله فمن العبث أن تجهر ، أو تصيح . صل بقلب مؤمن يخاطب الله فى غير إعلان ، يقض الله حاجتك ويستجيب لدعواتك » .



بمواعظ آنى هـذه نخرج من سياسة الحكم التى رأيناها فى مواعظ امنمحت وخيتى ، ونعود إلى أدب النفس وأدب المجتمع اللذين رأيناهما فى مواعظ كاجمنه وبتاح حوتب . ولكن الزمن والمجتمع هنا تقدما فظهر أثر تقدمهما على لسان آنى ، فجاءت مواعظه وكأن كثيرا منها لحكيم عاش فى عصور قريبة منا ، لا فى عصور مضى عليها نحو ثلاثة آلاف سنة .



كوكبة من الجنود المصريين حملة السهام (arches) منقولة عن معبد الدير البحرى

---

(١) كانت للمعبودات مواكب موسمية تحمل فيها تماثيلها ويطاف بها داخل المعبد أو من معبد إلى معبد ، فهذه المواكب هى التى يشير إليها فى قوله هذا . وكان المعبود أمون يطاف به من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر رائحا وغاديا .

وتفيض هـذه المواعظ حنانا على الأبوين ، وتذكر الابن بفضل أمه عليه إذ حملته ، وإذ أرضعته ، وإذ ربته ، وإذ غذته ، وإذ وقفت عليه كل عنايتها وحبها إلى أن تعلم وصار رجلا .

ويذكر آنى الزوجة فيقول :

" اتخذ لنفسك زوجة وأنت شاب لتهبك ابنا . ينبغى أن يكون لك ولد فى شبابك لتحيا حتى تراه صار رجلا . ما أسعد الرجل ذا الأهل الكثيرين ، والمحترم من أجل أولاده " .

وقد تقدم أن بتاح حوتب قال فى مواعظه :

" إذا بلغت شأوا فى عملك فأسس لنفسك بيتا " .

فظاهر من ذلك أن الزواج المبكر كان من الفضائل التى يحث عليها الحكماء فى الدولة القديمة والدولة الحديثة . ولم يحث الحكماء على الزواج وحده ، بل حثوا معه على أن تكون العلاقة بين الزوج وزوجته علاقة حب ورفق واحترام .

قال آنى :

" لن لزوجتك ولا تكن فظا معها إذا كنت تعرف أنها طيبة . ولا تقل لها « أين هذا ؟ هاتيه » إذا كانت قد وضعته فى موضعه . أنظر بعينك وأنت صامت لتعرف أعمالها الطيبة . إنها تكون سعيدة حين تكون يدك معها ... ... وبهذا يجتنب الرجل إثارة النزاع فى بيته " .

وقال بتاح حوتب :

" أحب زوجتك وأشبع بطنها واكسها . قدم لها الطيوب والعطور وأفرح قلبها ما دامت على قيد الحياة فانها حقل طيب لسيدها " .

ثم قال :

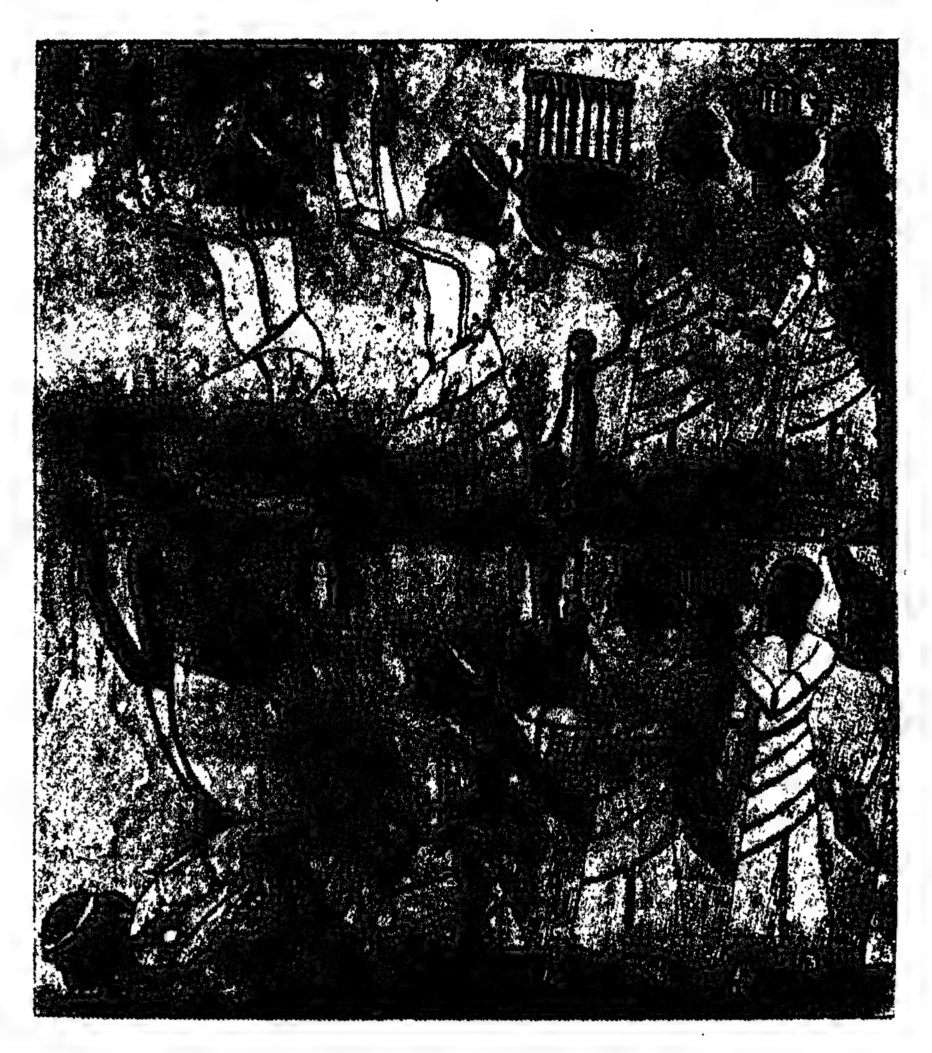
" لا تعنف زوجتك بل دعها منشرحة الصدر أكثر من نساء بلدها ، فانها تستقيم إذا كان الحبل لها لينا . لا تنفرها بل قدم لها ما تستحسنه " .

وهذه كلها وصايا تشف عن تقدير حق للأسرة والبيت ، وعن إدراك صحيح لقيمتهما فى حياة الفرد وحياة الأمة . والأسرة والبيت هما من الدعامات القوية التى قام عليها بناء المدنية المصرية .

⁂

ولكن أعظم ما تمتاز به مواعظ آنى هو ما فيها عن القرابين ، والصلاة ، والخوف من الله . فقد رأينا خيتى يقول :

" إن الفضيلة التي يتحلى بها الرجل العادل أفضل فى عين الله من الثور الذى يذبحه الرجل الشرير قربانا له " .



جماعة من أهل « لوتانو » يقدمون لفرعون الجزية فى شكل مصنوعات من المعادن الكريمة . و«لوتانو» كانت إقليما من أقاليم سوريا الشمالية عند نهر « اورنت » الذى يعرف الآن باسم نهر العاصى

ورأينا هذا المعنى تردّد بعد ذلك فى التوراة بألفاظ أخرى .

فهنا نرى آنى يحوم حول هذا المعنى نفسه فى قوله :

" قدم قرابين لإلهك ولكن لا تأثم " .

فتقديم القرابين لا يزال مطلوبا ، ولكنه لا يبيح الاثم ولا ينجى من الحساب ، وهنا يوصى آنى بالخوف من الله واتقاء غضبه ، ثم يخطو خطوة إلى الأمام فيقول :

" وإذا صليت لله فن العبث أن تجهر ، أو تصيح . صل بقلب مؤمن يخاطب الله فى غير إعلان ، يقض الله حاجتك ويستجب لدعواتك " .

فالصلاة عند آنى هى صلاة القلب المؤمن الذى يتجه إلى الله فى غير إعلان ، أو بمعنى أدق فى غير قصد إلى الإعلان . أما الجهر بالصلاة لقصد الإعلان ، والمزاحمة بالمرفقين لحمل الإله فى موكبه ، وأمثال هذا وذاك من المظاهر ، فقد يصاحبها قلب مؤمن أو لا ، فان كانت الأولى فالإيمان القلبى والاتجاه القلبى هما الجوهر والمظاهر هى العرض ، وإن كانت الثانية فهى رياء لا يجوز على الله .

وهذا فهم للعبادة ينقلها من المظاهر الخارجية إلى المعانى القلبية ، أو هو على الأقل يجعل التقدم فيها لهذه المعانى .

مواعظ امنحوبى لابنه

كان أمنحوبى ، أو « أمن — إم — اوپ » مديرا للغلال وسجلات مسح الأراضى . وقد وضع مواعظ فى ثلاثين فصلا لابنه ، كى يهتدى بها فيصير موظفا ناجحا مذكورا عند الناس بالإنصاف ودماثة الأخلاق .

ولم يعرف بالدقة الوقت الذى عاش فيه امنحوبى ، ولهذا اختلف العلماء فى تحديد عصره . فإرمان ولانج[١] يريان أنه عاش فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين (١٠٨٥ — ٩٥٠) أو الثانية والعشرين (٩٥٠ — ٧٣٠)، وجاردنر[٢] يرى أنه عاش فى عهد الأسرة العشرين (١٢٠٠ — ١٠٨٥)، وجريفيث[٣] يضعه فيما بين الأسرة العشرين والأسرة الخامسة والعشرين (٧٥١—٦٥٦) .

وقد اهتم العلماء بهذه المواعظ وكتبوا مباحث وكتبا كثيرة لأنهم وجدوا فيها شبها ظاهرا ببعض النصوص فى سفر الأمثال من أسفار التوراة . وكان السير واليس بدج[٤] أول من عثر عليها وترجمها . وكان إرمان أول من نبه فى سنة ١٩٢٤ إلى الشبه الذى بينها وبين سفر الأمثال . ثم قضى على أثره علماء كثيرون نذكر منهم جريسمان[٥]، وسيلين[٦]، وجريم[٧]، وجاردنر، وجريفيث، وسمسون[٨]، وكيمر[٩]، ومالون[١٠]، ولانج، وهومبرت[١١] .

هؤلاء العلماء كلهم ، وغيرهم ، كتبوا عن مواعظ أمنحوبى وصلتها بسفر الأمثال، بعد أن نبه إرمان إلى هذه الصلة وأقام أدلته عليها . وليس هنا محل الخوض فى هذا، لأن محله سيكون فى باب «أثر الأدب المصرى فى الأدب العبرى»، فنكتفى هنا بأن نلخص المواعظ[١٢]، وسنعود إليها فيما بعد بشىء من التوسع .

---

(١) M. Lange (٢) Alan Gardiner وهو عالم إنجليزى يعتبر ثقة فيما يترجمه من النصوص المصرية القديمة .

(٣) Griffith وهو عالم إنجليزى ترجم كثيرا من النصوص المصرية القديمة .

(٤) Sir Wallis Budge (٥) Gressman (٦) Sellin

(٧) Grimme (٨) Simpson (٩) Keimer

(١٠) Mallon (١١) P. Humbert

(١٢) نعتمد هنا على ملخص وضعه إرمان لهذه المواعظ فى كتابه الألمانى الذى ترجم إلى الفرنسية باسم (L'Eg. des Pharaons) ص ٢٧٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩

يوصى أمنحوبى الكاتب والموظف بأن يجانبا الصلف والكبرياء ، وأن يكونا على كثير من اللين والتواضع ودماثة الأخلاق، لأنهما بذلك يكسبان رضا الله.

ويوصى بأن يعرف الرجل كيف يصمت، وأن يكون وديعا، خاشعا، راضيا بما يعطيه الله . ثم يقول :

« إذا رأيت رجلا تغلى به شهواته فاجتنبه ولا تقتد به، فانه كشجرة فى الغابة تقطع وتضرم بها النار فى مكان ما . أما الرجل الذى يعرف كيف يكون قليل الكلام فمثله كمثل شجرة قائمة أمام صاحبها، موقرة بالثمار، ولها ظل وارف محبوب » .

ويضع أمنحوبى الشرف ، ودقة الموظف فى أعماله ، فى أسمى مراتب الأخلاق . ثم يقول :

« لا تغير حدا (١)

لا تغش فى ميزان أو كيل ، ولا تدع أحدا يخدعك .

احكم بالعدل ولا تظلم الفقير لمصلحة الغنى ، ولا تطرد من تراه ذا ثياب بالية ، لا تكن قاسيا فى جباية الضرائب ، وإذا وجدت فقيرا تراكمت عليه ضرائب متأخرة لعجزه عن دفعها فاجعلها ثلاثة أثلاث ، ثم ألق بثلثين منها ، ولا تبق غير ثلث واحد .

ما تفعله ظالما لا يبارك الله لك فيه . فكيل واحد يعطيك إياه الله خير لك من خمسة آلاف كيل تأخذها ظلما . إن الثروة التى تجمعها ظلما لا تقيم عندك ليلة واحدة ، لأنها لا يأتى عليها الصباح حتى تكون قد هجرت دارك . وأنت حينئذ تنظر إلى المكان الذى كانت فيه ، فتبحث عنها فتعلم أن الأرض فتحت فها وابتلعتها ، أو أن أجنحة كأجنحة الأوز نبتت لها فطارت بها إلى السماء .

لأن تجد خبزا ويكون قلبك راضيا ، خير لك من أن تكون غنيا وذا هموم .

لا تجعل الكسب همك الأول فى كل شىء . وإذا صنعت مركبا تعبر النهر فلا تجعل غرضك الأول منها أن تأخذ من الناس أجرة عبورهم عليها . ولا تأخذ هذه الأجرة إلا من الأغنياء . وإذا بقى فى مركبك مكان خال فلا تمنع أحدا منه (٢) .

(١) المراد بالحد هنا حدود الأراضى .

(٢) علق إرمان على هذا فقال إن صنع المراكب لعبور النهر عليها بالأجرة عمل مصرى محض قل أن يجرى على لسان كاتب غير مصرى . وسيأتى مغزى هذه الملاحظة وملاحظات أخرى تماثلها .

لا تضحك من أعمى، ولا تزدر قزما . ولا تعذب مقعدا . ولا تسخر ممن هو فى يد الله[١] . فان امتيازك على غيرك فى هذا كله هو امتياز لا فضل لك فيه . إن الإنسان ليس سوى طين وقش، والله صانعه، والله يبنى يوما ويهدم يوما .

أحسن معاملة الأرملة، وارع القريب . واعلم أن الله يحب من يدخل السرور على قلب الفقير أكثر ممن يمجد العظيم .

ليس شىء كامل أمام الله[٢] . لا تقل : « أنا خال من الذنوب » ، فان الله وحده هو الذى يعرف المذنب والبرئ .

لا تدع الهم يتسلط عليك فى الليل طلبا لمعرفة ما ذا ينتظرك فى الغد، إذ كيف يمكن الإنسان أن يعرف ما ذا له فى غده ؟

وجه حياتك بحيث متى جاءك اليوم الذى تحل فيه فى مملكة الأموات، ارتحت فى يد الله راضيا سعيدا » .



فى هـذا الاهتمام الذى لقيته مواعظ أمنحوبى من جانب العلماء ما يمكن أن يكون درسا للمشتغلين بالأدب منا نحن المصريين . فقد رأينا أن إرمان لم يكد ينبه، فى سنة ١٩٢٤ إلى الشبه القائم بين هذه المواعظ وسفر الأمثال، حتى تهافتت طائفة كبيرة من العلماء على هذه المواعظ تدرسها وتبدى رأيها فى هذا الشبه .

وقد عددنا عشرة من هؤلاء العلماء، وهناك غيرهم، فى مدّة لا تزيد على خمس سنوات، لأن كتاباتهم كلها ظهرت فيما بين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٩ ، ومن هذه الكتابات كتب قائمة بذاتها ومباحث فى مجلات علمية عالمية ولا نعرض هنا لهذه الكتابات ، ولا للآراء التى أبديت فيها ، لأن ذلك سيأتى فيما بعد ، وإنما نعرض لهذا الاهتمام فى ذاته ، من جانب علماء، هم أبناء بلاد مختلفة، ولغات مختلفة، بناحية من نواحى الأدب المصرى القديم ، بينما المتأدبون المصريون، الذين يجب أن يكونوا ورثة هذا الأدب ، لم يعرفوا عنه شيئا ، ولم يأتهم خبر حتى عن الحلبة التى صالت فيها أقلام أولئك العلماء .

(١) قوله « من هو فى يد الله » تعبير يراد به من مات .

(٢) هذا مثل قول من يقول : « الكمال لله وحده » .

وقد يقال إن هؤلاء العلماء عنوا هذه العناية بمواعظ أمنحو بى بسبب التوراة وعندى أن كلاما كهذا لا يقلل من عملهم، ولا من خدمتهم الأدب المصرى والتاريخ المصرى، وهم لم يكتبوا ليخفضوا من مواعظ أمنحو بى أمام سفر الأمثال، بل كتبوا ليرفعوا من شأنها، وليقولوا بالشبه، وليدلوا على مواضعه، ثم ليفيضوا بعد ذلك فى كيف جاء هذا، وما تفسيره، وفى أى مكان يمكن وضعه من الحقائق التاريخية .

وقد دعاهم ذلك، أو هو قد دعا بعضا منهم على الأقل، إلى التوسع فى البحث، فلم تبق المسألة المطروحة أمامهم مسألة أمنحو بى والشبه الذى بين مواعظه ومواعظ فى سفر الأمثال، بل صارت مسألة الأدب المصرى القديم كله وأسفار التوراة كلها. ومن قبل هذا لم يفت علماء بارزين، مثل برستد، أن يجيلوا أقلامهم فى المسألة على وضعها هذا الأخير .

فلا عجب، وهذا هو اهتمام العلماء الأجانب بالبحث فى الأدب المصرى القديم، إذا أنا تمنيت أن يجيء يوم يجد فيه هذا الأدب مثل هذا الاهتمام من المتأدبين المصريين .



كان المصريون أهل زراعة، فكانوا يعنون بكل ما يتصل بالزراعة، ولهذا يقول امنحو بى :

« لا تغير حدا » .

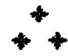
وقد تقدّم فى الدفاع الإنكارى[1] أن الميت يدافع عن نفسه أمام محكمة أوزريس فيقول :

« ... ولم أتلف أرضا مزروعة ... ... ولم أسد قناة رى على غيرى ... » .

---

(١) نشرنا هذا الدفاع فى ص ١٠٣ من المجلد الأول .

فتغيير الحـدود، و إتلاف الأرض المزروعة، وسد قناة الرى على الغـير، هى جرائم متصـلة كلها بالزراعة، وكان القانون المصرى يعاقب عليها ، ولكن الحكماء كانوا مع ذلك ينهون عنها لأن ما يشمله نطاق الأخلاق أوسع وأعم من النهى الذى يشـمله نطاق قانون العقوبات . والعقاب القانونى لا يصل إلى كل جريمة، لأن هناك جرائم ترتكب خلسـة فلا تعرف، وجرائم يحكم تدبيرها فيتعذر تقديم الدليـل عليها ، وجرائم يسكت المجنى عليه نفسه فيها مداراة للجانى وخوفا من بطشه ، فهذه الجرائم التى لا يدركها العقاب يدركها ولا شك النهى الأخلاق .



ويقول امنحوبى :

«لا تكن قاسيا فى جباية الضرائب ، وإذا وجدت فقيرا تراكمت عليه ضرائب متأخرة لعجزه عن دفعها فاجعلها ثلاثة أثلاث ، ثم ألق ثلثين منها ، ولا تبق غير ثلث واحد » .

وقد تقـدم فى باب « عقيدة الحساب بعد الموت » أن حاكما لاقليم أسيوط كتب على لوحة تذكارية لنفسه يقول[1] :

---

(١) ص ١٠٥ من المجلد الأول

كلمة ختاميـــة

بقـلم محمد عبد القـادر حمزة

شاءت إرادة الله تعـالى أن نحرم من والدنا وبعضنا ما زال يافعا يحتاج إلى التوجيه والإرشاد ، وإلى التهذيب والإعداد ، ففقـدنا بفقده أعز الآباء وأبر من وهبهم الله لبنيه وأشدهم حدبا عليهم ورفقا بهم . اختطف الموت والدنا ونحن مازلنا فى أول العمر لاهين عن حـوادث الأيام وصروف الزمان ، لأن من شأن الصبى ومن شأن الشباب أن يتجه إلى كل ما فيه أمل ورجاء ، ثم صدمتنا هذه الصدمة القاصمة فاذا عائلنا قد اخترمه الموت ، وإذا أستاذنا يحرمنا من فضل علمه ، ومن فيض تجاربه ، ومن فيض حكمته ، وإذا بنا نواجه كل شىء فى أحرج وقت ونحن عزل إلا من رحمة الله ، وإلا من هذا التراث الأدبى الضخم الذى أورثنا عبد القادر حمزة إياه ، فأورثنا معه عزة فى النفس ، وقوة مع الحق ، وإباء عن الضيم ، وصبرا على الحوادث ، وجلدا فى الملمات ، ونزاهة فى القصد ، وعفافا لليد .

لقد شببت وأنا ألمس من هذا الوالد العزيز كيف يكون الصبر على المكاره ، وكيف تكون الشجاعة فى مواجهة صروف الأيام بغير أن يعترى الإنسان ملل أو كلل لأن الله تعالى قد عمر قلبه بالإيمـان والامتثال لقضائه وقدره ، لقد كانت حياة والدى جهادا فى جهاد حتى أصـبح الكفاح جزءا من دمه يجرى فى عـروقه ، فلا يعرف معه للاستكانة طعما ، وحتى لقد أصبح هذا الكفاح قسما من ذات نفسه لا يبغى عنه حولا ، لأنه قد قدّ منه ، ولأنه قد خلق له .

لقد كانت حياة والدى سلسلة متتابعة الحلقات من ألوان الجهاد ، فمن اعتقال إلى تشريد ، ومن تحقيق يتلوه تحقيق ، إلى تهـديد بالقتل يسبقه إنذار بالحرق ، ومن إغلاق لكل سبيل للرزق يطرقه ، إلى محاربة فى النفس والمـال ، حتى فى أشدّ

أوقات النفس حاجة إلى الراحة لأنها تتألم تألم الجسم الذى يحملها من مرض شديد الفتك به .

كان هـذا دأب والدى ، لا يكاد ينتهى من نوع من أنواع الكفاح الوطنى حتى يبدأ نوعا جديدا ، ولقد كنا — نحن أبناءه وأهله وأصدقاءه — نشفق عليه من نتائج هذه التضحية المتواصلة التى تملكته فأصبحت النداء الوحيد المحبب إليه القريب إلى نفسه ، لم يصغ يوما إلى صوت غير هذا الصوت المدوى ، ولم يعرف يوما أن لبدنه عليه حقا ، بل سار فى كفاحه وفى تضحياته إلى آخر الشوط ، فكان يدافع عن مبدئه ، ويناضل عما يعتقد أنه الحق ، إلى أن يحصل عليه ، أو إلى أن ينيل أمته إياه ، وكان نجاحه هو عزاؤه ، ولو كان يعانى من المرض أنواعا ، ومن الألم ألوانا .

كان والدى يستطيع أن ينعم بالهدوء والراحة ، وألا يحمل نفسه عبء هذه الآلام المبرحة التى عاناها منـذ العام الذى ولدت فيه إلى أن قضى إلى رحمة الله . وأن يجنى نجاحا ماديا جناه غيره ممن احترفوا مهنتـه ، وأن يترك لأبنائه لا تراثا أدبيا بل إرثا ماديا كان يمكن أن ينعمـوا بخيراته ، وأن يكفيهم صعوبات الحياة ومفاجآتها ولكنه آثر أن يكون من المجاهدين الذين لا يعدلون بالتفانى فى سبيل خير الوطن شيئا . آثر عبد القادر حمزة أن يكون كفاحه خالصا لوجه الوطن ، وألا يفرط فى واجبه نحو بلاده مهما تعاقبت عليه الصعاب وتزاحمت الحوادث . فضل فقيدنا العزيز ألا يساوى بجهاده أمرا مهما كبر شأنه وعظم أثره فى نفسـه وفى مصيره ، فمات بعد أن أدى رسالته خير أداء ، وتوفى بعـد أن أقام للكفاح فى سبيل المبدأ خير بنـاء .

*
* *

كان هذا مبلغ حبه الشديد لمصر ، وكان هذا الحب الخالص الدافق هو الذى صرفه أول ما صرف إلى تاريخ مصر القديمة ، لأن طبيعته تدفعه إلى كل ما يدعوه إلى الفخر ببلاده ، وإلى الاعتزاز بأجداده ، هؤلاء الأجداد الذين حملوا لواء المدنية

قرونا عديدة، والذين عرف العالم لهم فضلهم، وذكر لهم أثرهم ، وأشاد بمدنيتهم وحضارتهم التى أشرقت فأنارت وعلمت ، وقت أن كان العالم غارقا فى بحر من الظلمات والجهالة .

أحب عبد القادر حمزة تاريخ مصر لأنه أحب مصر من قبل ، وتوفر على أعمال قدماء المصريين أو الفراعنة، لأنها صفحة مجيدة من صفحات مصر، تعرفها الدنيا بأسرها ولا يعرفها أبناء مصر. طالع كتب الأجانب فاذا به يرى أن المصريين هم المعلمون الأول لحضارة تلقاها أحفادهم بعد ذلك ممن كانوا تلاميذ لأجداد هؤلاء الأحفاد . فعشق تاريخ مصر وأحله من ذات نفسه المحل اللائق، و بدأ كما يبدأ الطالب فى أوّل سنى دراسته، وعكف وأخلص وتفانى، و بحث ونقب وعانى، وظل سنوات طويلة يدرس هذا التاريخ، ليخرج منه صفحة بل صفحات مجلوة يعرف بها المصريون حقيقة هذا المجد بل هذا النور الذى أضاء العالم، وحمل شعلة المدنية قرونا عديدة ، ثم تلقت شعوب أخر قبسا من هذا النور فنشرته ، وأشيد بأسمائها ونسب إليها فخر تقدم الناس وتحضرهم، وكاد فضل المعلمين الأول ينسى، بل حاول نفر من العلماء أن يجحد هذا الفضل ، وأن يثبت وجوده لغير أجدادنا، ولكن هذا الجحود عز على عبد القادر حمزة فهب كأشد مايكون المصرى غيرة وتحمسا للحق ، يجلو عن الحق سحابة من إنكار الجميل، و يعزو الفضل لأهله ، و يرى المصريين كيف كانت مدنية أجدادهم الذين ابتدعوها منذ آلاف السنين، وكيف ضرب هؤلاء الأجداد بسهم وافر فى كل علم وفن ، وتركوا للمدنية سجلا أبيض الصفحات مذهب الحواشى، ينطق كل حرف منه بما كان عليه الفراعنة أبناء مصر الأوّلون من حذق ونبوغ .

أحب والدنا تاريخ قدماء المصريين حبا لا يعرف كنهه ولا يدرى مبلغ عمقه إلا من عاش معه ورأى هذا الاخلاص العجيب الذى كنا نلمسه من هذا الوالد وهو يطالع كتابا من كتب التاريخ القديم، أو وهو يبحث بغير ملل بل بنفس راضية

عن مؤلف لم تتح له الفرصة قراءته ، وشاهد بريق الفرح يلمع فى عينيه وبوادر الغبطة تغمر وجهه، إذا عثر فى بحثه على ما يعزز رأيه، ويقوى حجته، ويشيد معه بذكر الفراعنة الأقدمين وينصفهم، ويعترف لهم بفضلهم ويمجدهم .

كان عبد القادر حمزة فى حماسته للتاريخ المصرى كمبشر اعتنق مذهبا سرى فى نفسه مسرى الروح فأصبح لا يفكر إلا فيه، ولا يدعو إلا له ، وكما يبدأ صاحب الدعوة بأهل بيته وبذوى قرباه، بدأ فقيدنا بأبنائه، فكان رحمه الله يجمعنا ويحدث إلينا حديث المؤمن الشديد الإيمان بمفاخر قدماء المصريين، ومع أنه كان مصابا بمرض القلب لم يكن يشعر يوما — وهو يعلمنا تاريخ أجدادنا ، ويهدينا إلى فضلهم على العلم وعلى المدنية وإحاطتهم بشىء كثير مما نسميه مظهرا من مظاهر تحضرنا الحديث — لم يكن فقيدنا يشعر بشىء من التعب يعتوره أو بقليل من الملل يصيبه ، بل كانت الساعة تمر تلو الساعة وهو يقرأ أو يستنتج لنا ويروى أدبا مصريا قديما أو معجزة سجلها علماء أوربا لأصحابها المصريين أو تنظيما اجتماعيا أو اقتصاديا أو أخلاقيا كان أجدادنا قد تركوه للعالم ناضجا شامخ البناء .

ولم يكن أى شىء فى الوجود يبعد فكره ويشغل ذهنه عن أجداده وعن تاريخ أجداده، بل لم يكن عمله فى البلاغ، وهو وليده الأخير، ينسيه واجبه نحو الفراعنة الأقدمين ، حتى فى آخر أيام كفاحه ، وفى أشد أطوار معاركه الكثيرة التى يعرفها المصريون له ، وإنما كان التاريخ سلوته وكان صفيه ، وكان مصدر أمنه، ومبعث قوته وجلده، لأنه كان ينصرف إليه إذا عاد من عمله الصحفى تعبا، وكان يجد فيه تجديدا لأفكاره ولنشاطه الذى كان فى بعض السنين أحوج ما يكون إلى بقائه وإلى استمراره برغم علته وبرغم اشتدادها عليه فى كثير من الأحايين .

كان الفقيد العزيز يأرق كثيرا فى السنوات الأخيرة فكنا إذا أرق واستيقظ واحد منا — يراه عاكفا على التاريخ المصرى القديم ، يمضى فى مطالعته ، وفى تسجيل ملاحظاته، فلا يترك الكتاب أو القلم حتى يعاوده النوم ، أو تشرق الشمس،

وعندئذ يترك عمله المحبب ليعود إليه فى أقرب فرصة . كما تقول له فى بعض الأحايين "إنك عربى تنتسب إلى إحدى القبائل العربية فأحر بك أن تصرف هذا الاخلاص كله ، بل التفانى كله فى سبيل تاريخ أقرب إلى جنسك وإلى دمك وهو التاريخ العربى ، ولكنه كان يجيب دائما « إنى عربى ولكن تاريخ الفراعنة هو تاريخ مصر . فأما تاريخ العرب فلم ينله إنكار ، ولم ينتبه تحريف كما نال التاريخ المصرى القديم ، وأخيرا فان أجدادنا الأولين كانوا المعلمين الأول فلماذا لا نشيد بهذا الفضل ونسجله لأنفسنا ونعلمه أولادنا ونصوّره لشبابنا ليكون خير مثل وخير قدوة » .

وما لى أذهب بعيدا فى سبيل الاستشهاد على حب والدى لتاريخ قدماء المصريين ، ورغبته الحارة الشديدة فى أن يحله المصريون محله اللائق به ، لأنه تاريخهم وتاريخ بلادهم فى أحسن صوره وفى أنضر صفحاته — مالى أذهب بعيدا ولدى الدليل الحاضر على أن آخر ما دوّنته يراعة عبد القادر حمزة هو هذا ، ثم أعجزه المرض الأخير عن أن يكتب شيئا لمصر القديمة أو للبلاغ أو حتى لأبنائه . كان والدى قد بدأ يحث باب " الأدب المصرى القديم " وأتم الأقسام الخاصة بمواعظ خيتى ومواعظ أمنمحت مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، ثم مواعظ آنى أحد كتاب الدولة الحديثة فمواعظ أمنحو بى أحد كبار الموظفين لابنه . وقد نال هذا القسم من عناية والدى جزءا غير قليل للشبه الشديد بينه وبين سفر الأمثال فى التوراة ، وعقب على ذلك بكلمة يراها القراء فى الصفحة ١٧٩ رأيت أن أعيد تسجيلها هنا ، لأنها تدل على مبلغ الأمنية الحارة التى كانت تملك والدى فى أن يرى الأدب المصرى القديم ، وهو الوحى لآداب أخرى قديمة ، موضع عنايتنا وفخارنا .

قال عبد القادر حمزة فى وسط هذه الصفحة " فلا عجب ، وهذا هو اهتمام العلماء الأجانب بالبحث فى الأدب المصرى القديم ، إذا أنا تمنيت أن يجىء يوم يجد فيه هذا الأدب مثل هذا الاهتمام من المتأدبين المصريين " .

وتابع والدى بحثه فى مواعظ أمنحوبى ولكن القــدر كان له بالمرصاد إذ ما كاد يتم استنتاجه الخاص بالجرائم الزراعية التى يعاقب عليها القانون المصرى القديم ويبدأ ناحية جديدة من البحث وموعظة جديدة لأمنحوبى قال فيها لابنه " لا تكن قاسيا فى جباية الضرائب ، وإذا وجدت فقــيرا تراكمت عليه ضرائب متأخرة لعجزه عن دفعها فاجعلها ثلاثة أثلاث ، ثم ألق ثلثين منها ، ولا تبق غير ثلث واحد". ثم يقول والدى معقبا على ذلك " وقد تقدّم فى باب عقيدة الحساب بعــد الموت أن حاكما لإقليم أســيوط كتب على لوحة تذكارية لنفسه يقول ... " ما كاد والدى يصــل إلى هــذه الجملة حتى انتابه مرض الموت فأعجزه عن إتمــام جملته ، وقعد به عن أن يسجل ما كان يفكر فيه ، فتركها جملة غير مفيدة على أمل أن يتمها بعد أن يمن الله عليه بالشفاء ، ولكن لم يكن هناك شفاء ، بل كان هناك قضاء قــد حم ، فأفقدنا والدنا العزيز ، وأفقــد أصدقاءه الذين شاركوه حبه للتاريخ المصرى القــديم عنصرا جديدا من عناصر فضل الفراعنة المصريين على مظاهر الحياة والمدنية فى العــالم . وهكذا أصبح مؤلفه الثانى عن تاريخ هؤلاء الأجداد تراثا لنا ولقرّاء عبد القادر حمزة وأثرا من أعز آثاره لدينا ، لأنه آخر آثاره ونهاية ما دوّنه قلمه العف لأبنائه وأصدقائه .

*
* *

مرض والدى مرضــه الأخير الذى أتم فيه أربعة أسابيع كاملة وكان لفرط اشتداد العلة به ممنوعا من القراءة أو التحرّك فى سريره أو التحدّث حديثا مستمرا ولو فى أهون الشئون . وكان بعد أسبوعين من بدء مرضه هذا قد أصيب بالتهاب رئوى أتعبه ، ثم منّ الله تعالى عليه بنعمة الشفاء منه ، ولكن مرض القلب ظل على حاله من الخطورة ، وبقيت العلة تحتاج للبرء منها إلى مزيد من الراحة والعناية والهدوء ، وإلى اتباع أوامر صارمة لا قبل لحياة ثائرة بها ، فبدا الملل على وجه والدى ، ووضح حنينه إلى الخروج ولو قليلا على هذه الأوامر ليزيل عنه ملله ، وليمتحن مبلغ قوّة جسده على احتمال المرض وليطمئن نفسه على أنه ليس على حافة الأبدية . ولاحظنا

منه هـذه الرغبة فأشفقنا عليه أن يغادر سريره أو أن يواصل بحثه فى كتبه ، وأتت له السيدة حرمى بمجموعة من صور ملوك قدماء المصريين وآلهتهم ورسومهم على الآثار لتسليته بما أحب وفضل ، فما كاد والدى يرى هذه المجموعة حتى تهلل وجهه وانفرجت أساريره وبدت عليه غبطة كنت أرجو أن تدوم له ، وانصرف إلى هذه المجموعة ناسيا علته وأوامر طبيبه ، وبدأ يشرح لنا كل صورة ويوضح مميزات كل رسم وأثر كل إله فى الحياة المصرية القديمة . وكأنه انتهز هذه الفرصة ليعود إلى أجداده وليعاود بحث تاريخهم والتنقيب عن مفاخرهم ، بعد أن حال المرض بينه وبينهم ، وكأن سروره الوقتى الذى غمره عند رؤية الصور المقدّمة إليه قد بث فى نفسه بعض القوة وفى جسده المتعب بعض الجلد ، فظل نحو ساعة يشرح لنا ويسهب فى الشرح إلى أن عاودته العلة وتغلب المرض على قوة جلده ، فظهر التعب عليه وبدا الأسف علينا لأننا تركناه لسجيته فأصابه الضر وقد كنا نرجو الله أن يمنّ عليه بالشفاء .

لقد كان والدى يرجو الله مخلصا أن يمدّ فى حياته ليكتب الباب الأخير الذى أشار إليه فى بعض نواحى هذا الكتاب وهو باب " أثر الأدب المصرى فى الأدب العبرى " لأنه كان يعتبره أهم الأجزاء ولكنه ذهب إلى الرفيق الأعلى قبل أن يبدأه ، بل قبل أن يتم باب (الأدب المصرى القديم) وتطوع نفر من علمائنا العارفين للتاريخ المصرى القديم لإتمام ما تركه عبد القادر حمزة ، ولكنى فضلت أن يظل مؤلف والدى كما تركه أثرا له قبل أن يكون مؤلفا شاكرا لهؤلاء العلماء كرمهم وتطوعهم آسفا معتذرا .

والآن لم يبق علىّ إلا أن أتقدّم بهذا الأثر الأخير إلى قرّاء كرام لست أجد لهم تعريفا أكثر من أنهم قرّاء عبد القادر حمزة ، راجيا من الله تعالى أحر رجاء أن ينزل والدى فسيح جناته وأن يلهمنا الصواب والتوفيق فى احتذاء خطواته والإبقاء على تراثه إنه سميع مجيب .



فهرس الصور الداخلة فى المتن

الصور التى فى هـذا المجلد كالصور التى فى سابقه نوعان : أولها الداخلة فى المتن ، والثانى اللوحات التى لا تدخل فى المتن والمطبوعة على ورق خاص . فالفهرس الذى نذكره هنا هو فهرس النوع الأول من الصور

صفحة

فهرس اللوحات الخارجة عن المتن

فهـــرس المـــواد

* * *

كَمُلَ طبع المجلد الثانى من كتاب "على هامش التاريخ المصرى القديم" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٦١ (٢٦ مايو سنة ١٩٤٢) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٠/١٩/١٧٥٠)